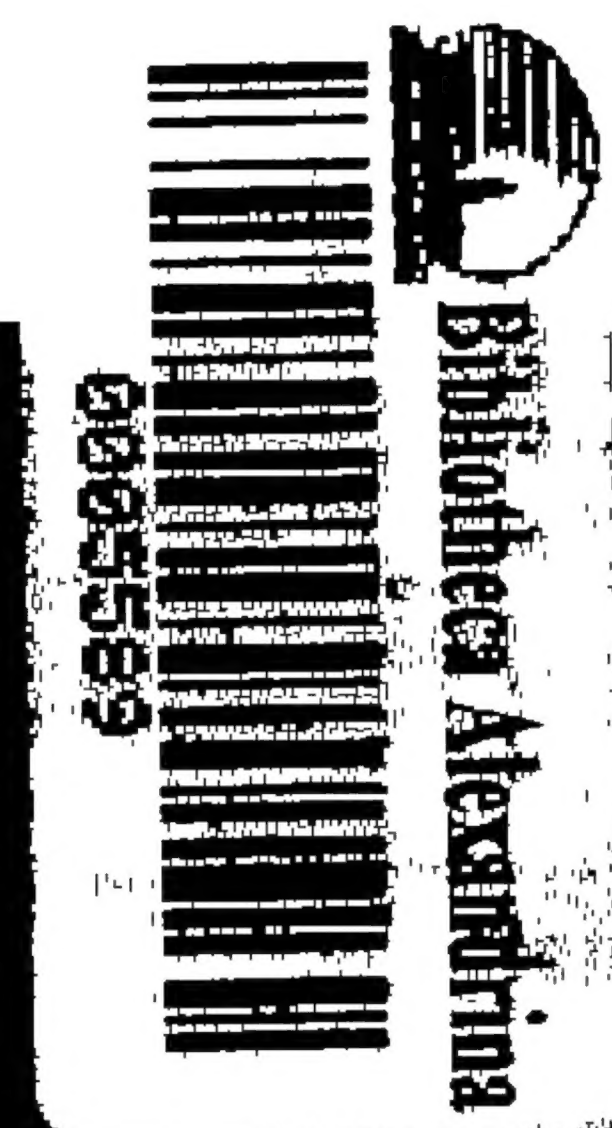


أحمد حمروش

مصر والسودان

كفاح مشترك

دار الهلال



962,403*

192

9

2000-00-00
11/11/00

11/11/00

الهيئة العامة للكتاب المنشور العدد الطبعة المجلد العدد العدد العدد

أحمد حمروش

مصر والسودان كفاح مشترك

دار الهلال

اهـداء

الى ذكرى محمد على محمد
وصلاح بشرى .. طالبين من
السودان استشهدا في مصر
خلال كفاح مشترك ضد
الاستعمار البريطانى
والرجعية . ومن أجل
استقلال الوطن والحرية
والاشتراكية . . .

الباب الأول

مؤامرة الاستعمار البريطاني ضد الوجود المصري بالسودان

- نصيحة استعمارية باخلاء السودان
- عودة الاستعمار الى السودان
- اللواء الأبيض
- تأمر الاستعمار ضد الوجود المصري

في هذه الأيام التي يتغير فيها وجه السودان ، وتستقبل الجما
 حكومة ثورية جديدة .. لا تصبح الكتابة عن هذا البلد الشا
 متعة ذهنية أو سياحة فكرية .. وانما تتحول الى واجب ومسئولية وه
 وكثيرا ما نسمع من الأصدقاء في الخرطوم أن أبناء مصر لا يعرف
 شيئا عن السودان .. بينما عدد كبير من أبناء السودان يعرف
 شيء عن مصر . وهذا صحيح .. فان السوداني اذا فكر في مغا
 وطنه ، اتجه شمالا الى القاهرة .. والمصرى أيضا يتجه شمالا
 ولا يعرف عن الجنوب الا قليلا . ولكن ذلك لا يضعف الصلا
 الانسانية العميقة للشعبين اللذين يجمعهما وادي النيل .. والسود
 في مصر يشعر أنه في وطنه وأرضه والمصرى في السودان لا يش
 مطلقا أنه غريب .. وكثير من أبناء مصر ينتشرون في أنحاء السود
 وأقاموا هناك منذ تاريخ طويل كأنهم لم يبتعدوا عن الدلتا
 الصعيد ..

تحرك المصريون الى الجنوب في ألفة ، وهم الذين لم يعتاد
 الهجرة وربطت بينهم وبين شعب السودان صلات وذكريات تاريخ
 توطدت على مر الزمن .

المادة ٢٤ من اللائحة الأساسية التي تقدمت بها وزارة شرا
 الى مجلس شورى القوانين في ١٨ مايو سنة ١٨٧٩ كانت تنص
 على الآتى :

» ان أعضاء مجلس النواب لا يزيدون عن ١٢٠ نائبا بما فيه

نواب السودان .

وكانت المادة ٨ تقول « كل نائب يعتبر وكيلًا عن عموم الأمة المصرية وليس فقط عن الجهة التي انتخبته » .

ونصت المادة ٢٥ من لائحة الانتخابات على انتخاب ٢٦ نائبا عن السودان .

صحيح ان بعض الحكام الذين أوفدتهم الحكومة المصرية سواء في ذلك المصريون أو الأجانب قد تميزوا بسوء الادارة ، ولكن ذلك كان يلحق بالمصريين كما يلحق بالسودانيين تماما .

وثورة عرابي ضد الخديوى توفيق وبقايا الحكم التركى والتدخل الاستعماري البريطانى في مصر التقت مع ثورة المهدي التي نشبت ضد ظلم الادارة سنة ١٨٨١ والتي انتصرت سنة ١٨٨٥ وجعلت السودان أول بلد عربى افريقى مستقل .

وكان واضحا منذ ثورة المهدي أن الاستعمار البريطانى يهدف الى قطع الصلة التاريخية بين مصر والسودان ، كما حاول منذ اللحظة الأولى أن يسحق الجيش المصرى .

احتلت القاهرة في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢

وألقى الخديوى توفيق الجيش المصرى بمرسوم صدر بعد

خمسة أيام في ١٩ سبتمبر ١

ثم عهد توفيق أيضا بتنظيم جيش جديد الى السير فالتين ييكر . وعين السير ايفلين دود سردارا أو قائد عاما للجيش في ١٦ يناير سنة ١٨٨٣ وظهرت بدعة البدل النقدي للاعفاء من التجنيد بمرسوم صدر في ٩ يونيو سنة ١٨٨٦ .

نصيحة استعمارية باخلاء السودان

وسحب الخديوى آخر قائد مصرى فى السودان — عبد القادر
باشا حلمى — واستبدله بهيكس باشا الذى عين رئيسا للأركان فى
الجيش السودانى ..

وبعد هزيمة هيكس باشا من المهدي يوم ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ ..
نصحت الحكومة البريطانية مصر باخلاء السودان .
رفض شريف باشا ..

وهنا أرسل اللورد جرانفيل وزير المستعمرات برقيته الشهيرة فى
يناير سنة ١٨٨٤ يقول فيها « لا أرى حاجة الى أن أوضح لكم أنه
من الواجب ما دام الاحتلال البريطانى « المؤقت » قائما فى مصر
أن تتأكد حكومة جلالة الملكة من ضرورة اتباع النصائح التى ترى
اسداءها للخديوى فى المسائل الهامة التى تستهدف فيها ادارة مصر
وسلامتها من الخطر .. ويجب على الوزراء والمديرين المصريين أن
يكونوا على بينة من أن المسئولية الملقاة الآن على عاتق الحكومه
البريطانية تضطرها الى أن تصر على اتباع السياسة التى تراها ومن
الضرورى أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لا يسير وفقا
لهذه السياسة !!

واستقال شريف باشا فى ٧ يناير سنة ١٨٨٤ قائلا « اذا تركنا
السودان فالسودان لن يتركنا » .

وجاءت وزارة نوبار باشا فى يوم ١٠ يناير خاضعة للاحتلال
البريطانى ساجدة لأوامره ، مصدرة تعليماتها باخلاء السودان
وترحيل الموظفين وسحب الحاميات المصرية التى بلغت ٢٥٠٠٠
جندى ، وصدر مرسوم فى ١٥ يناير بالحاق ادارة السودان بوزارة
لحرية بدلا من رئاسة الوزراء .

وعين غوردون حكاما عاما للسودان لارجاع الجنود والموظفين
الملكيين والتجار الى مصر .

وحوصر غوردون فى الخرطوم التى سقطت فى يد المهدي يوم ٢٦
يناير ١٨٨٥ ومع ذلك أعطت بريطانيا لنفسها حق توزيع أراضى
السودان ..

أبرمت اتفاقيات ومعاهدات تنازلت بموجبها عن مساحات كبيرة
من أراضى القطر الشقيق .. الذى كانت تمتد حدوده الى خط
الاستواء فى عهد الخديوى اسماعيل وتوفيق .

عقدت معاهدة مع ايطاليا فى ١٥ ابريل سنة ١٨٩١ ، ٥ مايو ١٨٩٤
ومعاهدة أخرى مع ألمانيا أول يوليو سنة ١٨٩٠ .

وثالثة مع الكونفو فى ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ .

وهكذا حقق الاستعمار البريطانى رغبته بقطع الصلة التاريخية
بين مصر والسودان ليغودويضع السودان من جديد تحت نفوذه
بجنود مصرية يقودها بريطانيون ..

عودة الاستعمار الى السودان

كان الحديوى توفيق عميلا بريطانيا ينفذ أوامر الحكومة البريطانية بلا تردد ..

وعين اللورد كيتشنر سردار الجيش المصرى قائدا للحملة التى انتهت بدخول أم درمان يوم ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ بعد فترة حكم مستمر للمهدى عقب انتصاره فى سنة ١٨٨٥ .. وبعد يومين صدر التبليغ التالى :

• نظرا للمساعدات المادية يرفع العلم البريطانى بجانب العلم المصرى فى البر والبحر بجميع أنحاء السودان ماعدا مدينة سواكن فلا يرفع الا العلم المصرى فقط لأن القوات المصرية كانت تعسكر هناك .
• حكومة جلالة الملكة تعتبر أن لصوتها الغلبة فى جميع المسائل المتعلقة بالسودان .

• ووقعت اتفاقية السودان التى كانت تقرر دائما باسم المشئومة فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ .. وقع عليها اللورد كرومر عن الجانب البريطانى .. وبطرس باشا غالى عن الجانب المصرى .
ومن واجبا أن تتساءل وصولا الى الحقيقة :

لماذا أصر الاستعمار البريطانى على اخلاء السودان من المصريين ؟
ثم .. لماذا عاد واحتله من جديد بجند مصريين وقادة بريطانيين ؟

(١١)

كانت خطة الاستعمار البريطاني تقضى بقطع الصلة بين مصر والسودان نهائيا ، وتحويله الى مستعمرة بريطانية تعطى عمقا لمستعمراته في شرق ووسط أفريقيا .

والعلاقة التي كانت قائمة لم تكن تسمح مطلقا بتنفيذ هذه الخطة .. فان وجود الجنود والاداريين المصريين — رغم شبهته الاستعمارية وكراهية الأحرار له — كان يمثل ارتباطا تاريخيا قائما بين الشعبين ، ولم يكن يسمح للمستعمرين بأن يقيموا سياجا حديديا يعزل السودان عن مصر عزلا نهائيا .

وبدأ الاستعمار البريطاني في تنفيذ خطته ، ولا نريد أن نؤكد أو ننفي الواقعة التي تقول بأنه كان يمكن للاستعمار البريطاني أن يدخل الخرطوم بقوات جديدة من مصر يحرق بها غوردون .. ولكننا نقول فقط انه لم يكن عاجزا عن ذلك ..

وأراد الاستعمار البريطاني أن يكسب السودان صفة الدولة التي لا يستعمرها أحد في أفريقيا لمدة سنوات تبعد به صلتها عن مصر وتتلاشى العلاقات الشعبية الوثيقة بينهما بصفة تدريجية .. ثم يهجم عليه من الجنوب .. من كينيا وأوغندا ليحتله بقواته ويصبح مستعمرة بريطانية كاملة لا صلة لها بمصر .

كان الاستعمار البريطاني يريد أن يقيم « عازلا زمنيا » بين مصر والسودان ..

ولكن عاملا هاما لم يكن قد دخل ضمن خطة الاستعمار البريطاني انقض عليها ، وقلبها رأسا على عقب .

كانت فرنسا ترحف على أفريقيا من الغرب .. ولما كان السودان

بعد سنة ١٨٨٥ يعتبر دولة مستقلة فانها قررت أن تحتله وزحفت عليه بعثة مارشان حتى وصلت الى حدوده عام ١٨٩٨ .

وهنا جابه الاستعمار البريطانى موقفا اضطره الى تصرف سريع لم يكن الوقت كافيا للقيام بهجوم من الجنوب لصعوبات فى النقل البحرى والبرى وصعوبات جغرافية أيضا .

ولذا فقد اضطر الاستعمار البريطانى لاستخدام الجنود المصريين حتى يظهر أمام الاستعمار الفرنسى أن مصر هى التى تعود الى هناك كانت هذه الحجة بالاضافة الى ضيق الوقت الذى لا يسمح بهجوم من الجنوب هما العاملان اللذان حركا الاستعمار البريطانى فجأة للقيام بهذا الهجوم ، والوصول الى صيغة « الاحتلال - المشترك » التى لم يعرفها العالم من قبل !

وفى مواجهة مطامع فرنسا ورغبة فى تقسيم أفريقيا بين الدولتين عقدت معاهدة سنة ١٩٠٤ التى أعطت انجلترا حق التصرف فى مصر والسودان وأعطت فرنسا حق استعمار دول المغرب العربى « تونس والجزائر والمغرب » .

كان هدف الاستعمار واضحا فى القضاء على العمق العربى الكبير الممتد الى قلب أفريقيا حتى لا تعود من جديد مظاهر القوة التى لمعت بشائرها فى عهد محمد على ثم سرعان ما انطفأت بضغط الدول الكبرى وخطأ سياسته التوسعية .

وفى تيار النضال ضد الاستعمار البريطانى التقت الادارة المصرية والادارة السودانية ، وامتزجت الدماء والتضحيات ..

ورغم تكوين ثورة المهدي لحكومة مركزية ، فان الشكل القبلى

للسودان ظل قائما ، وان كان قد اهتز بالتحويلات التي أحدثها دخول الاستعمار ، وهو الذى ظل حريصا على الاحتفاظ بالنظام القبلى تسهيلا لمهمته فى السيطرة على البلاد ، وتحقيق مبدئه السياسى الشهير (فرق تسد) .

بعد عشر سنوات من الاستعمار ثارت قبيلة الحلاوين بزعامة عبد القادر ودجويه سنة ١٩٠٨ وحدثت انتفاضة ملك الزاندى فى الجنوب ثم سارت عدة قبائل سنة ١٩١٧ ، ولكن تلك الثورات فشلت لأنه لم يتوافر لها النفوذ المادى والروحى الذى توفر لثورة المهدي ولأنها ظلت محصورة فى اطار القبيلة عاجزة عن تحقيق تعبئة جماهيرية واسعة ..

يتوافق ذلك مع نضال الحزب الوطنى المصرى بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد الزعيم الذى كان يعلن فى المحافل الدولية وأمام شعب مصر ضرورة اقامة علاقة أخوية وثيقة بين القطرين .

ومع ذلك بدأت تظهر فى السودان طبقات وفئات جديدة عندما أصبحت التجارة مهنة رائجة بعد دخول الاستعمار واغراقه للأسواق بمنتجاته وهنا ظهرت فئة « الرأسمالية الوطنية » من التجار ، وتحولت أيضا طائفة المهدي الى دائرة اقتصادية كبيرة متعاونة مع الاستعمار ، جعلت الناس الذين تعلقت آمالهم بهم واعتبروا من أنصارها ينظرون الى القصور والحدايق ويقولون « لو كان المهدي حيا لثار ضد الطائفة ودائرتها » فلم يترك المهدي الملك لعائلته كما يقول الدكتور يوسف محمد بشارة فى كتابه « حول قيام التنظيم الشعبى لثورة مايو » قصرا ولا باخرة ولا طائرة بل سيفا ودرعا

وراثيا كانت كل ما يملك بجانب حبه لوطنه وجنده .
 وفي عام ١٩١٩ ركبت الطبقة المتوسطة في مصر موجة الثورة
 الشعبية ضد الاحتلال البريطاني ، وأدى هذا الى تشجيع الادارة
 المصرية في السودان لكل الحركات المضادة لبريطانيا .. ولعب
 الموظفون المصريون في مدن السودان المختلفة دورا ملحوظا في
 التعاون مع المواطنين السودانيين من أجل اثارهم ضد الاستعمار .
 وقد حاول الاستعمار أن يفرق بين ثورة مصر والسودان ، فأعلن
 سير لى ستاك الحاكم البريطاني الثالث الذي تولى عام ١٩١٦ بعد
 ونجت وكشنر قائلاً ان آلافا من الخطابات قد وصلته من شخصيات
 سودانية تطلب فيه ألا يسمح بتسرب الفوضى !

ولكن بدأت الطبقة الوسطى السودانية تشكل تنظيماتها السرية
 لمقاومة الاستعمار ، منادية بوحدة وادي النيل .. وقامت مظاهرات
 في الخرطوم عام ١٩١٩ ، وبعد صدور تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢
 الذي قرر انهاء الحماية على مصر والاعتراف بها دولة مستقلة مع
 الاحتفاظ بحق تولى البريطانيين لأربعة أمور كان السودان احداها .
 ولكن الحكومة المصرية رفضت ذلك .. وكانت تقدم أوراق
 مبعوثها لكل الدول في الخارج باسم ملك مصر والسودان وصاحب
 دارفور وكردفان ، أما الى انجلترا فان أوراق المبعوث المصرى لم
 تكن تحمل هذه الكلمات !!

اللواء الأبيض

وتكونت في هذه المرحلة جمعيات سودانية خارجة على النطاق القبلى معتمدة على أسس سياسية ولكنها لم تكن متطلعة الى أهداف اجتماعية .. تنادى بالوحدة مع مصر .. وكان أبرز قادتها الملازم أول على عبد اللطيف من الكتبية التاسعة السودانية الذى طلب أن يقسم الجيش السودانى بين اللواء للعرش المصرى .. وفى ١١ مايو سنة ١٩٢٢ أذاع منشورا بعنوان « مطالب الأمة السودانية » نشرته جريدة الأخبار فى القاهرة ، يطلب فيه استقلال السودان وضمه الى مصر فقبض عليه وحوكم بتهمة إثارة الشعب والاضطراب ، ففصل من الجيش وسجن لمدة عام ، ثم خرج من السجن فى أبريل سنة ١٩٢٣ وهو أشد مايكون حماسة لفكرته وكرهية لبريطانيا ..

ونشرت جريدة الأهرام يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٢٢ خبرا عن تكوين هيئات الدفاع عن السودان والاتحاد السودانى .

وبعد شهر واحد من خروج على عبد اللطيف من السجن أعلن فى اجتماع عام لم يحضره مصريون تكوين جمعية (اللواء الأبيض) اننى انتشرت فى مدن كثيرة بشمال السودان واختارت علما أبيض رسمت عليه خريطة النيل ، وفى ركن منها العلم المصرى الأخضر وقد كتب على أرضيته البيضاء « الى الإمام » وبدأت المظاهرات

في مصر تنادى « النيل لا يتجزأ » وقال على عبد اللطيف « لهذا الشرف عملت ، وفداء للوطن ولدت ، وللوحدة المصرية السودانية جاهدت » .
وقررت الجمعية ارسال وفد لمصر ينقل للبرلمان فيها رأى
السودانيين في مستقبل بلادهم ، وتمكن الوفد من الهرب
من الرقابة الانجليزية الا أنه اعتقل في حلفا وعاد تحت حراسة مشددة
الى الخرطوم ، حيث استقبله في المحطة حشد كبير من المواطنين على
رأسهم على عبد اللطيف .

وأمام هذا الموقف ناقش البرلمان المصرى قضية احتجاز الوفد
السودانى فى جلسة عاصفة ، وانتقلت المناقشة أيضا الى مجلس
اللوردات البريطانى فى جلسة ٢٥ يوليو ١٩٢٤ ، مما وضع القضية
أمام رأى العام العالمى .

وقامت مظاهرة أخرى فى أم درمان بعد تشييع جنازة مأمور
أم درمان المصرى عبد الخالق حسن وكان اداريا مصرية يتميز
بوطنيته ومساندته للنضال السودانى .

ووقف الشيخ عمر دفع الله ينادى بحياة الأمة المصرية والسودانية
ووحدة وادى النيل وحياة سعد زغلول ، فحكم عليه بالسجن ستة
شهور ..

ثم مظاهرة أخرى يوم ٢٣ يوليو فى الخرطوم هتفت بخروج
الانجليز فاصطدم بها رجال الأمن وأحدثوا عددا من الاصابات فى
جماهير المواطنين ..

واشتعلت المظاهرات بعد ذلك فى العاصمة الثالثة وبور سودان
وعطبرة وشندى ومدنى والأبيض .. ثم أخذت شكلها الصدامى

المسلح يوم ٩ أغسطس ١٩٢٤ ، عندما تظاهر طلبة الكلية الحربية بزيهم العسكري وهم يحملون ابنادق وخمسين طلقة رصاص ، ومروا بمحطة السكة الحديد ليرى المسافرين الى الاقاليم ان الخراطوم تتظاهر ضد البريطانيين .

ثم اتجهوا الى منزل الزعيم على عبد اللطيف وهتفوا بحياته وسقوط الانجليز والحاكم العام ، ثم مروا أيضا خارج سجن كوبر . ولم يتحمل الاستعمار هذا الاتجاه الجديد .. فقبض على رئيس الجمعية على عبد اللطيف للمرة الثانية وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات في سجن كوبر بالخراطوم .

وعاصرت هذه الثورات حرب النوير في الجنوب أيضا التي شبت أساسا ضد الوجود الاستعماري البريطاني .

تآمر الاستعمار ضد الوجود المصرى

وفى مصر كان هناك صراع من نوع آخر .. وزارة سعد زغلول الأولى عام ١٩٢٣ كانت موضع تآمر الاستعمار والملك منذ اللحظة الأولى باعتبارها حصادا لثورة ١٩١٩ وتعبيرا عن ارادة الجماهير . أزمته الأولى كانت مع الملك حول حق تعيين أعضاء مجلس الشيوخ التى احتكم فيها الى النائب العام للمحاكم المختلطة وقتئذ ، الذى حضر جلسة مناقشة بين الملك وسعد زغلول ، انتهت الى قول زغلول « اذن سأستشير الشعب .. » وهنا رضخ الملك . وفى هذه الوزارة قرر البرلمان حذف مبلغ ١٤٠٠٠ ر جنيه كانت تدفعها الحكومة المصرية لجمارك السودان عن مهمات وذخائر الجيش المصرى فى دخولها للسودان وكان ذلك بناء على اقرار الحاكم العام البريطانى .

وكان سعد زغلول حريصا على التفاوض مع بريطانيا التى غيرت من أسلوب سيطرتها المباشر بعد ثورة ١٩١٩ وآثرت أن تحظى بشرعية لاحتلالها بدلا من الحكم السافر .. وسافر سعد زغلول فى ٢٥ يوليو ١٩٢٤ ليناوض رمزى مكدونالد رئيس حكومة العمال ، الذى كانت حكومته تقمع الحركة الوطنية فى السودان « جمعية اللواء الأبيض والاتحاد السودانى وغيرها .. بوحشية بالغة » . وأعلن اللورد بارمور فى البرلمان البريطانى « ان الحكومة

البريطانية لا تترك السودان بحال وهى تقدر التعهدات الواجب تحملها والتي لا يمكن تركها من غير أن تصاب سمعة بريطانيا بخسارة عظمى ، وأستطيع أن أقول من غير تردد أن نظام السودان لن يسمح بتغييره ولا أن ينفذ ذلك التغيير من غير موافقة البرلمان . وكانت هذه الكلمات صدمة شديدة لسعد زغلول الذى ذهب حاملا مطالبه التى جاء فى مقدمتها :

- ١ - سحب جميع القوات البريطانية من الأرض المصرية .
 - ٢ - عدول الحكومة البريطانية عن دعواها الاشتراك بأية طريقة كانت فى حماية قناة السويس .
 - ٣ - استندت مصر بحقها الكامل فى السودان ، واعتبار الحكومة البريطانية غاصبة .
- وكان الجواب الوحيد عند البريطانيين هو الرفض المطلق لهذه المطالب وفشل المفاوضات بعد ثلاث جلسات فقط !
- وعاد سعد يواجه المؤامرات ..

وكان واضحا ان هدف الاستعمار البريطانى ليس التخلص من الوزارة الوفدية فقط ولكنه تنفيذ سيطرته واحتلاله للسودان، وضرب الحركة الوطنية السودانية التى ربطت نفسها بالحركة الوطنية فى مصر. وكانت الحكومة المصرية برئاسة سعد زغلول قد أبلغت الحكومة البريطانية فى ٢٥ يونيو ١٩٢٤ عن طريق مفوضيها بلندن ان بعض الموظفين البريطانيين فى السودان يشجعون حركة مصطنعة ترمى الى انفصاله عن مصر ، وانهم يجمعون بقسوة وشدة المظاهرات التى يقوم بها المواطنون الموالون لمصر والتى تدفعهم اليها تلك الحركة المصطنعة

وطلب سعد زغلول من رئيس الحكومة البريطانية أن يساعده في القضاء على تلك الأعمال التي تخرج شعور الشعب المصرى وتمس حقوقه . وأرسل سعد زغلول برقية بنفس المعنى الى الحاكم .
لم يجب الحاكم العام للسودان على البرقية ا
وأجاب وزير الخارجية البريطانية بأن الحكومة البريطانية تؤيد الحاكم العام للسودان في أخذ المشاغبين الذين يشيرون الاضطرابات عمدا بالشدة ا

ولكن في أوائل أغسطس ١٩٢٤ اشتد الاضطراب في السودان ، وتظاهر طلبة المدرسة الحربية في الخرطوم وأورطة السكة الحديد المصرية .. وأطلقت الحكومة السودانية النار على المظاهرات .
وأرسلت الحكومة المصرية خطابا في ١٥ أغسطس تقول فيه انها تتبمع بمزيد الحزن والأسف الحوادث الأليمة التي تتوالى في السودان منذ بضعة أسابيع والتي اعتبرتها نتيجة طبيعية لخطة الموظفين البريطانيين في السودان .

وأجابت الحكومة البريطانية في نفس اليوم بأنها « تريد أن تعلن الحكومة المصرية بأنهم الصراحة بأنها تعد نفسها مسئولة عن حفظ النظام في السودان »

وأضافت القول بأنها قد « اتخذت العدة لتعزز الحامية البريطانية واجازت الحكومة السودان أن تبعد في الحال عن السودان أورطة السكة الحديد وأى وحدة أخرى من الجيش المصرى قد يرى منها عدم الولاء . كما هددت بأنها لن تتردد في اتخاذ أى تدابير أخرى لحماية الأمن العام .

ورد سعد زغلول في ٢٢ أغسطس ... رفض أن يكون للحاكم العام حق اتخاذ قرار بإبعاد جنود مصرية أو تعزيز الحاميات الموجودة هناك قبل الرجوع للحكومة المصرية .

ثم جاء تمثيل السودان في معرض دمال الاستعماري موضع رفض للحركة الوطنية السودانية التي ثارت والتهبت ، وأدت الى حدوث احتكاك مباشر بين الوزارة الوفدية والاستعمار البريطاني . وفي فترة الصدام المسلح بين القوى السودانية والقوات البريطانية أرسلت الحكومة المصرية احتجاجا تقول فيه « ان الحكومة لتشعر بشعور الأمة تلقاء هذه الحوادث المشؤمة وهى ساهرة على معالجتها بما يحفظ كرامة البلاد ويصون حقوقها .

كانت هذه الكلمات تعبيرا عن موقف وطنى بصورة شكلية ، فان الحكومة المصرية لم تكن تملك وسيلة ايجابية للعمل .. ولكنها على أية حال تثبت أن الحكومة المصرية كانت تنتهز كل فرصة للتعبير عن رأيها في أهمية بقاء الرابطة العضوية بين شعب مصر والسودان . وفي هذه الثورة السياسية الجارفة قتل سيرلى ستاك عام ١٩٢٤ الساعة الثانية ظهرا يوم ٢١ نوفمبر بشارع اسماعيل باشا بأبظة بالزمالك بالقاهرة .. فانتهزت انجلترا الفرصة وقدمت انذارين الى الحكومة المصرية التي كان يرأسها سعد زغلول تطلبها بالآتى :

أولا - اعتذار الحكومة المصرية عن الجناية .

ثانيا - ان تبحث عن الجناة وتنزل بهم أشد العقاب .

ثالثا - أن تمنع وتقمع بشدة كل مظاهرة شعبية سياسية .

رابعا - أن تدفع للحكومة البريطانية غرامة قدرها نصف مليون جنيه.

خامسا - سحب الجيش المصرى من السودان وتحويل الوحدات السودانية التابعة للجيش المصرى الى قوة سودانية تكون خاضعة ومالية للحكومة السودانية وحدها .

سادسا - اطلاق يد حكومة السودان فى مساحة أطيان الجزيرة من ٣٠٠٠٠٠٠ فدان الى مقدار غير محدود .

سابعا - أن تعدل الحكومة المصرية عن كل معارضة لرغبات الحكومة البريطانية فيما يتعلق بحماية مصالح الأجانب فى مصر ، وان يعاد النظر طبقا لهذه الرغبات فى شروط خدمة الذين لا يزالون فى خدمة الحكومة المصرية وفى الشروط المالية لتسوية معاشات من اعتزلوا الخدمة منهم ، وأن تبقى منصب المستشار المالى والقضائى وتحترم سلطتهما وامتيازاتهما كما نص عليها عند الغاء الحماية وان تحترم أيضا نظام القسم الأوروبى فى وزارة الداخلية واختصاصاته وتنتظر بعين الاعتبار الوافى الى ما قد يبيده مديره العام من المشورة .

وهكذا أسفرت بريطانيا عن حقيقة مطالبتها بعد مقتل السردار .. وقبل سعد زغلول البنود الأربعة من الأئذار .. ورفض الباقي ! وكان قبول سعد زغلول لقمع المظاهرات الشعبية التى حملته الى رئاسة الوزارة غريبا ومثيرا .. ودليلا على أنه لم يكن يقدر قوة الجماهير التى تساند حكومته . ربما وجد فيه أسلوبا يقنع البريطانيين بهأونه معهم .. ولكنه نسى أن ذلك الموقف قد اثر على ثقة جماهير الشعب التى تصورته مدافعا عنها وبطلا يحمى حريتها ... وارجع الوفد نفسه بذلك خطوات خلف القوى الحقيقية التى يمكن أن تدافع عنه فى مواجهة الملك والسراى .

ومع قبوله لهذا الموقف المرفوض من الشعب ، الا أن الاستعمار كان يرمى في تنفيذ خطته بأسلوبها المرسوم .. استند الى عدم قبول الانذار كاملا ، وتحركت القوات البريطانية ، واحتلت جسر الاسكندرية ، واستقالت الوزارة في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٣ بعد عشر شهور فقط من توليها الحكم بعد أن قال سعد زغلول كلمته المعروفة «ان جريمة اغتيال السردار قد أصابت مصر وأصابتني شخصا» وجاء زيور باشا رئيس الوزراء ، قابلا للانذار ، متساهلا في كل شيء ، قائلا كلمته المشهورة التي جعل منها أساسا لسياسته « انقاذ ما يمكن انقاذه »

أسرعت الحكومة البريطانية لتنفيذ مخطتها .. فحاصرت القوات البريطانية القوات المصرية في الخرطوم .. ورفضت الكتيبة الثالثة السفر الا بأوامر وزير الحربية المصري .

ولم يقف السخط والرفض عند حد القوات المصرية بل تعداه الى القوات السودانية .. ثارت الكتيبة الحادية عشر السودانية وتحولت الى كوبرى الخرطوم الشمالى حيث قررت الاتحاد مع الجيش المصرى ببحرى ، وهنا خرجت قوة بريطانية حاولت منعها من الوصول ، فأمر القائد السودانى عبد الفضيل المظ بالضرب فى البريطانيين فحصلت الذين تعرضوا لها وظلت تقاتل حتى انتهت ذخيرتها عند منتصف الليل وهنا هجمت على المستشفى العسكرى البريطانى وقتلت بعض ضباطه ، واحتلوا نادى الضباط المصريين خلال الليل ، ولكن القوات البريطانية حاصرتهم وأطلقوا عليهم النيران ونسفوا المستشفى الذى أخذته القوات السودانية حصنا لها،

وظلوا يقاومون حتى انتهت ذخيرتهم صباح ٢٩ نوفمبر . وقتل قائدهم عبد الفضيل المظ . بينما كانت القوات المصرية ترحل بالقطار الى بور سودان ..

وصدر الحكم باعدام ثلاثة ضباط سودانيين واعتبر يوم ٥ ديسمبر يوم حداد عام ..

ودخلت الثورة سجن كوبر مرة أخرى عندما علم المسجونون السياسيون بالحوادث فقدموا الى المحاكمة بتهمة محاولة قلب نظام الحكم ، وصدر حكم ثالث بالسجن لمدة ٧ سنوات ضد علي عبداللطيف غير الثلاث التي كان ينفذها وانتقل من سجن كوبر الى سجن واو .

وثارت القوات السودانية « الأورطة ١٠ » في ديسمبر ١٩٢٤ واستولت على مدينة واو بعد سماع أحكام الاعدام ، وكذلك ثارت الكتبية ١٣ ، والقوات السودانية في الأبيض ، وامتنع الطلبة أيضا عن الدراسة يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٢٢ .. ولكن الاستعمار البريطاني استطاع في النهاية أن يفرض نفوذه على الموقف .

وأصبح الجنود والضباط السودانيون يقسمون يمينين الولاء للحاكم العام البريطاني ، ومع ذلك قبلت حكومة زيور أن تشتترك في نفقات هذه القوة بمبلغ سنوي مقداره ثلاثة أرباع مليون جنيه !!

ورفض ١٣ ضابطا أن يقسموا للحاكم العام البريطاني فكانت النتيجة تشريدتهم وطردهم من القوات المسلحة .

وهكذا اكتملت حلقات مؤامرة الاستعمار البريطاني ضد الوجود المصري في السودان ...

الباب الثاني

مابعد نكسة ١٩٢٤

- ♦ براعم اشتراكية
- ♦ مابعد نكسة ١٩٢٤
- ♦ مد ثوري جديد
- ♦ مؤتمر الخريجين

براعم اشتراكية

لم تكن مؤامرة الاستعمار البريطانى ضد الوجود المصرى فى السودان موجهة ضد الشعب المصرى الذى عزلت وزارته الشعبية برئاسة سعد زغلول فقط .. ولكنها أيضا كانت موجهة ضد الشعب السودانى ..

وهناك عدة شواهد تثبت أن المؤامرة الاستعمارية كانت تهدف الى اقامة سياج حديدي حول السودان لعزله عزلا كاملا عن بقية الدول العربية التى كانت فى ذلك الوقت أكثر صلة بالدول الأوروبية وانفتاحا على أفكارها التحررية ، ومعظمها قامت به ثورات بعد الحرب العالمية الأولى ظلت نيرانها جمرًا لا يخبث ..

الغريب أن قرار الحكومة البريطانية بطرد القوات المصرية من السودان قد اقترن فوراً بزيادة المساحة المزروعة قطناً فى السودان بواسطة شركة بريطانية فى الجزيرة احتكرت الزراعة والشراء والحليج والتمويل والعمليات المصرفية أيضا تحت اسم نقابة زراع القطن فى الجزيرة . وتكونت شركة بريطانية أخرى هى شركة أقطان كسلا لتقدم المواد الخام الى مصانع لانكشاير ..

ذلك يؤكد أن الانذار البريطانى كان معدا قبل مقتل السردار ، لأنه من غير المعقول أن يدرس موضوع اقتصادى ويقدم عنه انذار خلال ٢٤ ساعة !

كانت بريطانيا لا تريد أن تقع مرة أخرى فيما سبق أن وقعت فيه بين عامي ١٨٦١ ، ١٨٦٥ عندما حدث ماسمى وقتها « مجاعة القطن » بعد الحرب الأهلية الأمريكية حيث كانت بريطانيا تعتمد على قطن أمريكا الذي منعت عنها ظروف الحرب الأهلية خلال هذه السنوات ..

كان الاستعمار البريطاني لا يكتفى بقطن مصر وانما يطلب احتكارا جديدا لقطن السودان .

وفي أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات انفجرت أزمة الاقتصاد الرأسمالى على نطاق عالمى وعانى الشعب السودانى من ذلك معاناة شديدة .. انهارت أسعار القطن والسلع الزراعية انهيارا تاما .. وتقلص حجم تجارة السودان من ١٣٥ مليون جنيه الى ١/٢ ٥ مليون ، وخفضت الأيدى العاملة وعدد الموظفين بنسبة من ٥ ٪ الى ١٠ ٪ .. ونقصت أرقام الميزانية السودانية من ١١ مليون سنة ١٩٢٦ الى ٩ مليون سنة ١٩٣٠ الى ٧ مليون سنة ١٩٣٢ مما أدى الى وقف جميع الانشاءات ..

والحقيقة أن الفصل الذى فرضته الادارة البريطانية على العلاقات المصرية السودانية قد أثر فى كثير من المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .. واقتصرت أهداف الاستعمار البريطانى على احتكار القطن كمادة خام تحتاجها مصانعه .. ولم يحاول طوال سيطرته على مقدرات الشعب السودانى أن يكتشف ثرواته المعدنية أو يطور وسائل الرى أو يضع أساسا للتصنيع ، وترك كل وسائل' الانتاج الصناعى أو الزراعى فى صورتها البدائية .

كذلك كانت الحرب العالمية الأولى قد أثرت على الحالة الاقتصادية في مصر فظهرت مصانع كبيرة للدباغة والغزل والنسيج وانتشرت معاصر الزيوت وورش سبك الحديد والمحلات التجارية ... وأثرى بعض التجار الوطنيين ثراء كبيرا .

وعموما تطورت الرأسمالية المصرية وبدأت تفرض وجودها الاقتصادى .. واهتمت بالصناعة بعد أن أكسبها وقف الواردات خلال الحرب خبرة الربح الوفير من الصناعة المحلية .

وعندما ظهر طموح هذه الطبقة الناشئة في الوصول عن طريق نفوذها الاقتصادى الى مكاسب سياسية .. ظهرت بذور تناقض بينها وبين الاستعمار .. حيث بدأت تتدفق السلع الأجنبية بعد الحرب لتغرق السوق المصرية .. حتى اضطرت صناعات كثيرة ناشئة الى اغلاق مصانعها وورشها .

وكانت الثورة الاشتراكية العظمى التى اندلعت فى روسيا ذات تأثير شديد أيضا على الحياة السياسية فى مصر .. وظهرت مواقف محمد فريد الاشتراكية التى بدأت عام ١٩١١ عندما دعا الى ربط الحركة الوطنية المصرية بحركة السلام العالمى .. ودعا الى تأسيس (جمعية سلام فى وادى النيل) وليس فى مصر فقط ..

وأيد الاتحاد السوفييتى ثورة ١٩١٩ بخطاب الى سعد زغلول . وهنا بدأت تظهر فى مصر براعم منظمات اشتراكية بعد الحرب مباشرة ..

تأسس الحزب الاشتراكى عام ١٩٣٠ وتكون سرا الحزب الشيوعى المصرى الذى نشرت جريدة الأهرام فى عددها الصادر فى ١٤

فبراير ١٩٢١ برنامج الذي يقول :

وكان الحزب يعمل على استقلال وادى النيل بأسره استقلالا
خاليا من كل شائبة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا .
ثم يطالب بالمطالب التقدمية التالية :

١ - جلاء الجنود الانجليزية عن مصر والسودان وعدم
الاعتراف للغاصب بأى مركز ممتاز .

٢ - عدم الاعتراف بالمعاهدات والاتفاقيات التى أجريت خلصة
من الشعب وعلى كره منه .

٣ - جعل قناة السويس ملكا للامة .

٤ - تعديل الدستور وقانون الانتخاب حتى تصبح الأمة مصدر
السلطة الحقيقية .

ثم يمتد البرنامج بعد ذلك ليشمل نقاطا اجتماعية تتصل بحقوق
العمال والفلاحين والنساء مع المطالبة بالاعتراف بالاتحاد السوفيتى
وطلب محاكمة أذئاب الاستعمار من كبار المصريين ..

وأخذ هذا الحزب الوليد الذى يقال إن أعضائه قد وصلوا فى
ذلك الوقت الى حوالى ٢٠٠٠ عضو الى جانب الاتجاهات
الاشتراكية التى تبناها عدد من المثقفين تثير قلق المستعمرين وأشار
الى ذلك وزير خارجية انجلترا فى احدى خطبه بعد اشتعال ثورة
١٩١٩ .. كما أن لجنة للتوفيق بين العمال وأصحاب الأعمال تكونت
وجاء فى أول تقرير لها فى نوفمبر ١٩٢٠ ما يشير الى « تسرب العناصر
البلشفية الى صفوف العمال » .

وخشيت الحكومة البريطانية من سيطرة هذه الأفكار الاجتماعية

على الحركة السياسية فأصدرت عن طريق الحكومة مادة جديدة في قانون العقوبات تضع قيودا جنائية على نشاط الطبقة العاملة ، وتحظر الاضراب قبل اخطار سابق بخمسة عشر يوما على الأقل واعتبار الاضراب المفاجيء جريمة ا

وعمدت أيضا الى مصادرة جريدة الحزب الشيوعي التي كانت تسمى « الحساب » وحأكت قيادته وعددا كبيرا من أعضائه .

هذه البشائر التي برزت مع الثورة الوطنية كانت عند الاستعمار البريطاني خطرا رهيبا يجب منعه من التسرب الى السودان ، هذا البلد الذي أراد الاستعمار أن ينفرد به انفرادا كاملا ، ليسيطر على مقدراته الاقتصادية ، وخاصة القطن الذي أراد أن ينافس به القطن المصرى بعد توقعه حدوث انفجار وطنى آخر فى أية لحظة .

هذا الى الصلة الجغرافية الوثيقة التى تربط السودان بالمنعمرات البريطانية الأخرى فى كينيا وأوغندا .. وهى بلاد كانت خلف ستار فولاذى رهيب ، فرضه الاستعمار ليسلب خيرات هذه الدول مئات الأعوام بلا حساب .

لذلك قضى الاستعمار البريطانى والحكومات الرجعية فى مصر بما فيها حكومة الوفد قضاء مبرما على البراعم الاشتراكية التى ظهرت فى مصر خلال عام ١٩٢٤ الذى اعتبر عام نكسة وطنية .

ما بعد نكسة ١٩٢٤

عقب نكسة ١٩٢٤ بدأ الاستعمار البريطاني يشدد ضغطه ومصادرته للحريات ، ودعم القيادات الرجعية وتنمية روح الطائفية وتركيز السلطة في أيدي المفتشين البريطانيين ..

وخصصت زوجة سير لى ستاك الغرامة التي دفعتها الحكومة المصرية - نصف مليون جنيه - لإنشاء ٤ كنيسة في جنوب السودان تعج بالمبشرين الأجانب ..

وانحسرت تبعاً لذلك موجة النشاط الثوري للمثقفين السودانيين الذين زهد بعضهم في جدوى الكفاح ، وآثروا الحياة الرتيبة المهادنة ، وأصبح بعضهم بذلك رصيذا لقوى الاستعمار تتعاون تعاونا واضحا مع الادارة البريطانية ..

ونجح الاستعمار في خلق شخصيات تفخر وتتشدد بالثقافة الغربية ، وتحترق الثقافة القومية والعربية .

وفي مصر أعدت وزارة زبور باشا انتخاباتها الجديدة عام ١٩٢٥ بعد حل البرلمان واستخدام صدقي باشا وزير الداخلية لكل أساليب الضغط والمطاردة وتعديل الدوائر ، واعادة نظام الانتخاب على درجتين ومع ذلك أتى الشعب ببرلمان وفدى مكون من ١٢٣ وفديا مقابل ٨٥ دستوريا واتحاديا ١

ولم يطق الاستعمار البريطاني عودة الوفد للحكم من جديد

لأسباب كثيرة كان في مقدمتها كشف خطته في عزل مصر عن السودان .

وكان أن حل البرلمان بعد تسع ساعات فقط من انعقاده !
ورغم ذلك اجتمع البرلمان يوم ٢١ نوفمبر ١٩٢٥ في فندق الكوتتيننتال حيث كان يقيم أحمد باشا زيور نفسه ، وأخذت جموع الشعب تحيي أعضاء البرلمان الذي عبر باجتماعه عن الكفاح الديموقراطي للجماهير .

وسقط زيور وجاء محمد محمود صاحب القبضة الحديدية عام ١٩٢٨ فمطل الحياة النيابية وألغى مائة رخصة صحفية وظل يواصل حكمه الارهابي ما يقرب من ثلاث سنوات .

وهب الشعب يكافح من أجل الدستور .. ومن أجل أهدافه المهددة ..

وذهبت فترة حكم محمد محمود والاستعمار يكت كل محاولة شعبية للظهور .. ولما استنفذ أغراضه من صاحب « القبضة الحديدية » استبدله بوجه جديد .. اسماعيل صدقي وزير داخلية زيور .

عين رئيسا للوزراء عام ١٩٣١ ، وهب الشعب المصري ضده يقاوم حكمه الارهابي ويطلب بعودة دستور ١٩٢٣ .. وأخذ الوفد يطوف بالأقاليم فيستقبله الشعب استقبالا حافلا .. وسقط الضحايا في عدد من البلاد .. قتل أربعة في المنصورة وجرح ١٤٥ .. وقتل ثلاثة من رجال البوليس والجيش الذي حول صدقي اتجاهه ليضرب الشعب بالرصاص وسقط في الاسكندرية عشرين قتيلا ،

٥٠٠ جريح .. والتهمت المظاهرات في منطقة القناة .

وظهرت الطبقة العاملة تؤدي دورا بارزا في هذا الكفاح .. أضرب
عمال عنابر بولاق والورش الأميرية عن الاشتراك في انتخابات ١٤
مايو ١٩٣١ ، وتظاهروا احتجاجا ، وقوبلت مظاهرتهم بالرصاص ،
وسقط - حسب الاحصائيات الرسمية - ١٣ قتيلا و ١٩ جريحا
دفنوا دون أن تسلم الجثث للاهالي ، محاولة من صدقي في اخفاء
حقيقة عدد القتلى .

وهب الفلاحون أيضا يدافعون عن الحياة الدستورية الصحيحة ،
ويقاومون انتخابات صدقي المزورة التي انتهت ببرلمانه المتهالك .

وأصبحت اعادة دستور ١٩٢٣ مطلباً شعبياً

وسقط صدقي .. وتولى من بعده عبد الفتاح يحيى وتوفيق نسيم
واستمرت مظاهرات الطلبة تعبر عن اصرار الشعب على اعادة
الحياة الدستورية ووقف التدخل البريطاني في الشؤون الداخلية
للبلاد ..

وارتفعت هتافات تقول « يسقط هور ابن الثور » عندما صرح
وهو وزير خارجية بريطانيا يوم ٩ نوفمبر ١٩٣٥ بقوله : « إنه عندما
استشيرت الحكومة البريطانية في شأن الدستور نصحت ألا يعاد
دستور ١٩٢٣ ، ولا دستور ١٩٣١ ، اذ ظهر أن الأول غير صالح
للعمل ، والثاني لا ينطبق على رغبات الأمة ! » ..

هكذا كانت وزارة توفيق نسيم تستشير الانجليز في كل شيء ..
رغم أن مصر كانت دولة مستقلة ولو بصفة شكلية تبعاً لتصريح ٢٨
فبراير ! ..

فظهر في هذه الفترة السيئة من تاريخ الشعب المصرى أنه قد تسلطت عليه أعمدة الحكم الرجعى الارهابى الذين ارتبطوا بالاستعمار البريطانى فى تبعية كاملة ، وعبروا تمام التعبير عن مصالح الطبقة الاقطاعية والمالية الجديدة التى كانت ألعبوبة فى يد الشركات الاحتكارية. الأجنبية التى سيطرت سيطرة شبه تامة على الحياة الاقتصادية المصرية .



فقد الشعب المصرى مكاسب ثورة ١٩١٩ ، ودستور ١٩٢٣ وسقط صريع الأزمة العالمية التى أنهكت قواه . ومع ذلك فإن كفاحه ضد الارهاب لم يخدم لحظة ومظاهراته ضد هذا النوع من الحكام لم يتوقف ، وكان سقوط الشهداء علامة بارزة من علامات الثورة المنطلقة ، كما أن ظهور العمال كقوة ايجابية لها رأى فى الحياة السياسية ، الى جانب اشتراك الفلاحين فى مقاومة الانتخابات المزيفة أعطى بعدا جديدا للثورة .

كل هذه المظاهر تؤكد أن الشعب المصرى قد تعرض فى فترة ما بعد ١٩٢٤ وسقوط وزارة سعد زغلول ، والفصل التعسفى للصلوات الوطنية بين الشعبين المصرى والسودانى ، الى حكم ارهابى شديد ، جعل مقاومته تستغرق اهتمامه الكامل .

مد ثورى جديد

واستمرت هذه الفترة ١٢ عاما طويلة انتهت بمد ثورى جديد عندما وصلت مظاهرات الشعب الى ذروتها فى نوفمبر ١٩٣٥ وكان أول الشهداء العامل اسماعيل محمد الخالع ثم طلبة الجامعة محمد عبد المجيد مرسى ومحمد عبد الحكم الجراحى وعلى طه عفيفى من القاهرة وعبد الحليم عبد المقصود من المعهد الدينى بطنطا . وأعلن الحداد العام فى مصر يوم ٢٨ نوفمبر وأقام الطلبة نصبا تذكاريا لشهداء الجامعة يوم ٧ ديسمبر ١٩٣٥ . وكان نوفمبر وديسمبر شهرى مظاهرات مستمرة متصلة تهتف بالاستقلال والحرية والدستور .

ويلاحظ دائما أن فترات المد الثورى تجتاح مناطق كثيرة فى العالم فى وقت واحد .. فمثلا عندما ثار الشعب المصرى والسودانى عام ١٩١٩ كانت هناك ثورات أخرى فى العراق وسوريا والهند والصين وكوريا وألمانيا وغيرها من مناطق العالم كرد فعل للحرب العالمية الأولى بانتصار الثورة الروسية .

واذا كان هذا المد الثورى قد انعكس عام ١٩٢٤ فى مصر والسودان بتدبير من الاستعمار البريطانى .. فان موجة المد الثورى التى بدأت فى سنوات ١٩٣٥ قد صاحبت حرب الصينيين ضد الاحتلال اليابانى وكذلك الحرب الأهلية الأسبانية وتكوين الجبهة

الشعبية في فرنسا ..

وصاحب هذه الموجة ظهور بشائر جديدة لتنظيمات تقدمية بعد أن كانت قد صفت تماما في عام ١٩٢٤ .

في هذه الفترة شكلت نوادي تحمل أفكارا جديدة ، وشكلت أيضا « عصابة السلام » .. كما بدأ كثير من أساتذة الجامعة الأجانب ، انجليز ، وفرنسيين ، وسويسريين ، يثون أفكارا اشتراكية متأثرين بضرورة محاربة الفاشية التي بدأت الاحتكارية العالمية تتخذ منها سلاحا جديدا ..

ولم يجد الاستعمار سبيلا بعد ظهور خطر احتمال حرب عالمية جديدة ، وغزو إيطاليا للحبشة ، إلا إمتصاص الثورة الشعبية المصرية الوليدة في معاهدة ١٩٣٦ التي تمت بعد تكوين جبهة وطنية رأسها مصطفى النحاس الذي وجد فيها السبيل الوحيد لعودته الى الحكم بعد أن طال إبعاد الاستعمار والسراى له .

وقال مصطفى النحاس انها معاهدة « الشرف والاستقلال » وهي في طبيعتها لم تخرج عن معاهدة تحالف مع بريطانيا .

وكان ماحققته بالنسبة للسودان هو عودة قوات الجيش المصرى الى هناك .. وخلقت رباطا شكليا بين البلدين يتيح للدوائر الحاكمة في مصر بعض السلطة في السودان ، ولكنها أغفلت دور السودانيين في حكم بلادهم ، فأحدثت بينهم نوعا من خيبة الأمل .

مؤتمر الخريجين

خلال الفترة التي أعقبت نكسة ١٩٢٤ حاول الاستعمار البريطاني أن يفرض تفكيره وارادته على الشعب السوداني ، وأن يخلق طبقة ترتوى من فكره

فتح « كلية غوردون » عام ١٩٣٠ لتخريج موظفين سودانيين ..
ومما يذكر أن الدفعة الأولى فيها كانت ٩١ طالبا سودانيا ، ٥٨ طالبا مصرية ..

وبدأت هذه الكلية تخرج طبقة من المثقفين ، اعتبرتها الجماهير أملا لها ، خاصة بعد العزلة الشديدة التي فرضت على العلاقات مع مصر ..

وانتهز المثقفون فرصة عقد معاهدة ١٩٣٦ وعودة العلاقات بين البلدين الى صورة شبه طبيعية ، وكونوا مؤتمر الخريجين عام ١٩٣٧ ، وضموا اليه الطلاب والبرجوازية الوطنية وصغار الموظفين .. وعقد مؤتمره الأول في فبراير عام ١٩٣٨ الذي حضره ١١٨٠ خريجا

قرر المؤتمر أن يسير على نهج اصلاحى يعتمد على خريجي المدارس فقط ، ولا يفتح أبوابه لجماهير الشعب السوداني العاملة التي كانت تن تحت ضغط الأزمة الاقتصادية

تم في المؤتمر الأول تكوين مجلس ادارة من ٦٠ عضوا تختار أنتخبوا من بينهم ١٥ عضوا كهيئة تنفيذية ، كان سكرتيرها العام

السيد اسماعيل الأزهرى ..

واتفق في هذا الاجتماع أيضا على الأهداف الآتية التى تظهر مجالات اهتمام مؤتمر الخريجين :

- ١ - الشئون الاجتماعية مثل الاحسانات ورعاية اليتامى والفقراء
- ٢ - الأمور التى تهم الصالح العام فيما لا يدخل فى اختصاص الحكومة ..

ولكن تطور الأحداث أدى الى تسرب السياسة الى اهتمامات المؤتمر وتطور أهدافه .. وصدر صحيفة تحمل اسم « المؤتمر » عام ١٩٣٩ ..

وهنا يجب الإشارة الى أن الدوائر الحاكمة المصرية من الاقطاعيين والرأسماليين كانت تنظر الى السودان خلال مصلحتها الخاصة .. بحرية التملك والمشاركة فى الادارة .. ومحاولة وضع الرعايا المصريين على قدم المساواة مع الرعايا البريطانيين أو فتح باب الاستثمار والتجارة .

لم يتفهم الحكام المصريون حقيقة التطور الاجتماعى والسياسى فى السودان .. ولم يتقدم مفاوض اتفاقية سنة ١٩٣٦ خطوة واحدة جديدة عن اتفاقية سنة ١٨٩٩ .. وظل البريطانيون منفردين بحكم السودان .. ويعملون غاية جهدهم على الاساءة الى المصريين .

ويبدو أن الاستعمار البريطانى كان يخطط ذلك بدكاء .. اذ أنه بدأ يعمل وسط دوائر الخريجين ليوجه نشاطهم ضد مصر الشريك الضعيف الذى كانت عاصمته لاتزال محتلة بالجنود البريطانيين ..

كان الاستعمار يثير بعض المثقفين السودانيين ضد مصر .. ساعد على ذلك .. موقف الدوائر الحاكمة في القاهرة السلبي من نتائج ثورة سنة ١٩٢٤ .. ولم يكن أعضاء المؤتمر بقادرين على التفريق بين جماهير الشعب المصرى التى ترتبط معهم فى نضال مشترك ضد الاستعمار وبين الدوائر الاقطاعية والرأسمالية الحاكمة فى مصر ، والتى كان يسيل لعابها للاشتراك الفعلى فى حكم السودان .

مثلا .. ظل على عبد اللطيف فى السجن حتى أفرج عنه مصطفى النحاس سنة ١٩٣٧ ولكنه لم يصل الى مصر الا عام سنة ١٩٣٨ .. فى عهد محمد محمود حيث دخل مستشفى الأمراض العقلية بعد كثرة مالاقاءه من عذاب واضطهاد ، وقرر له باشوات مصر معاشا هزليا قدره خمسة جنيهات وقدم عنه بعض النواب سؤالا برلمانيا أدى الى رفع قيمة المعاش ..

وأمام الضغط الشعبى المصرى لرفع الظلم عن على عبد اللطيف قام الدكتور نجيب اسكندر وزير الصحة بزيارته فى المستشفى حيث نقله من الدرجة الثانية الى الدرجة الأولى .. وظل فى المستشفى حتى توفى فى ٢٩ مايو سنة ١٩٤٨ ..



هكذا عاملت الطبقة الحاكمة المصرية المنهارة بعض أصحاب الأفكار المرتبطة بمصر فى اطار نضال مشترك ضد الاستعمار .. الأمر الذى أدى الى تنمية بذور العداوة ضد مصر بطريقة مجردة . ووضعت الرجعية المصرية الحاكمة أحد أعضاء جمعية الاتحاد السودانى « عرفات محمد عبد الله » فى سجن بأبو زعبل فعاد الى

٤٠

السودان ناقما ومعارضاً بعد أن كان مؤيداً للاتحاد مع مصر ..
وكذلك عبد الله خليل أحد زعماء حزب الأمة ، بدأ حياته أيضاً في
هذه الجمعية ، ولكن الاستعمار مع تصرفات الرجعية الحاكمة
استطاع أن يوقعه في شرك العداوة للكفاح المشترك .

الباب الثالث

أثر الحرب العالمية الثانية

- قيادات تجاوزتها المرحلة
- الحركة السودانية للتحرر الوطنى
- مأساة الاستعمار البريطانى فى السودان
- حرب فلسطين

قيادات تجاوزتها المرحلة

أعلنت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ بعد سنوات من معاهدة ١٩٣٦ وأرسل الاستعمار بعض فرق الجيش السوداني الى دول أفريقية لمحاربة جيوش الفاشية .. بلغ عدد الجنود السودانيين في صفوف الحلفاء مايقرب من سبعين ألف جندي، كان منهم ستون ألفا في ليبيا وعشرة آلاف في شرق أفريقيا .. الأمر الذي جعل من تسريحهم في المستقبل مشكلة كما سيرد فيما بعد .

أثر هذا الاحتكاك في كسر حلقة العزلة والجمود التي فرضها الاستعمار واحاط بها السودان سنوات طويلة .

أما قوات الجيش المصرى فانها لم تتحرك خارج الحدود .. ولم تشترك في المعارك سوى بالدفاع المضاد للطائرات وحماية المواقع والمنشآت الحيوية ، والمساهمة ببعض أعمال المهندسين العسكرية .. رغم أن الحرب بين قوات الحلفاء من جهة ، وقوات النازية والفاشية من جهة أخرى ، قد دارت فوق الصحراء الغربية أكثر من مرة .

كان الاستعمار البريطانى على حذر شديد من قيام ثورة شعبية في مصر ضد صفوفه الخلفية .. ولذا فانه عندما وصلت القوات النازية الى حد الخطر الذي يهدد بغزو مصر ، رأت السفارة البريطانية أن تعيد الوفد الى الحكم ضمانا لسيطرته على الشعب في هذه المرحلة الحرجة الحاسمة وخاصة بعد أن كان الملك وبعض الرجعيين

على استعداد كامل للتعاون مع الغزاة الفاشيين والنازيين الجدد .
ولكن عودة الوفد للحكم بطريقة ديموقراطية قد تدفع الجماهير
للضغط عليه لاتخاذ مواقف أكثر ايجابية ضد الاستعمار البريطاني
ولذا أعتقد أن لورد كيلون قد عمد الى حركة محاصرة السراى
يوم ٤ فبراير بالدبابات ليفرض حكم النحاس باشا كمحاولة ذكية
من الاستعمار ، للإساءة الى الوفد أمام الجماهير ، حتى لا يجمع
فى شعور معاداته للبريطانيين تحت ضغط الجماهير . .
وقد نجح الاستعمار البريطانى فى ذلك الى حد بعيد .. وأصبح
٤ فبراير سبة فى جبين الوفد ، يطعنه خلالها أسوأ نماذج المصريين
من الرجعيين والعملاء الحقيقيين للمستعمرين خاصة وأن حكومة
الوفد كانت حريصة فعلا على تنفيذ كافة تعاليم قوات الاحتلال .
وكانت القاهرة فى فترة الحرب ساحة لتجمع عدد من الحكومات
التي تشكلت خارج بلادها بعد الهجوم النازى مثل حكومات ألبانيا
واليونان ويوغوسلافيا الخاضعة تماما للنفوذ البريطانى .
ولكن ذلك لم يمنع حدوث عدة ظواهر هامة فى مصر والسودان
فى مصر نشبت ثورة حادة بين أفراد الجيش اليونانى رفضوا
فيها الخضوع لحكومة الملك بول المقيمة فى القاهرة ، ووصلت الثورة
فى الجيش والأسطول الى حد محاصرة القوات اليونانية الثائرة فى
صحراء العامرة بقوات الجيش البريطانى .. وقمعت هذه الثورة
بقوة وشدة بالغة .

وقد جذبت هذه الثورة اهتمام عدد من المثقفين المصريين ،
وخاصة بعد قراءة شعارات المنظمات اليونانية الثورية « أيام »

وغيرها على جدران المنازل في القاهرة والاسكندرية .. وبدأ يسرى اتجاه نحو رفض تأييد الحكومات المقيمة في القاهرة وتأييد النضال الشعبي الاشتراكي الذي يقوده تيتو في يوغوسلافيا ، وأنور خوجه في ألبانيا ، وماركوس في اليونان .

وركز الاستعمار البريطاني قوته في هذه الفترة لمحاربة هذه الأفكار التي بدأت تنمو وسط المثقفين في نشاط شديد .. ومما يذكر أنه كان يعتمد على ضباط القسم السياسي الذين تدربوا في « الأوكراا بروسيا القيصرية » ، حيث كانت تتم عمليات القمع والتجسس بخبرة تتفجر بالشدة والقسوة .. ومن هؤلاء سليم زكي حكمدار القاهرة الذي مات مقتولا في مظاهرات المحرضين أمام القصر العيني عام ١٩٤٩ ، وعمر حسن قائد القسم المخصوص .. كانت الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية شديدة الحيوية في مصر والسودان معا .. ظهرت اتجاهات ثورية وسياسية جديدة .. وكانت نزوة تقليد الفاشية في مصر قد اختفت .. ولم يعد أحد يلبس قمصا خضراء مثل مصر الفتاة ولا قمصانا زرقاء مثل شباب الوفد ..

وبدأت تطفو إلى السطح فئات الطبقات الشعبية الجديدة التي لم تجد في قيادة حزب الوفد ما يحقق لها أهدافها .. بعد أن فقدت قيادته كثيرا من شعبيته عقب معاومتها المستمرة للسراى وقبولها الحكم بالارادة البريطانية في ٤ فبراير ومحاصرتها للعناصر التقدمية التي حاولت تغيير اتجاه الوفد السياسي ودعمه بأفكار تنادى بالديموقراطية والعدالة الاجتماعية ورفض قيادته للاشتراكية كمبدأ

انساني سليم ..

وكان الوفد منذ بداية تكوينه أقرب ما يكون الى الجبهة التي تضم كافة الفئات ، قيادته من الاقطاعيين والرأسماليين وجماهيره من الشعب الرافض لوجود الاستعمار ... ولكن مع استمرار المعركة وظهور طبقة الرأسمالية الوطنية ، ورفض كبار الملاك الاقطاعيين الخضوع للإصلاحات الاجتماعية .. أخذت تحدث فيه انسلخات وانفصالات ذات تعبير طبقي .

منذ البداية انفصل الأحرار الدستوريون الذين يمثلون كبار الملاك ورأسهم عدلى ثم محمد محمود .

وفي فترة الأزمة العالمية انفصل الحزب الذي اشتهر باسم «السبعة والنصف» وانضم اليهم على الشمسى ، وبهى الدين بزكات ، وعطا عفيفى .. وتبينت حقيقة موقفهم عندما انضموا الى مجالس إدارة الشركات التي كان يحرم الوفد على أعضائه عضوية مجالس إدارتها . وعقب معاهدة ١٩٣٦ انفصل السعديون الذين ارتبطوا تماما بالرأسمالية الوطنية التي أرادت أن تهيم لها قيادة يتوفر لها رصيد شعبي يتوفر عند أحمد ماهر والنقراشى وخاصة بعد أن فتح مجال كبير لمزيد من الارتباط بين الرأسمالية والاحتكارية الأجنبية .

وعقب ٤ فبراير ١٩٤٢ انفصل من الوفد مكرم عبيد وانضم للسعديين في حكومتهم التي اعقبت وزارة النحاس وجابهت فترة ما بعد الحرب ..

بعد كل هذه الانفصالات لم تحاول القيادة الوفدية ان تطعم حزبها بقيادات شابة تقدمية جديدة ، وانما ظلت في تيارها التقليدي

القديم الذى سمح بتولى فؤاد سراج الدين الاقطاعى الكبير
سكرتارية الوفد فأصبح تكوين القيادة بذلك منسجما مع واقعها
الطبقي ..

ومن أجل هذا فقد التيار الشعبى الجديد ثقته المطلقة بقيادة
الوفد بعد أن فقد فرصة الارتباط ببعض العناصر المبشرة فى الهيئة
الوفدية وفى لجنة الطلبة الوفديين ..

وبعد عشرين عاما تقريبا من ضرب الاستعمار للاتجاهات
الاشتراكية التى كانت ممثلة فى الحزبين الاشتراكي والشيوعى اللذين
صفا نهائيا على يد سعد زغلول عام ١٩٢٤ ، عام النكسة فى علاقة
مصر والسودان ، بدأت تظهر عدة حركات اشتراكية كانت مركزة
أساسا بين الطلبة والمثقفين .

وفى هذه الفترة ظهرت حركات تقدمية أخرى مثل دار نشر الثقافة
الحديثة والفجر الجديد ودار الأبحاث العلمية .

وكان المحور الرئيسى لكل هذه الحركات مجتمعة هو الفكر
الاشتراكي الجديد ، الذى بدأ محصورا فى حدود المثقفين وبعض
الأجانب ثم انتقل الى طبقات شعبية مختلفة .

وأثمر هذا التيار الجديد مع الطليعة الوفدية من الطلبة تكوين
« اللجنة الوطنية للطلبة والعمال » التى قررت أن يكون يوم الخميس
٢١ فبراير ١٩٤٦ يوم اضراب شامل لجميع هيئات الشعب وطوائفه ،
وذلك بعد سقوط وزارة النقراشى المشهولة لتحالف الرأسمالية
والأحزاب المنفصلة عن الوفد عقب مذبحه كوبرى عباس فى يوم
السبت ٩ فبراير ١٩٤٦ التى سقط فيها الطالب السودانى الشهيد

محمد على محمد .

وكان يوم ٢١ فبراير يوما من أيام نضال الشعب المصرى التى فرضت نفسها على التاريخ وأصبحت يوما للشباب العالمى .. فى هذا اليوم سارت مظاهرة ضخمة طافت بشوارع القاهرة ، واشتبكت مع الجنود البريطانيين فى ميدان الاسماعيليه ، حيث سقط ٢٣ قتيلا ، ١٢١ جريحا .. وانتشرت المظاهرات حتى كادت تشمل كل مدن مصر ..

وخرج اسماعيل صدقى يلقى التهمة على الرعاع والدهماء .. والمؤسف أنه كان قد عاد رئيسا للوزراء بعد سقوط النقراشى .. وهو رئيس اتحاد الصناعات المصرى !!

وردت اللجنة التنفيذية للطلبة .. على بيانه بالآتى :

١ - اعلان الحداد العام .

٢ - الموافقة على قراراللجنة الوطنية للطلبة والعمال باصدار ميثاق وطنى يوقع عليه جميع الزعماء يطلب منهم عدم قبول الحكم أو المفاوضة الا على أساس تصريح من بريطانيا بالموافقة على الجلاء عن « وادى النيل » .

وكان يوم الحداد هو ٤ مارس .. ولم تظهر الصحف اليومية ، وأغلقت المتاجر والمقاهى ، وأضربت المدارس والمصانع وأظهر الشعب المصرى ارادته أمام اسماعيل صدقى الذى حاول أن يشنى مندوبوه اللجنة الوطنية للطلبة والعمال عن اصرارهم بدعوى تهديد القوات البريطانية بالنزول الى الشوارع .

ولم تحدث حوادث فى هذا اليوم الا فى الاسكندرية حيث

سارت مظاهرة سلمية من العمال والطلبة وجدت علما بريطانيا مرفوعا
على أحد الفنادق يتحدى حداد الشعب فهجمت عليه ومزقته. وحدث
صدام بين الشعب والجنود البريطانيين ، حرق فيه الشعب كشك
البوليس الحربى البريطانى فى ميدان سعد زغلول .. ومعه عدد من
الجنود ..

الحركة السودانية للتحرر الوطني

فرضت الحرب العالمية الثانية على المعسكرين اعلان تصريحات الأطلنطى التى نادت بحق تقرير المصير للدول التى شاركت إيجابيا فى الحرب الفاشية وأدى ذلك الى ارسال مؤتمر الخريجين عام ١٩٤٢ بمذكرة الى الادارة البريطانية لتأكيد هذا الحق والمطالبة بحكومة سودانية بعد انتهاء الحرب ، والغاء احتكار الحكومة للتجارة الخارجية ، ولكن الحاكم العام رفض المذكرة ورفض الاعتراف بالمؤتمر كممثل للشعب السودانى .

وظهرت فى السودان موجة ديمقراطية ، وصدرت بعض الصحف تحمل كلمات النقد ، وألغيت عقوبة الجلد من المدارس وتكونت جمعيات الطلبة وظهرت الطبقة العاملة السودانية فى ورش الصيانة البريطانية .. .

التحولات التى ظهرت فى المجتمع السودانى خلال الحرب ، انتهت الى عصيان قام به جنود قوة دفاع السودان عام ١٩٤٥ عندما سرحوا بلا مكافأة .. وشكل الاستعمار مجلسا استشاريا هزيلا من رؤساء القبائل والطوائف الدينية لتأييد سياستهم . ولكن مؤتمر الخريجين قاطع المجلس الاستشارى .. وبدأت الظروف الناضجة لمحاربة الاستعمار .. وكتله تتعاون معه . وكانت نتيجة ذلك انفلاق المؤتمر الى أحزاب عام ١٩٤٥ .

٤ - مصر والسودان

الأحزاب الاتحادية وتتكون من المثقفين الوطنيين والتجار ،
وتعادى الاستعمار ويتزعمها حزب الأشقاء برئاسة اسماعيل الأزهري
الذي كان يؤيد السيد على الميرغنى الذى كان ينادى بالاتحاد
دون الوحدة وحزب « الأحرار الاتحاديين » وحزب وادى النيل
الذى أسسه الدرديرى اسماعيل أول سفير لثورة مايو فى القاهرة
ثم حزب الاتحاديين وكان يطلب الاندماج التام بين مصر والسودان
ويلاحظ أن كل هذه الأحزاب قد تجمعت فيما بعد عام ١٩٥٢
فى الحزب « الوطنى الاتحادى » ..

.. وحزب الأمة وتشكل فى ٢٨ يناير سنة ١٩٤٥ ويضم شبيه
الاقطاعيين ونظار العشائر وبعض المثقفين المرتبطين فكريا وماديا
بالثقافة الغربية برئاسة عبد الله خليل ويؤيده السيد عبد الرحمن
المهدى .. وكان رسم الائتساب خمسة قروش تدفع مرة واحدة
طوال الحياة !!

رفعت الأحزاب الاتحادية شعار ثورة ١٩٢٤ الذى ينادى (وحدة
وادى النيل تحت التاج المصرى) .. وهو شعار لم يكن يناسب
المرحلة ، لأن ماحدث فى حياة الشعب السودانى من تحولات
حاسمة خلال نصف قرن تقريبا قد جعله يتجاوز هذا الموقف، ذلك
ان جانبا من جماهير الشعب السودانى كانت ترفض أسلوب بعض
رجال الادارة المصريين الخاضعين لتعليمات الاستعمار .. كما أن هذا
الشعار كان مطروحا بلا برنامج ، الى جانب أنه كان يعتمد على
التعاون مع البرجوازية المصرية الذابلة
لم تعد المشكلة هى الاندماج مع مصر والانفصال عنها .

ولم تكن القضية هي الاتحاد مع الدوائر الحاكمة في مصر التي لجأت الى مجلس الأمن عام ١٩٤٧ تطلب سيطرتها على السودان . كانت القضية هي الايمان بقدرة الشعب السودانى على النضال المشترك مع الشعب المصرى ضد الاستعمار البريطانى من أجل الاستقلال الوطنى .. ومن أجل خلق علاقات صحية سليمة بين أبناء الشعبين الشقيقين الرابضين على مجرى النيل .. والحركات الوطنية السودانية كانت ترتبط دائما بالحركات المصرية .. وكما ناضل على عبد اللطيف عام ١٩٢٤ في جمعية اللواء الأبيض رافعا شعار وحدة وادى النيل .. كان وفد السودان وأعضاء الأحزاب الاتحادية على صلة مستمرة بالقاهرة والأحزاب المصرية وخاصة حزب الوفد .

كانت الفئات الاجتماعية في مصر والسودان تحاول أن تلتقى مع بعضها في محاولة متجانسة .

وقد أثبتت أحداث التاريخ كما سيأتى ذكره فيما بعد أن الذين تبنوا شعار « الوحدة » كانوا أول من تنكر له وانقلبوا عليه بدأت الحركة السودانية للتحرر الوطنى نشأتها في مصر مرتبطة بالحركة المصرية للتحرر الوطنى في كفاح مشترك ضد الاستعمار البريطانى ... وتأكيذا لهذه الصلة النضالية كان يحق للسودانى في مصر أن ينضم للحركة المصرية ... كما كان من حق المصرى في السودان أن ينضم للحركة السودانية

وأثناء الحرب العالمية الثانية وظهور الاتحاد السوفيتى كقوة شعبية قادرة على توجيه ضربات ساحقة للنازية وبدء تكوين

الديموقراطيات الشعبية في أوروبا ظهرت الأفكار الاشتراكية في مصر
أبضا كبراعم جديدة للنضال الوطنى ضد الاستعمار
بعض هذه الأفكار انحرف الى معاداة النازية كهدف رئيسى
بعد ما اظهرته من قسوة انسانية وما ارتكبته من جرائم حرب
وحشية .. والبعض منها انحرف الى معاداة الرأسمالية المصرية
الوليدة متأثرا بالأفكار الفطرية التى تحتاج دائما الى رؤية واضحة
وتطبيق سليم .

وبين هذين الاتجاهين ظهر اتجاه أصيل لايهمل معاداة النازية ،
ولا يقلل من شأن محاربة الرأسمالية ولكنه يركز على الكفاح ضد
الاستعمار البريطانى باعتباره أساسا لكل المشاكل السياسية
والاجتماعية في مصر والسودان .

وفى هذه الحركة المصرية للتححر الوطنى ، كان للطلبة السودانيين
في مصر مكان ..

وظهرت مجلتان تعبران عن هذا الاتجاه الجديد .. أولهما مصرية
وتسمى « كفاح الشعب » .. والأخرى سودانية واسمها « أم درمان
- الكفاح المشترك » ..

وتحدد للحركة الناشئة خط سياسى جديد يدعو الى « الكفاح
المشترك للشعبين المصرى والسودانى ضد الاستعمار .. مع حق
تقرير المصير للشعب السودانى » ..

كان اقتران الهدفين معا ذا مغزى سياسى هام .. لأن الاستعمار
البريطانى كان يشجع فكرة « حق تقرير المصير للشعب السودانى »
... مفرغة من محتواها الوطنى اذ أنه كان يود اعطاء هذا الحق فى

ظل النفوذ البريطانى .

كما ان بعض المصريين تسرعوا فى مهاجمة فكرة « تقرير المصير » باعتبارها تنقيذا لما يطمع فيه الاستعمار !

هذا بينما كان رفع شعار « الكفاح المشترك » ضربة شديدة موجهة للتخطيط الاستعمارى ، الذى كان يثير عواطف السودانيين ضد شعار « وحدة وادى النيل » باعتباره محاولة للتسلط من الشمال على الجنوب .. ونجح الاستعمار فعلا فى اثاره عواطف بعض الذين ارتبطوا بالادارة البريطانية .

وفى مرحلة معينة من مراحل التنظيم فى أوائل عام ١٩٤٦ ، انفصل الجانب السودانى بعد نضجه ليكون حركة سودانية منفصلة للتحرر الوطنى حيث أن حق تقرير المصير كان يستدعى تكوين حركة .. سودانية مستقلة ..

وقد قاوم هذا الاتجاه بعض الذين تصوروا انه يقيم العقبات أمام وحدة وادى النيل والحقيقة غير ذلك لأن فرض هذا الشعار اجبارا كان سيؤدى فى النهاية الى حركة مقاومة ثورية للشمال .. أى مصر ..

فى هذا الجو السياسى الثورى البعيد عن قيادة الأحزاب التقليدية ، بعثت صلة وثيقة بين الشباب الوطنى فى السودان والشباب الوطنى فى مصر ..

وبدأت الحركة السودانية للتحرر الوطنى تظهر ايجابيتها .. قادت الشعب السودانى فى مظاهرات عنيفة يوم ١١ مارس ١٩٤٦ تأييدا لنضال الشعب المصرى ضد الاستعمار وكانت هذه هى أول مظاهرات

تشهدها السودان بعد عام ١٩٢٤ .

وفي هذه الفترة تحررت الحركة السودانية للتحرر الوطنى من الاتجاه الذى سادها فترة بقيت فيها شبه ملحقة بالأحزاب القائمة لا تعلن رأيها أو برنامجها .. وانتهى الأمر صيف عام ١٩٤٧ عندما طردت العناصر الانتهازية التى كتبت مؤيدة .. التاج المصرى .. مما جعل البعض يسخر منهم قائلا .. الشيوعيون الملكيون !!! وكانت الحركة السودانية للتحرر الوطنى تعتنق فكرة الجبهة التى تضم العناصر الوطنية الصادقة باعتبارها الاسلوب الثورى الوحيد الذى يرتبط بواقع شعب السودان .

لذا نادت بتكوين الجبهة الوطنية ثم عملت على تكوين جبهة الكفاح ..

وأخيرا تكونت الجبهة المتحدة لتحرير السودان عام ١٩٥٢ وظهرت أيضا الجبهة المعادية للاستعمار حزبا ديمقراطيا مرتبطا بال جماهير ، يعبر عن محاولة جادة لبناء الجبهة الوطنية الديمقراطية فى شكل حزب ..

وفي هذا الوقت كانت المظاهرات التى انفجرت فى مصر معلنة غضب الشعب على الاستعمار والسراى وحكم الطبقة العميلة قد وثقت النضال بين الشعب المصرى والسودانى .

سقط فى القاهرة شهداء من أبناء السودان يهتفون حرية شعب مصر ..

استشهد صلاح بشرى ومحمد على محمد الطالبين السودانين فى الجامعة المصرية . الأول فى السجن والثانى فى حوادث كوبرى

عباس ٩ فبراير ١٩٤٦ .

وفتحت السجون والمعتقلات لعدد من طلائع الشعب السودانى الى جانب طلائع الشعب المصرى ..

وظلت الفترة السابقة لحرب فلسطين تموج بنشاط سياسى واضح ، انبثقت فيها تيارات تحررية فى مصر والسودان .. وتزايد نضال الطبقة العاملة السودانية ، واتسع نطاق حركة الاضرابات خلال عام ١٩٤٨ ، الذى يعتبر تحولا حقيقيا فى الحركة الوطنية السودانية ، أرسى دعائم الاستقلال فى المستقبل .

فى عام ١٩٤٨ صدر قانون مشروع الجزيرة الذى أنهى امتياز شركة كسلا ، ونقابة زراع القطن البريطانيين وأصبحت توزع النسب كالآتى ٤٠٪ من الايراد لهيئة مشروع الجزيرة ، ٤٠٪ للزراع ، ٢٠٪ للأبحاث الزراعية والمصاريف الادارية .. وأدى هذا انى ارتفاع دخل المزارع الى مبلغ يتراوح بين ٦٠٠ الى ألف جنيه بينما كان الدخل لايتجاوز ٢٠ جنيها فى عهد الادارة البريطانية .

وصلت الميزانية عام ١٩٤٨ الى ٦٧٨٣١٦٤٩ جنيها يوفر فى

الايرادات عن المصروفات مبلغا قدره ٦٦٧٦٦٧ر٣٤٧ جنيها .

وبدأت تظهر نتيجة لهذا الانتعاش صناعات محددة يسهم فيها الأجانب مثل دبغ الجلود والأسمنت ومعاصر الزيت ونسج القطن .

مأساة الاستعمار البريطاني في السودان

وكانت هناك في نفس الوقت مفاوضات قد بدأت بين مصر وبريطانيا للوصول الى حل للقضية المصرية والسودانية معا .. وأقام إسماعيل الأزهرى على رأس وفد سودانى فى القاهرة . واستطاع هذا الوفد أن يعلن حقائق كثيرة عن مآسى الاستعمار البريطاني فى السودان .

وأول مأساة كانت تواجه المصرى هى ضرورة حصوله على تأشيرة للدخول من وكالة السودان بالقاهرة ، والتي كان يشرف عليها موظف بريطانى .

رغم منافاة ذلك لاتفاقية ١٨٩٩ فانه كان مفروضا على كل مصرى أن يجيب على هذه الأسئلة :
لماذا تريد زيارة السودان ؟
مَن من السودانيين تعرف ؟
هل سبق لك أن زرت السودان ؟

والطالب السودانى لم يكن مسموحا له بدخول مصر الا اذا كان يحمل معه تأشيرة من مدير مدرسة فاروق الثانوية المصرى .. وكان ذلك وسيلة للحجر على حرية تعليم الطلبة ، واثارة السودانيين الذين يرفض المدير المصرى السماح لهم بالذهاب الى مصر .. وهو فى موقعه خادم مخلص لتوجيهات الحاكم العام البريطانى .

وبلغت سيطرة الاستعمار البريطانى على السودان الى الحد الذى جعلهم يفرضون مستر « سكوت » ليضع كتاب المطالعة العربية الذى يدرسه طلاب المدرسة الاولى !!

وخلال ٤٠ عاما لم تفتح مدرسة عربية واحدة فى الجنوب وان كان الباب قد فتح عريضا للتبشير والمبشرين !!
وصدر قانون المناطق المقفولة عام ١٩٣٠ كخطوة بداية لمحاولة

فصل الشمال عن الجنوب

وفى ذلك فال مستر روفير مدير المعارف بالسودان : « ان من العيب الفصل بين التعليم والدين ، ولما كانت المسيحية أصلح لأهالى الجنوب من الاسلام فانه ينبغى والحالة هذه أن تكون اللغة الانجليزية هى لغة التعليم فى الجنوب ، كما أنه يتحتم ارسال النجباء من الطلبة الى مدارس وكليات يوغندا حيث ترسخ عقيدتهم المسيحية .. »

ومع ذلك فان المبشرين قد أقروا مبدأ تعدد الزوجات فى الدين المسيحى من أجل اجتذاب الجنوبيين !!

وهكذا أثبتت السياسة أنها تستغل الدين فى خدمتها ولا تعرص على شيء الا السيطرة على أهل الجنوب

وفى مقابل ذلك ألغى الاستعمار عشر محاكم شرعية .

ولم يصرف على التعليم حتى عام ١٩٣٦ الا ٣ ٪ فقط من الميزانية بما فى ذلك المصاريف الادارية !!

والحواجز الفاصلة لم تكن بين مصر والسودان فقط . ولكنها فرضت أيضا بين الشمال والجنوب .. كان ممنوعا على أبناء

الشمال أن يزوروا الجنوب الا بتصريح خاص بهدف الفصل بين القبائل العربية والجنوبية وذلك لابقاء الجنوب الذى يبلغ سكانه ٤٠ ٪ من سكان السودان - ١٤ مليوناً - كرصيد لمقاومة الشمال الأكثر ارتباطاً بمصر والعرب

والمفتش البريطانى فى مقاطعات الجنوب كانت له سلطات قضائية غير محدودة تصل الى الحكم بالاعدام .. ومعظم هؤلاء كانوا من الشباب البريطانى ، الذى كان يتحكم فى مقاطعات يبلغ بعضها ضعف مساحة بريطانيا !!

ومع ذلك قامت ضد الاستعمار البريطانى انتفاضة مسلحة قادها ملك الزاندى ، وهى معاصرة لانتفاضة ودحوية .. وقامت مع حركة اللواء الأبيض حرب التحرير أيضا

والسودان هو أكبر دولة افريقية .. مساحته مليون ميل مربع .. ويبلغ مساحة أوروبا عدا روسيا وثلاثة أمثال مساحة مصر .. وأجبر الاستعمار البريطانى السودانين على كتابة اسم القبيلة الى جانب الجنسية السودانية ، وكانوا يريدون بذلك أن يؤصلوا التفكير القبلى فى نفوسهم !!

والأراضى الصالحة للزراعة فيه تصل الى عشرات الملايين من الأفدنة ، ومع ذلك فإن الاستعمار البريطانى قد وضع خطته على أساس تأخير البلاد زراعيا والحصول منها على ما يحتاجه من المواد الخام فقط ، وخاصة القطن !

واتبع لذلك أسلوبا غريبا ..

كانت لجنة مراقبة المياه تجتمع مرة واحدة فى العام حتى سنة

١٩٤٣ .. وبذلك يتعذر على أى انسان أن يستخدم طلبية رى جديدة لأرضه الا فى الموعد المحدد كل عام !

وكان الاستعمار حريصا على توجيه تهمة الكسل الى المزارع السودانى .. وهو اتهام ظالم ، يجب أن يوجه الى سوء الادارة التى أدت الى تعطيل نقل المحاصيل لكثرة التكاليف نتيجة ارتفاع أجور السكة الحديد ، وعدم وجود نظام ثابت للرى ، أو محاولة جادة لمكافحة الآفات أو تقديم الارشاد الفنى .. هذا بالاضافة الى تحكم لجنة مراقبة المياه (صرفت الخزانة السودانية ١٣ مليون جنيه على مشروع الجزيرة الذى كان الاستعمار البريطانى يحدد به انتاج السودان من القطن بما يكفى مصانعه فى لانكشير ويوركشير فقط ... ويشترى ٦٣٪ من محصول القطن بأسعار مخفضة .. سعر القنطار ٤٥٠ قرشا بينما سعر القنطار المصرى كان تسعة جنيهات رغم كل هذه المآسى ، فان طبقة الباشوات الحاكمة فى مصر لم ترفع صوتها بالاحتجاج ضد تصرفات الاستعمار البريطانى فى السودان .. ولم تحاول أن تتشبث حتى بما ورد فى الاتفاقيات . وانما كانت تسعى فقط خلف سيطرة اقتصادية تابعة للاستعمار البريطانى .. ويذكر أن بعض العناصر الرأسمالية المصرية كانت نشطة فى محاولاتها للوصول الى السودان ... مثال ذلك البعثة الاقتصادية المصرية التى سافرت الى السودان وشكلت من فؤاد باشا أباظة رئيس الجمعية الزراعية ورشوان محفوظ باشا عضو الأحرار الدستوريين وسلفاتور شيكوريل ... وكان هدفها فتح مجالات لرؤوس الأموال المصرية لاستغلالها فى السودان .. وكذلك

الفريد كوهين صاحب شركة التسليفات التجارية التي كانت لها فروع في لندن والسودان والتي مولت عددا من المؤسسات أهمها شركة السودان للتصدير والاستيراد التي تأسست عام ١٩٢٩ والغريب أن مصر كانت تسد عجز الميزانية السودانية من عام ١٨٩٨ حتى عام ١٩١٣

وكانت تتعهد أيضا بالصرف على الفرق السودانية في الجيش المصرى والمدرسة الحربية السودانية وتكاليف الفرق البريطانية اللازمة لهذه القوات .. وكانت تصرف أيضا على الحملات التأديبية التي يشنها الحاكم العام البريطانى والتي بلغت ١٣٠ حملة !! وظلت مصر تدفع أيضا اتاوة قدرها $\frac{3}{4}$ مليون جنيه حتى عام ١٩٣٦ نظير اشراف وزارة المالية المصرية على الميزانية والنظام الحسابى والتفتيش والمراجعة .. وهو ما لم يكن يحدث مطلقا .

كانت الحكومة المصرية تتنازل عن استخدام هذا الحق ، ارضاء لعيون الحكومة البريطانية ولذلك فان ميزانية ١٩٤٦ بينت أن ٧٧١ موظفا بريطانيا كانوا يحصلون على مرتبات جملتها ٨١٩٠٠٠٠ جنيه بمعدل ١٠٧٠ جنيه سنويا وهذا يشكل ٦١٣٪ من الميزانية بينما كان يحصل ٥٣٣٠ موظف سودانى على ٦٧٢٠٠٠٠ جنيه بمعدل ١٠٧ جنيهات سنويا ونسبة ٣٧٨٪ من الميزانية .

واجابة على سؤال تقدم به أحد النواب فى البرلمان المصرى يوم ١١ سبتمبر ١٩٤١ عن الموظفين المصريين والانجليز الذين التحقوا بخدمة السودان بعد معاهدة ١٩٣١ تبين أنهم ١٢٣ موظفا منهم ١١ موظفا مصرية فقط والباقي من البريطانيين !

حرب فلسطين

كانت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ أهم حدث فرضته الظروف والمؤامرات على الوطن العربى عامة ومصر خاصة

عندما قرر الاستعمار البريطانى أن ينهى اتدابه على فلسطين كانت قواته مازالت تحتل مصر وشرق الأردن وليبيا والسودان وغيرها ... ولم يفكر متطوعا أن يجلو عن بلد واحد من هذه البلاد استند الاستعمار البريطانى الى الحالة المضطربة فى فلسطين من هجمات قوات الارهاب الصهيونية ، وثورة الشعب العربى ضد محاولات تمزيق وطنه ... وقرر أن يرحل

ولم يكن أمام القوات العربية المسلحة من سبيل الا اعلان استعدادها لمساعدة الشعب العربى فى فلسطين والذي تعرض لعدة هجمات غير انسانية من القوات الصهيونية المسلحة .

وكانت النظرة الشاملة للوطن العربى تؤكد ان هناك مؤامرة تنسج خيوطها بين الاستعمار الأمريكى المتربص للوثوب الى المنطقة والصهيونية العالمية التى وجدت فيه سندا يضغط على الاستعمار البريطانى لمغادرة فلسطين .

كان حكام بعض الدول العربية من الرجعية التى لا يمكن أن تتخذ موقفا وطنيا له أبعاد شعبية أو ديموقراطية ..

هذه المجموعة من الحكام تكفى وحدها لاثارة الشبهة حول جدية الاندفاع الى القتال

ليس هذا فقط ... بل ان قوات الجيش البريطانى كانت ماتزال محتلة لمنطقة القناة ، وهى بذلك تفصل بين الجيش وبين عاصمة الدولة ... وما أظن أن الجيش البريطانى كان يسمح للجيش المصرى بدخول حرب يهدد بها وجوده فى منطقة الشرق الاوسط !!

وعندما عرضت القضية على هيئة الأمم المتحدة واتخذ القرار بالتقسيم بادرت هذه القيادات الرجعية باعلان رفضها لقرار التقسيم ودخول الحرب ... وكأننا تملك القدرة على وقف تنفيذ القرار .



الواقع ان خروج الاستعمار البريطانى المفاجيء ورفضه لتنفيذ قرار الأمم المتحدة بالاستمرار فى الانتداب حتى تنفيذ التقسيم ، يوحى بمؤامرة له مع القيادات العربية الرجعية للاستيلاء على فلسطين .. ولكنها عجزت عن تنفيذ المخطط الذى رسمه لها البريطانيون .

وبدأت تتضح أيضا المؤامرة الاستعمارية للشعب المصرى يوما بعد يوم ..

١ - استنفذت الحرب الارصدة الاسترلينية التى كانت تدين بها مصر حكومة بريطانيا وتبلغ حوالى ٤٠٠ مليون جنيه استرلىنى .

٢ - ظهرت متاجرة بعض الجهات العليا بمصير المعركة ، كشفت

عنها الصحافة المصرية وقدم المسئولون عنها الى المحاكمة .

٣ - انتهت الأحكام العرفية موجة المد الثورى للطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة التى كانت تطالب بحقوقها العادلة المشروعة ، وتعبر عن ارادتها بالاضراب ... خاصة بعد فتح المعتقلات واعتقال عدد كبير من أصحاب الفكر النقدى .

٤ - جذبت حرب فلسطين اهتمام الناس لها ، وتأجل نضالهم المشروع ضد وجود قوات الاحتلال البريطانية .

٥ - ثبت أن القوات الصهيونية كانت تستعد مقدما لهذا اليوم وأن قواتها المسلحة جعلتها تحقق لنفسها دورة أوسع مما فرضته قرارات الأمم المتحدة .

٦ - بريق الدعاية العربية للملوك والرؤساء الرجعيين دفع جانبا من شعب فلسطين لكى يترك أرضه بلا قتال حتى الموت ثقة منهم فى أن ما يسمعونه صحيح وأن عودتهم الى دورهم أمر مؤكد ، مما خلق مشكلة اللاجئين وعقد مشكلة فلسطين .

٧ - ارتفعت فى هذه الفترة موجة المد الرجعى الممثل فى الاخوان المسلمين الذين ملكوا زمام المبادرة فى الدعوة الى الجهاد المقدس ، فى فلسطين ، ثم تبين أن دعوتهم لم تكن أكثر من زيف ، وأن خديعتهم قد قدمت عددا من الضحايا الذين أقبلوا على القتال بروح وطنية صافية .

وأثناء حرب فلسطين ، كان نضال الشعب السودانى يأخذ مظهرا آخر حاول الاستعمار البريطانى تنفيذ فكرة حزب العمال التى كانت تقضى بالتدرج الدستورى فى أفريقيا كما حدث فى غانا عن طريق

ترويض أقسام من الحركة الوطنية، تعتاد وتلتصق بالنظام الدستوري البرلماني الخاضع للنفوذ والسيطرة الاستعمارية .
وحاول الاستعمار تحقيق ذلك عن طريق حزب الأمة باقامة جمعية
تشريعية عام ١٩٤٨ .

وفطنت القوة الثورية الاشتراكية في السودان الى هذا الخطر
الذى يسلب الكفاح الوطنى حيويته وحرارته ويطفئه تحت ثلوج
المهادنة والأطماع الذاتية .. فقاومت ذلك بالتظاهر والاضراب .
واستشهد العامل « القرشى الطيب » فى عطبرة ، وسقط شهداء
آخرون فى بور سودان ، وصدرت أحكام كثيرة بالسجن فى
الخرطوم ..

ولم يستطع الاستعمار البريطانى فرض فكرة الجمعية التشريعية
على السودان ..

واذا كانت حرب فلسطين قد انتهت بكارثة اقامة اسرائيل خاضعة
للفوذ الاستعمارى ، وتبديد احتياطى الدولة المصرية ، وضرب
الحركة الثورية للفئات الاجتماعية المختلفة ، فانها لم تخمد فى الشعب
المصرى روح النضال ضد عدوه الأصيل .. الاستعمار البريطانى .
وما أكثر بذور الثورة التى وضعتها حرب فلسطين فى نفوس كثير
من الضباط العائدين من معركة خاضوها بكل بسالة ولم يشتركوا
لحظة فى صنع هزيمتها .

وعادت من جديد ظواهر الحركة الايجابية ضد الاستعمار .
كما عادت الى الحكم أيضا وزارة الوفد برئاسة مصطفى النحاس

الباب الرابع

الكفاح الشعبى المسلح

- ♦ الغاء معاهدة ١٩٣٦
- ♦ حريق القاهرة

الغاء معاهدة ١٩٣٦

غضب الشعب المصرى ضد قوات الاحتلال البريطانية ، جعل حكومة النحاس باشا ، تفاوض الانجليز من موقع التشبث والأصرار واستمرت المفاوضات الى يوليو ١٩٥١ دون الوصول الى نتيجة رغم ما عرضته مصر من التسليم بوجهه النظر البريطانية فى حق السودانين فى تقرير مصيرهم فى استفتاء حر ، ولكنها اشترطت لاجراء هذا الاستفتاء أن يجلو البريطانيون عن السودان مديا وعسكريا الامر الذى لم تقبله بريطانيا لأنه على حد قولها (يؤدى الى انهيار صرح الادارة فى السودان) .

وكان هذا التشدد من جانب بريطانيا دافعا لأن يعلن النحاس باشا فى مجلس النواب يوم ١٥ أكتوبر ١٩٥١ - تحت الضغط الشعبى - انتهاء العمل بأحكام معاهدة ١٦ أغسطس ١٩٣٦ وملحقاتها وبأحكام اتفاقيتى ١٩ يناير ، ١٠ يوليو عام ١٨٩٩ وصدر بذلك أمر ملكى رقم ٤٧ لسنة ١٩٥١ .

وازداد اشتعال معركة القناة ضد المستعمرين .
وأصدرت حكومة النحاس دستورا ونظاما للحكم فى السودان ..
تؤلف جمعية تأسيسية تمثل شعب السودان لاعداد دستور وقانون انتخاب يعمل بهما فى السودان .
وبدأ الكفاح المسلح فى منطقة القناة يأخذ اتجاها شعبيا واضحا ..
وتشكلت القوى الفدائية تهاجم معسكرات ومخازن قوات الاحتلال

.. وانسحب ثمانون ألفا من العمال المصريين من العمل في معسكرات
البريطانيين ولم يترددوا لحظة في التضحية بأجورهم العالية نسبيا .
وأخذت المعركة طابعا سياسيا دفع الحكومة الى اتخاذ موقف
ايجابي من المعركة مما جعل قوات البوليس في الاسماعيلية تتعرض
لهجوم بريطاني غادر يسقط فيه عدد من الشهداء .

وأباحت الحكومة حمل السلاح للمواطنين ، وأعلنت انها تدرس
قطع العلاقات مع بريطانيا ، وعقد معاهدة صداقة مع الاتحاد
السوفييتي ، وقررت الاستيلاء على نادى الجزيرة واخراج أعضائه
الانجليز ، واستدعت عبد الفتاح عمرو سفير مصر في لندن ،
وعوضت أهالي كفر عبده التي دمرها الانجليز .

كان الغاء المعاهدة بمثابة تحول في النضال الشعبى بالشرق
الأوسط كله ، اذ عبر عن تغيير في موازين القوى لصالح الشعوب ،
وتحول الدفاع ضد مؤامرات الاستعمار الى هجوم مباشر ومسلح
ضد قواته المسلحة بالقنال .

وظهرت في مجال النضال قيادات عمالية ديموقراطية متنوعة ،
وتكونت لأول مرة اللجنة التحضيرية لاتحاد النقابات المصرى كعماد
هام للجبهة الداخلية ، وقوة أساسية لتعبئة البناء الديموقراطى
الشعبى ، واتعشت كذلك حركة السلام المصرية .

وأثرت موجة المد الوطنى في مصر على كافة الدول العربية التي
حرصت شعوبها على تأييد نضال الشعب المصرى ، مما أصاب
الاستعماريين بذعر وهلع شديدين أمام تفاقم الحالة في مصر والشرق
الأوسط .

وبدأت تظهر بوادر الثورة في ايران .
واتخذ المد الثورى في السودان شكلا مختلفا عنه في مصر رغم ان
الموقف في جوهره لا يختلف من حيث النضال المشترك ضد
الاستعمار البريطانى .

ولكن المد الثورى في السودان لم يصل الى درجة الكفاح المسلح
كما حدث في القنال وذلك لعدة أسباب :

١ - ضعف تنظيمات القوى الشعبية في ذلك الوقت مقارنة بمصر
من حيث الاستعداد والقدرة التاريخية على تحريك الجماهير .
٢ - عدم تأثر القوى الشعبية السودانية بنتائج حرب فلسطين
كما تأثرت القوى الشعبية المصرية .

٣ - وقفت حكومة الوفد برئاسة النحاس باشا مرغمة تساند
الحركة الشعبية الجارفة ضد الاستعمار ، واستطاعت قوى الكفاح
المسلح أن تباشر مهمتها .. الأمر الذى لم يتوفر في السودان .
٤ - كان رفع شعار الكفاح المسلح في السودان خلال هذه
الفترة يعتبر من باب القفز في الهواء لأنه لم يسبقه تحضير نفسى
ونضالى بين الجماهير .

ولكن هذا لايعنى مطلقا أنه كان في مصر مد ثورى وكان في
السودان انحصار لهذا المد .
العكس هو الصحيح .

كانت جماهير الشعب السودانى معبأة تعبئة نفسية مع جماهير
الشعب المصرى .. وكانت تبذل الحركة السودانية للتحرر الوطنى
غايتها في دعم الحركة الديمقراطية في المدن والأقاليم .

وخلال هذه الفترة عقد المؤتمر الأول لاتحاد النقابات الذي اعتبر في ذاته عملا هجوميا من أجل توحيد الطبقة العاملة ... وكذلك قرر المؤتمر رفض السودان لكافة المشروعات الحربية الاستعمارية ، كما قرر الارتباط بالاتحاد العالمي للنقابات ، وبدأت بعض الاضرابات من أجل تعديل القوانين العمالية .

وفي هذه الحالة من المد الثوري فشل مشروع الدستور الذي حاولت بريطانيا أن تفرضه على السودان وتعطل عرضه على الجمعية التشريعية ..

حريق القاهرة

وصلت حكومة الوفد - بتأثير الضغط الشعبي بعد إلغاء المعاهدة - الى أقصى ما يمكن أن تصل حكومة برجوازية .. أتاحت فرصة التعبير ، و خلقت جوا ديموقراطيا كان أعظم سند للنضال المسلح . وبدأت الأفكار والروح الوطنية تنسج ما بين جماهير الشعب ورجال الجيش .. ويذكر أن الشهيد عباس الأسير الطالب في كلية التجارة بجامعة الاسكندرية قد سقط بطلا أثناء معركة القنال .. وكانت جنازته تعبيرا عن هذا اللقاء الجديد .

خرج ضباط القوات المسلحة الى الجنازة في طابور رسمي رغم نصيحة رجال البوليس السياسى لهم بعدم الاشتراك .. وخرجت الاسكندرية تشيع شهيدها البطل وأمام الجنازة تمثال لحمامة سلام بيضاء لأن الشهيد كان عضوا في لجنة أنصار السلام بالاسكندرية . وكانت هذه المظاهرة الرائعة امتدادا لمظاهرات القاهرة التي لم تشهد لها مثيلا في ١٤ نوفمبر ١٩٥١ .

وأصبحت مظاهرات القاهرة والاسكندرية والكفاح المسلح المتزايد في منطقة القناة محل اهتمام عالمى .. ولكن الاستعمار لم يكن غافلا عن هذا الخطر .. وبدأ يعد مؤامراته مستعينا بالسرائى التي كانت ترتجف من هذا الزحف الشعبى المسلح نحو القناة .

عينت السراى حافظ عفيفى رئيسا للديوان الملكى دون استشارة الحكومة ، وقالت فى ذلك جريدة النيويورك تايمز « انه الشعاع الأول من النور الذى يمزق اكفهارار جو مصر منذ أن قطعت العلاقات مع بريطانيا » .

وترددت الوزارة فى الاعتراض على هذا القرار متهاونة مع السراى مما شجعها على تحقيق مؤامرتها الكبرى بحريق القاهرة يوم ٢٦ يناير بالذات ، وهو اليوم الذى تعهدت فيه الوزارة بقطع العلاقات نهائيا مع بريطانيا وعقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفييتى ..

وكان هو اليوم السابق أيضا لعقد أول مؤتمر لاتحاد عام نقابات العمال المصريين بتصريح من الحكومة .

وتم حريق القاهرة بتدبير غريب من الاستعمار والسراى اذ دعا الملك ضباط الجيش الى حفل غداء .. وفى ذات الوقت بدأت العصابات المأجورة تحرق القاهرة وتحرق معها آمال الشعب التى كادت تتحقق ..

وفى مساء نفس اليوم أقيمت وزارة مصطفى النحاس وعين نجيب الهلالي الذى طبق الأحكام العرفية بشدة وأعلن شعار « التطهير والتحرير » .

وترك حريق القاهرة خوفا عميقا وغضبا عاصفا فى نفوس جماهير الشعب السودانى الذى شعر أن خنجر الخيانة قد طعن الشعب المصرى فى ظهره .

وانعكس ذلك فورا على علاقة مصر بالسودان اذ دعا نجيب

الهلالى المهدي للحضور الى مصر ، فأرسل خمسة مندوبين قاموا بمحادثات سرية ، ثم جدد حسين سرى الذى تولى الحكم بعد نجيب الهلالى توجيه الدعوة الشخصية الى المهدي ..

أطاح حريق القاهرة بآمال الشعيين المصرى والسودانى فى التحرر العاجل من الاستعمار وقوات الاحتلال .. ولا بد من تحليل للأسباب التى أدت الى حدوث هذه الكارثة القومية :

١ - كان الكفاح المسلح فى القنال ينطلق فى مراحل الأولى قويا ومؤثرا ولكن خلف قيادات متعددة ، البعض منها لم يكن فوق مستوى الشبهات ، الأمر الذى سهل على الحكومات التالية أن تخرجه وتضع أبطاله فى السجون والمعتقلات .

٢ - تهاون حكومة الوفد مع السراى ورضوخها لتعيين حافظ عفيفى دون استشارتها ، جعل من السراى مركزا خطرا للتآمر الاستعمارى ، ومنحها فرصة التدبير الهادىء للمؤامرة .

٣ - رغم الروح الديموقراطية التى سادت مصر فانه لم تتخذ خطوات ايجابية لتوحيد المقاتلين وتعبئة الجهود فى « جبهة شعبية مصرية » تضم جماهير الوفد وكافة التنظيمات المشتركة فى الكفاح المسلح ..

٤ - كانت الحركات التقدمية المصرية تعاني من أثر معتقلات حرب فلسطين ولم تكن رغم دورها الايجابى الواضح فى معركة القنطرة قادرة على القيام بدور التوجيه الرئيسى للجماهير كما حدث خلال عام ١٩٤٦ وما بعده .

٥ - عندما بدأ الحريق لم تفتن الجماهير الى خطورته واشتركت

بعض العناصر غير المتواطنة فيه ، على اعتبار أنه يحرق بعض المباني البريطانية ودور اللهو ، وعددا من المحلات التجارية الكبرى ... كان نقص الوعي ، وغيبة القيادة الشعبية ، من أهم عوامل نجاح الحريق ..

٦ - عدم مبادرة وزير الداخلية بإصدار أوامر حاسمة بالضرب الشديد ضد المخربين .

٧ - تأخر الجيش في النزول لمقاومة الحريق بخطة متعمدة حيث كان الضباط يتناولون الغداء مع الملك في سراي عابدين .
وسرعان ما استعاد الاستعمار توازنه بعد الخطوات التي اتخذتها وزارات نجيب الهلالي وحسين سرى ... وبدأت تنحصر موجة المد الثورى في مصر وفي السودان أيضا .

وعاد الشعب المصرى من جديد الى موقف الدفاع .

وبدأ الاستعمار ضغطه في السودان لتحقيق هدفين رئيسيين :

١ - احداث انقسام جماهيرى بين قوى الشعب المتحدة بمحاولة جذب الجناح اليميني المتردد فى المعسكر الوطنى .

٢ - تنظيم هجمات على التنظيمات الشعبية الديمقراطية بغرض تصفيتها أو جعلها تتخلى عن واجباتها النضالية .

وظهر الاستعمار الأمريكى فى صورة مبعوثين يجولون أنحاء السودان تحت ستار محاولة « حل مشكلة السودان » .

وفى هذه المرحلة التى اهتزت فيها الأوضاع التقليدية ، والتى دعا فيها نجيب الهلالي وحسين سرى المهدي للحضور الى مصر بدأ الحتمية يقولون أن مصر قد خانتهم ، والتقى ذلك مع تصريحات

الصحف البريطانية بعد سفر وفد المهدي الى مصر بأن الحتمية
سوف يجدون عوناً من الانجليز اذا اعتدت مصر على حقوقهم !
وكان التقاء القادة الاقطاعيين في السودان من دلائمة المهدي
مع حكومات انقلاب حريق القاهرة تعبيراً عن الاتجاه المعادي للتقدم
الذي بدأ الاستعمار البريطاني يدفعه في مصر والسودان .
كانت الشهور التي أعقبت حريق ٢٦ يناير شهوراً مظلمة مثل
مباني القاهرة بعد أن خمدت فيها النيران .
'ر حاول فيها أن يحقق ثمار انقلابه

ور على حريق القاهرة كان الضباط
تقدمية قد تحركوا ليلة ٢٣ يوليو
لتنقيض الحكم الملكي الفاسد .
السياسية لمصر والسودان .

الباب الخامس

السودان .. وشورة ٢٣ يوليو

- اتفاقية يناير ١٩٥٣
- الأزهرى يغير سياسته
- السودان بعد الاستقلال

اتفاقية يناير ١٩٥٣

كانت ثورة ٢٣ يوليو انفجارا شعبيا عبرت عنه الطليعة من الضباط الأحرار في الجيش ، وأنهت به شهور الظلام التي أعقبت انقلاب حريق ٢٦ يناير ، والتي فرضت على الشعب المصرى ألوانا من الكبت والارهاب والاعتقال فى محاولة لتثبيت دعائم الاستعمار وبعد سماع البيان الأول للثورة تنفست الجماهير الصعداء ، وشعرت بحسها الثورى الصادق والأصيل ، أن الملكية قد أطيح بها ، وأنه لم يعد هناك مكان للحكم السراى ..

وفى خطوات ثورية سريعة أفرجت الثورة عن معظم المعتقلين اليساريين ، وعزلت الملك فاروق ، وأصدرت قانون الاصلاح الزراعى الذى وجه ضربة شديدة للاقطاع المصرى العتيق ، وبدأت تواجه مشاكل الحياة السياسية من موقع المسئولية . منذ اللحظة الأولى فى الثورة ، ورغم تلال المشاكل الداخلية التى جابهت طليعة الشعب المثلة فى تنظيم الضباط الأحرار ، فإن مشكلة السودان فرضت نفسها على الثوار .

كانت بريطانيا تستخدم كل حذقها ومهارتها السياسية من أجل استمرار سيطرتها على السودان بإثارة مسألتين كان يرفضهما حكام مصر السابقين وهما :

١ - فصل المسألة السودانية عن المسألة المصرية .

٢ - حق السودانين في تقرير مصيرهم بأنفسهم .
وجابته القيادة العامة الموقف في شجاعة وأرسلت في نوفمبر
١٩٥٢ مذكرة تقترح الآتى :

- ١ - تمكين السودانين من ممارسة الحكم الذاتى الكامل .
- ٢ - تهيئة الجو الحر المحايد الذى لابد من توافره لتقرير
المصير ..

وفوجئت الحكومة البريطانية بهذا الموقف ، فلم تملك سوى
الموافقة وان كانت قد لجأت الى المراوغة باظهار ضرورة حماية
الجنوبيين من الشماليين !

وكانت المباحثات قد بدأت في ٢٠ نوفمبر ١٩٥٢ وامتدت في ١٢
فبراير ١٩٥٣ بين اللواء محمد نجيب رئيس الوزراء في ذلك الوقت
والصاغ أركان حرب صلاح سالم والدكتور محمود فوزى وقائد
الجناح حسين ذو الفقار صبرى والدكتور حامد سلطان والأستاذ
على زين العابدين حسن ممثلين للجانب المصرى وسير رالف
سينفيسون ومستر باورز ممثلين للجانب البريطانى .

ولم تجد الثورة المصرية سبيلا سوى وضع الأمر بين يدي ممثلين
الأحزاب السودانية .. الأمة والوطن الاتحادى والجمهورى
الاشتراكى الذين اجتمع بهم الصاغ صلاح سالم ، وأقرروا معظم
فقرات المذكرة المصرية في ١٠ يناير سنة ١٩٥٣ والتي انتهت الى
نصوص الاتفاقية .

وانتهى الأمر الى اتفاق بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة
المتحدة لبريطانيا العظمى وشمال ايرلندا بشأن الحكم الذاتى وتقرير

المصير للسودان ، ينص على فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات تمهيدا لانتهاء الادارة الثنائية وتصفيتها ، ويحتفظ في فترة الانتقال بسيادة السودان للسودانيين حتى يتم لهم تقرير المصير .

واتفق على أن يكون الحاكم العام هو السلطة الدستورية العليا داخل السودان يمارس سلطاته وفقا لقانون الحكم الذاتى بمعاونة لجنة خماسية تسمى لجنة الحاكم العام ، وتشكل من اثنين من السودانيين وعضو مصرى وعضو بريطانى وعضو باكستانى .

العضوان السودانيان رشحتهما الحكومة المصرية والسودانية وهما الدرديرى عثمان وابراهيم أحمد وقد وافق عليهما البرلمان السودانى بعد انتخابه .

وكان العضو المصرى هو حسين ذو الفقار صبرى .

والعضو البريطانى جرافتى سميث .

والعضو الباكستانى سيان ضياء الدين .

وقد رشح الثلاثة من حكوماتهم .

كذلك شكلت لجنة للانتخابات من ثلاثة سودانيين عينهم الحاكم العام ، وعضو مصرى هو عبد الفتاح حسن ، وعضو بريطانى وعضو هندى ..

كما شكلت لجنة للسودنة أيضا مهمتها سودنة الادارة باحلال السودانيين محل البريطانيين والمصريين فى الوظائف التى ترى ضرورة احلالهم بها وأهمها البوليس والادارة وقوة الدفاع .

ونصت الاتفاقية على وضع الحكومة السودانية مشروعا بقانون لانتخاب جمعية تأسيسية كما نصت أيضا على انسحاب القوات

العسكريه المصريه والبريطانيه من السودان فور صدور قرار البرلمان
السودانى برغبته فى الشروع فى اتخاذ التدابير لتقرير المصير على أن
يتم ذلك فى فترة لا تتعدى ثلاثة شهور .

ونصت المادة ١٢ من الاتفاقية على الآتى :

تقوم الجمعية التأسيسية بإداء واجبين :

الأول - أن تقرر مصير السودان كوحدة لا تتجزأ

والثانى - أن تعد دستورا للسودان يتواءم مع القرار الذى يتخذ
فى هذا الصدد كما تضع قانونا لانتخاب برلمان سودانى دائم ..
ويتقرر مصير السودان :

(١) اما بأن تختار الجمعية التأسيسية ارتباط السودان بمصر على
أية صورة ..

(ب) أو أن تختار الجمعية التأسيسية الاستقلال التام ..

وهنا يجب علينا الرجوع قليلا الى انتصارات النضال الوطنى فى
السودان ، حيث أمكن توحيد الصف الوطنى فى الجبهة المتحدة
لتحرير السودان فى أوائل عام ١٩٥٢ واشتركت النقابات لأول مرة
بواسطة مركزها الثورى - اتحاد نقابات عمال السودان - الذى
خاض اضرابا فى ابريل عام ١٩٥٢ ضد مؤامرة تعديل قانون النقابات
التي كانت تسعى لحل اتحاد النقابات ومصادرة الحريات النقابية .
لم يكن سهلا على المستعمرين أن يواصلوا البقاء فى السودان ..
كان معنى بقائهم تزايد الحركة الجماهيرية وتكاتف قوى واسعة من
الجماهير وارتباط المزارعين بالحركة الوطنية بقيادة ثورية جديدة هى
الطبقة العاملة .

ولذا فإن اتفاقية فبراير ١٩٥٣ التى قبلها البريطانيون مرغبا وقعت برغبة واضحة من الثورة المصرية فى اعطاء الشعب السو حقه فى تقرير مصيره وتحت ظروف كانت تتميز باندفاع الح الجماهيرية السودانية ضد الاستعمار مع ظهور الطبقة العاملة واعية ..

وانتقد الحزب الشيوعى السودانى بعض ماورد فى هذه الا باعتبارها لا تحقق الرغبة الجماهيرية الملحة فى وجوب الجلاء ال للاستعمار قبل اجراء أى انتخابات فى السودان .. وكان هذ الرأى المعارض الوحيد وسط موجة هائلة من التأييد .

ولكن فقرة وردت فى كتاب « لمحات من تاريخ الحزب الش السودانى » أعادت تقييم هذا الموقف عندما ذكرت أن الحزب فى لاتفاقية أخطأ فى ذلك الوقت لأنه نظر اليها من زاوية واحدة الى مزايتها التى يستغلها المستعمرون والى كونها مناوره لهم لى وضعا - شرعيا - فى البلاد لاستمرار نفوذهم ولم ينظرا باعتبارها نتاجا من نتاج الكفاح الشعبى الذى كان فى الامكا بشر أوفر منها لو تقيدت أحزاب الطبقة الوسطى بحلفها فى المتحدة لتحرير السودان ولكن هذا لا يمنع أن المستعمر قد تحت ضغط الحركة الجماهيرية فى السودان واضطر للتراجع - الاتفاقية تراجع من جانبه ، اذ يمكن استغلالها لصالح الش السودانى » .

وهكذا أيدت جماهير وأحزاب الشعب السودانى اتفاقية فبراير سنة ١٩٥٣ التى بادرت الثورة المصرية الى الضغط

على الحكومة البريطانية لاقرارها ، وحشدت في سبيل ذلك تأييد الأحزاب السودانية القائمة وقتئذ .. وأصدر الحاكم العام قانون الحكم الذاتي .

وهنا يجب أن نشير الى الدور النشط الذي لعبه المرحوم الصاغ أركان حرب صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة المصرى الذى ولد في سنكات بالسودان .. والذى بذل جهدا كبيرا في حشد ارادة الشعب السودانى لنجاح الاتفاقية ، والوصول الى موقف أكثر ايجابية في اللقاء مع مصر عند عرض قضية تقرير المصير والذى قام برحلة الى الجنوب رافضا اتباع الاجراءات الروتينية (الحصول على اذن بالسفر من الحاكم العام) وأجريت أول انتخابات في ظل الاتفاقية .

كان الحزب الوطنى الاتحادى ينادى بالاتحاد الفيدرالى مع مصر وكان حزب الأمة يعلن استقلاله عن مصر وبريطانيا . وفاز الوطن الاتحادى بأغلبية ساحقة تتجاوب مع مشاعر الجماهير السودانية التى تربطها علاقات تاريخية وانسانية واجتماعية مع أهل الشمال ..

و شاء القدر أن ينتزع منا شباب صلاح سالم الذى لعب دورا حاسما في عقد الاتفاقية قبل أن يكتب تاريخ هذه الفترة الشديدة الحيوية في تاريخ مصر والسودان ، ويفسر لنا كثيرا من الظواهر التى حدثت بعدها ..

ولكن حسين ذو الفقار صبرى عضو لجنة الحاكم العام يشير الى بعض ماكان يلاقيه في اللجنة من عنت استعمارى ، كان يقاومه بنشر
٦ - مصر والسودان

بيانات صريحة موقعة باسمه في الجرائد السودانية .
من ذلك مثلا مشكلة عرض الخلافات التي تنجم عن الاتفاقية
على القضاء العالى الذى كان يتولاه البريطانيون .. واستمرت
مقاومة ذلك حتى استقال القضاة البريطانيون .

ونشر حسين ذو الفقار صبرى بيانا آخر ضد لجنة الحاكم العام
لأنها منحت نفسها أجازة لمدة أربعة شهور يتجول فيها الأعضاء على
حساب الحكومة السودانية مما يؤدي الى تعطيل أعمال لجنة
السودنة التي كانت تعرض قراراتها على لجنة الحاكم العام .

ويؤكد حسين ذو الفقار صبرى ظهور اتجاه في صفوف حزب
الأمة ينادى باستقلال السودان تحت رئاسة حاكم عام بريطاني
ممثلين في ذلك بوجود اللورد مونتباتن حاكما عاما للهند بعد اعلان
استقلالها !!

ولا ينبغي لنا أن تعبر هذه الفترة التاريخية الحاسمة دون أن ننقد
الاتجاه الى دفع كثير من الأموال الى عدد من المشتغلين بالسياسة
السودانية دون هدف واضح ... ذلك أدى الى انهيار القيم ، وتمزيق
نفوس الكثيرين ، وبذر التطلعات الذاتية ، وخلق فئة من الذين
تحركهم الأموال أكثر مما تحركهم المبادئ .

وقد تركت هذه الطريقة المفجة آثارها في مسار الحياة السياسية
.. ولم تؤد في النهاية الى أية نتيجة ايجابية .

الأزهري يغير سياسته

وساد شعور غامر بأن الاتفاقية قد مهدت الطريق فعلا لوحدة وادى النيل .. وأن الوقت وحده هو الذى يفصل بين الأمل والحقيقة بعد أن تولى اسماعيل الأزهري رئاسة الوزارة وهو الذى أدلى بألوف التصريحات من أجل الوحدة على أساس سياسى .

ولكن تبين أن اسماعيل الأزهري كان ينادى بما لا يؤمن به .. حرصا على كسب التأييد فى الانتخابات .. وكان يلتقى فى رغبة الانفصال مع حزب الأمة .

وشرع فى اتخاذ خطوات مضادة غير متوقعة :

- ♦ أوقف الصحف الاتحادية وسحب رخص بعضها ..
- ♦ رفض هدية من الأسلحة الحديثة عرضتها مصر فى أوائل ١٩٥٤
- ♦ رفض ارسال ضباط سودانيين للتدريب فى مصر على تفقيتها وأصر على تدريبهم فى بريطانيا
- ♦ لم يوافق على رصد مصر لمبلغ ٣/٤ مليون جنيه لتنفيذ

مشروعات ثقافية وصحية واجتماعية فى أرجاء السودان .

وقبل نهاية ١٩٥٤ أُلِف الحزب الوطنى الاتحادى لجنة من أعضائه لدراسة شكل الحكم المنتظر وقررت اللجنة التخلّى عن مسألة الاتحاد مع مصر ، ووافقت الهيئة العامة للحزب على ذلك .

ولم يأخذ اسماعيل الأزهري هذه الخطوات تجاه مصر فقط ..

ولكنه اتخذ خطوات أخرى في السودان .

وكان للحزب الوطني الاتحادي جريدتان « العلم » و « الاتحاد » فصل اسماعيل الأزهرى أسرة تحرير جريدة العلم التى كانت مكونة من محيى الدين صابر وزير التعليم فى حكومة ثورة مايو وعقيل أحمد عقيل نقيب المحامين الحالى ومحمد أمين حسين وحسن دراوى سفير السودان الحالى فى سوريا وغيرهم لميولهم وكتاباتهم الواضحة من أجل تحقيق الاتحاد مع مصر .

وأغلق الأزهرى جريدة « الاتحاد » وجعل أسرة تحريرها هى التى تصدر جريدة « العلم » وهنا يثور سؤال :

لماذا تغيرت سياسة اسماعيل الأزهرى بهذه السرعة ، وهو الذى كسب الانتخابات تحت شعار الاتحاد ؟
وعلىنا أن نرصد تحركات وأحداث الأزهرى لنخرج منها بمعام التغيير ..

فى مؤتمر باندونج لم يقف اسماعيل الأزهرى مع الدول المتحررة ، ولكنه اتخذ موقفا التقى فيه مع الدول الرجعية ومنها دول حلف بغداد مثل العراق « الملكية » فى ذلك الوقت !

وعندما زارت الملكة اليزابيث يوغندا سافر اسماعيل الأزهرى لمقابلتها فى كمبالا رغم معارضة الشعب السودانى ونصيحة الثورة المصرية له بعدم الذهاب .. وهناك قبل يد الملكة وعاد بتصريحات سيئة ! ..

وفى عام ١٩٥٥ سافر على رأس وفد مكون من يحيى الفضلى

والشيخ على عبد الرحمن الى لندن حيث قوبل بمقابلة حافلة .
كان الاستعمار البريطانى بعد نجاح الأزهرى فى الانتخابات قد
رسم سياسته على التركيز على الجواد الرابع وهو أول رئيس لحكومة
سودانية ..

وفى سرعة شديدة بدأت سياسة الأزهرى تتغير وأخذ يتغاضى عن
النضال الشعبى المشترك ضد الاستعمار البريطانى ويعلن أن تسمية
الحزب بالاتحادى ، انما تعنى « اتحاد قبائل السودان » !
وظلت وزارة اسماعيل الأزهرى وهى الوزارة السودانية
الوحيدة التى شكلت من حزب واحد نامرس خطتها فى عزل نضال
الشعب السودانى عن نضال الشعب المصرى ..

وقد أدت بعض خطوات الأزهرى الى حدوث تناقض فى صفوف
الحتمية .. الأمر الذى أدى الى خروج عدد من أنصار السيد على
الميرغنى وتكوينهم لحزب الشعب الديموقراطى فى يوليو ١٩٥٦ بعد
الاستقلال ..

وبعد أن أخذت اجراءات السودنة مداها وأوشكت ثلاث سنوات
الانتقال على النهاية ، أبلغت الحكومة السودانية حكومتى مصر
وبريطانيا برغبة الجمعية التأسيسية فى مزاولة حق تقرير المصير ،
ومالبت بسحب جيش الاحتلال لاجراء الاستفتاء (فى جو حر
مجايد) ..

وسحبت مصر وبريطانيا جيوشهما .
وتركت مصر كل الأسلحة الثقيلة التى كانت تخص جيشها فى
السودان ..

وتم الجلاء فعلا في نوفمبر ١٩٥٥
ووجدت حكومة السودان بعد الجلاء أن الأمر لا يحتاج الى
استفتاء بشأن شكل الحكم بعد اتفاق كل الأطراف الحاكمة على
معارضة الاتحاد .. وأعلنت قيام الجمهورية السودانية في ١٩ ديسمبر
١٩٥٥ .

وأعلن استقلال السودان رسميا في أول يناير ١٩٥٦ ، دون
استفتاء أو تقرير للمصير .. ودون ارتباط بمعاهدات أو أحلاف
أو اقامة لقواعد أجنبية ، وشكل أول مجلس سيادة سوداني
لرئاسة الدولة ..

ويلاحظ أن هذه الاتفاقية قد أدت الى جلاء القوات البريطانية
عن السودان قبل أن تجلو نهائيا عن مصر ذاتها في يوم ١٨ يونيو
١٩٥٦ .. وهكذا كانت السودان أول دولة عربية افريقية تستقل في
القرن التاسع عشر بعد ثورة المهدي .. وأول دولة عربية افريقية
تجلو عنها قوات الاحتلال أيضا .

السودان بعد الاستقلال

كان استقلال السودان انتصارا كبيرا للشعب السوداني الذي أجهده تصرفات الاستعمار أكثر من نصف قرن .. وساد تصور عام بأن الاستقلال هو العصا السحرية التي يمكن أن تحل كل المشكلات وترفع قبضة الاضطهاد ، وتمنح الناس فرصا ثمينة لحياة لا تعرف الظلم ..

نمى هذا التصور رجال الأحزاب الحاكمة ، والفئة الصاعدة من التجار .. والرأسماليين الذين ارتبطوا بالشركات الاستعمارية البريطانية أساسا ..

وفقد النضال الوطني حرارة الاصرار على التطور الاجتماعي .. وتزايد الطابع اليميني للطبقة الوسطى السودانية التي تهيأت لها فرص العمل والثراء ، وبرز وجهها الرجعي المعادي للتقدم الاجتماعي والاشتراكية وحركة الطبقة العاملة .

وفي كلمات لم تربط الحركة السياسية التقليدية في السودان نفسها بهدف التطور الاجتماعي ، وكانت تركز دائما على شعارات وطنية مجردة ، خالية من أى مضمون يحمل الأمل في تغيير حياة الانسان ..

لم تحاول هذه الأحزاب أن تخلق للاستقلال مضمونا شعبيا أصيلا ، وانما تضاعف فهمها للكسب من وراء الاستقلال فقط ..

ولم تبذل الأحزاب السياسية جهدا في دراسة التكوين الطبقي للمجتمع السوداني وظلت ايدولوجيتها تعبيرا عن الطبقة التي كوتتها من أبناء البرجوازية .. الذين أتاحت لهم فرصة التعليم ، وبذرت في نفوسهم التطلعات الفردية ..

ووجه قادة الأحزاب الرجعية استفزازات شديدة للمناضلين تحت راية الاشتراكية وتحرير الانسان السوداني من القهر والظلم الاجتماعي ..

ولكن هؤلاء المناضلين لم يستجيبوا لهذه الاستفزازات ، وانما تعمدوا مواجهة كل اتهام ، والرد عليه ، وكشف جذوره الرجعية ومع ذلك فقد الحزب الشيوعي عددا من أعضائه المثقفين الذين أجهد النضال خطواتهم ، ووجدوا في جهاز الحكم بعد الاستقلال فرصة تهيئ لهم الاستقرار ..

وبالرغم من الصعوبات الذاتية والموضوعية التي واجهها الحزب في الفترة ما بين ٥٦ - ١٩٥٨ الا أنه ظل يناضل بثبات من أجل التغلب عليها

وبدأت الحركة الجماهيرية تتصاعد مع مطلع عام ١٩٥٨ ضد مواقف محددة أخذت تجنح اليها حكومة عبد الله خليل الائتلافية التي حلت محل حكومة اسماعيل الأزهرى في ٥ يوليو ١٩٥٦ وتكونت من الحزبين المتنافرين أصلا .. الأمة والشعب الديموقراطى كانت حكومة عبد الله خليل تفتح أبواب السودان للاستعمار الجديد وتهيئ الجماهير لقبول المعونة الأمريكية ..

ولكن نضال الثورة المصرية ضد الاستعمار البريطانى وتحقيق

الجلء في ١٨ يونيو ١٩٥٦ ، ثم تأميم القنال ، وفشل العدوان الثلاثي في تحقيق أهدافه ، ورفض مصر الارتباط بأى نوع من الأحلاف العسكرية ، وعقد صفقة الأسلحة التي حررت مصر من تبعيتها للاستعمار ومقاومة محاولات التدخل الأمريكى في صلاية وصراحة ووحدة مصر وسوريا .. وتحسن العلاقات الاقتصادية والثقافية مع الاتحاد السوفييتى ودول المعسكر الاشتراكى .. كل ذلك كان له بالتأكيد تأثير قوى وشديد النفوذ على تيار العمل السياسى في السودان ..

التجربة الرائدة للثورة المصرية ، وخطواتها الثابتة في طريق التقدم ، جعلت شعب السودان يزداد اصرارا وثباتا على مقاومة حكومة عبد الله خليل التي حاولت اعادة السودان الى سيطرة الاستعمار من جديد .

وافتقد الحكم في الفترة من أول يناير ١٩٥٦ حتى ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ الوحدة الوطنية التي تهيء له الثبات والاستقرار . عجزت وزارة الحزب الوطنى الاتحادى الأولى لأنها كانت وزارة حرب واحد ..

وفشلت الوزارة الائتلافية الثانية لأنها أهملت القوى التقدمية والمزارعين والفلاحين ..

ويذكر أن الرئيس جمال عبد الناصر كان قد التقى بإسماعيل الأزهرى وعلى عبد الرحمن معا في القاهرة .. وأرسل سفير السودان « يوسف التنى » عضو حزب الأمة الى عبد الله خليل يبلغه بأن اتفاقا قد تم في القاهرة لتشكيل حكومة من الوطنى.

٩.

الاتحادى والشعبى الديمقراطى واخراج حزب الأمة من الحكم !!!
وبادر عبد الله خليل بتنفيذ مخططة وتسليم الحكم للقيادة
التقليدية للجيش .

وتسليم الأحزاب التقليدية الأمر للقيادة التقليدية للجيش .. له
قصة مثيرة ..

واستلام المجلس الأعلى للقوات المسلحة للسلطة كان يشكل
انعطافا حادا فى تاريخ السودان ... وكادت الأمور تغرق مع الأيام
فى ظلام اليأس .

الباب السادس

ثورة أكتوبر

- ♦ صورة الثورة من الخرطوم
- ♦ محاولات ثورية ضد الدكتاتورية العسكرية
- ♦ قبضة العنف ..
- ♦ الرجل المريض فى افريقيا .. وقتلة لومومبا
- ♦ الانهيار الاقتصادى
- ♦ الحريات الديمقراطية
- ♦ شرارة الثورة
- ♦ الجيش مع الشعب
- ♦ اتجاهات الثورة .. ورأى الحزب الشيوعى
- ♦ صورة أخرى من الخرطوم
- ♦ نكسة ثورة أكتوبر

صورة الثورة من الخرطوم

ولم يطل الأمر كثيرا ..
اهتز الشعب المصرى فرحا وهو يسمع فى الاذاعة أنباء الثورة
على الحكم العسكرى الديكتاتورى فى الخرطوم .. وظلت الأنباء
تصل الى القاهرة ، ولكنها لا تعطى صورة صادقة عما يحدث هناك
فى البلد الشقيق .
وقررت أن أكون هناك وسط الأحداث .. بين جماهير الشعب
السودانى .. لأعيش فترة من فترات التاريخ العامرة بنبض التقدم
والأمل ..
الطائرة تتحرك الى الخرطوم وجواز سفرى لا يحمل تأشيرة
دخول الى السودان !!
أسرعت مع الطائرات الأولى بعد افتتاح المطار .. دون أن أتريث
تلبية لكلمات موظف الجوازات فى سفارة السودان بالقاهرة ..
الذى وعدنى بتأشيرة دخول فى مدى عشرة أيام .. !!
ومكتب الخطوط الجوية السودانية رفض أن يعطينى التذكرة الا
بعد أن كتبت اقرارا بأنى أتحمل مسؤولية ماينجم عن ذهابى الى
السودان دون تأشيرة دخول !
ترى هل الموقف فى السودان ، يستدعى هذه الاجراءات ؟
ماذا يمكن أن يحدث لى فى مطار الخرطوم ؟

هل أعود على نفس الطائرة الى القاهرة ؟
 أسئلة كثيرة كانت تنتظر الجواب في مكتب ضابط الجوازات ..
 الساعة بعد منتصف الليل والسكون يغمر كل شيء .. وأنا
 لا أكاد أسمع الا دقات قلبي
 ونظر الضابط في صفحات الجواز ، ثم قال لى في هدوء :
 — أنت لا تحمل تأشيرة دخول .. لماذا ؟
 — أخذت تأشيرة الخروج اليوم .. وكنت فى عجلة أريد أن ألحق
 بأول طائرة ..

— لماذا حضرت ؟
 وقلت فى صراحة :
 — أنباء السودان جذبتنى الى هنا كصديق ..
 وابتسم الضابط وهو يقول :
 — انتظر قليلا ..
 وعاد بعد دقائق ، يقول لى :
 — أتكفيك الاقامة هنا عشرة أيام ؟
 وقلت وأنا لا أكاد أصدق أن الأمر يمكن أن ينتهى فى مثل هذه
 البساطة وبكل هذه الدقة :
 — طبعا يكفى ..

وخرجت مسرعا من المطار الصغير استقبل نسمات ليل الخرطوم
 باحثا عن ثورة ٢١ أكتوبر .
 ولكن .. أين مظاهر الثورة .. المطار هادئ ليس به جنود .
 الطرق تكاد تكون خالية .. أمام القصر الجمهورى جنديان

فقط .. ووزارة الدفاع يحرسها حارس واحد .. و
مظلمة ..

سائق التاكسي يتحدث في حماس عن ثورة الشعب
العشرة التي تفجر فيها الموقف كالبركان .. وسقط
والجرحى وارتوت الأراضي بالدماء

ومع شروق الشمس كانت تتضح الحقيقة .. وينحس
مع الظلام .. ثورة ٢١ أكتوبر لعب الشعب فيها دورا
اشترك فيها كل الناس .. القضاة والعمال وأسد
والطلبة والأطباء .. والمهندسون .. والنساء ..

واشترك فيها أيضا ضباط الجيش .. نعم .. ضد
اشتركوا في الثورة مع الشعب ضد المجلس الأعلى للق
الذي تولى الحكم منذ ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ ..
الشرارة الأولى للثورة كانت هي الطلقة التي استة
الشهيد أحمد قرمى .. الذي حمله زملاؤه الى مبنى
وناموا حول جثته لحراستها ..

وفي اليوم التالي حمل الجثمان أساتذة الجامعة وه
الأرواب واجتمع أكبر حشد للجماهير في تاريخ السود
الجماهير بعربات الجيش المصفحة وبالديابات . وانظلة
تدوى في أرجاء الفضاء تطلب سقوط الحكم القائم ..
كان جديدا أن يقف القضاء مع جماهير الشعب ..

وكان جديدا أن تبرز من خلال الأحداث قيادة ثوريا
القومية الموحدة تضم نقابات الأطباء والعمال والمحامين

وأساتذة الجامعة والمعلمين واتحاد الطلبة ..
 وكان جديدا أن يعلن الاضراب السياسى العام من أمام المحكمة
 العليا بالخرطوم تحت تهديد الدبابات .
 كل هذا كان جديدا فى تاريخ السودان الحديث .
 ولكن .. هل اندلعت الثورة بطريقة عفوية تلقائية ؟
 وهل كانت المشكلة هى اجتماع الطلبة للاحتجاج على تنبيع
 الجامعة الى وزارة التربية والتعليم التى كان يتولاها طلعت فريد ؟
 وهل كانت مشكلة الجنوب هى التى جعلت الاناء يفيض ؟
 الواقع أن ثورة ٢١ أكتوبر ١٩٦٤ كانت حصادا طبيعيا لنضال
 الشعب السودانى ضد طغيان الحكم السابق .. وانها أيضا أكبر ثورة
 فى تاريخ السودان الحديث ..

وتبدأ القصة قبل ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ ..
 كان أسلوب الحكم البريطانى يعتمد على امتصاص وتفريغ
 الحركات الوطنية . وجذب عناصر من اليمين الذى تنهض سطوته
 على الطائفية الدينية وينمى فى نفوسهم دعوة الكراهية والانفصال
 عن نضال الشعب المصرى .

ولكن ما أن حصل السودان على استقلاله ، وخفت قبضة
 بريطانيا عن الجهاز التنفيذى للحكم حتى ظهر ورثها القوى ،
 الاستعمار الأمريكى الجديد ، الذى جعل من بريطانيا ذاتها تابعا
 اقتصاديا له وبدأ يتسرب الى هذا البلد الكبير ، الملىء بالخيرات ،
 الذى يتميز بموقعه الاستراتيجى الهام فى مركز القلب من افريقيا .
 ولم يتردد الاستعمار الأمريكى الجديد فى اقتحام هذا المجال ،

ولعلنا مازلنا نذكر الأمريكيين الذين وفدوا عام ١٩٥٢ الى السودان بدعوى بحث « حل مشكلة السودان » .. أسفر عن نفسه منذ بدء الاستقلال وعندما قوبل بعقبات نتيجة المعارضة الشعبية التي تجسست حول محاولاته الواضحة ، دبر خطة تسليم الحكم للعسكريين ، حتى يقضى نهائيا على كل محاولة ديموقراطية تعبىء الشعب ضد اتجاهاته ..

كان محددًا في هذا اليوم أن يجتمع البرلمان السوداني لاقرار الغاء المعونة الأمريكية ، واسقاط عبد الله خليل الذي اعتمد في رئاسته على حزب الأمة وتشكيل حكومة أكثر وطنية . وكانت الجماهير الثورية خارج البرلمان قد جمعت صفوفها ، واقتربت من حالة صدام مباشر مع الحكومة وخاصة بعد أن وصل النضال الى ذروته في الاضراب التاريخي الذي دعا اليه اتحاد النقابات وتم تنفيذه يوم ٢١ اكتوبر . وفجأة ..

تخلّى عبد الله خليل عن الحكم .. وتم تسليم السلطة بتشجيع من الدوائر الاستعمارية الى كبار ضباط الجيش !! نعم .. تسليم السلطة .. وأزيد الأمر تأكيداً لم تكن هناك ثورة .

ولم يكن هؤلاء الضباط ثواراً !! ورثوا الحكم بطريقة تقليدية ؛ وسمعت أنه كان مفروضاً أن يفصل معظمهم من الجيش .. اذ كان قد نفذ مشروع « السودنة » الذي أثير في فترة حكم الحزب الاتحادي ، لحماية الحركة الوطنية من عملاء الانجليز !!

كتب اللواء السابق أحمد عبد الوهاب يقول « لما كان يتمتع به عبد الله خليل من مكانة واحترام في قلوب أبنائه الضباط كان يعلم بالانقلاب ، وأن الوقت مناسب جدا فباركه ، وكل ما قاله ربنا يوفقكم » !!

وهكذا تم الحكم للديكتاتورية العسكرية .
وفي الأسبوع الأول أسفر الحكم الجديد عن وجهه الحقيقي ..
حل البرلمان ، والأحزاب وكل النقابات والجمعيات .. حتى مجالس
ادارة الاندية الرياضية . ١

صدر قانون دفاع السودان لعام ١٩٥٨ ولائحة دفاع السودان
أيضا ، الأول يتيح عقوبة الاعدام والسجن لكل من يعمل على تكوين
أحزاب أو يدعو لاضراب ، أو يعمل على اسقاط الحكومة أو يث
الكراهية ضدها ، والثانية تلغى كافة الحريات للمواطنين ..

ومن بعد ذلك لم يتخذ خطوة واحدة ثورية .
ويبدو أن فاقد الشيء لا يعطيه .
وبدأ حكم كبار الضباط يثير صغارهم من الأحرار والثوار ..

محاولات ثورية ضد الديكتاتورية العسكرية

بدأت عدة محاولات للقيام بانقلاب عسكرى ضد هذا الحكم الديكتاتورى .

الأول كان بعد أربعة شهور ونصف فى ٤ مارس ١٩٥٩ عندما قام الاميرالاي عبد الرحيم شنان والأميرالاي محبى الدين أحمد عبدالله والصاغ محمد ابو الذهب والبكباشى حسن ادريس بانقلاب لم ينجح وان كان قد أظهر أن الجيش يضم عناصر يمكن أن تتعاون مع الشعب فى كفاحه من أجل حريته .

طالب عبد الرحيم شنان بحل المجلس الأعلى الحاكم ، واطلاق سراح المسجونين السياسيين ، وعودة بعض الضباط المحالين الى الاستيداع ..

وتم الاتفاق معه على ادخاله عضوا فى المجلس الأعلى .. وابعاد أكثر عناصره رجعية وهو اللواء أحمد عبد الوهاب بينما تسلل الى المجلس اللواء المقبول أمين الحاج

وتعتبر حركة ٤ مارس تغييرا فى طبيعة مراكز السلطة ، ولكنها لم تحدث تغييرا فى طبيعة النظام الرسمى الديكتاتورى ، وذلك لأن الحركة الجماهيرية لم تكن متماسكة وتأثيرها داخل الجيش كان ضعيفا فكريا وتنظيميا .

ولكن حياة شنان فى المجلس الأعلى لم تطل .

قامت حركة تطهير في ٢٢ مايو ١٩٥٩ .. اعتقل بعدها الأميرالاي عبد الرحيم شنان والبكباشية حسن ادريس وعبد الحفيظ شنان وقدموا الى المحاكمة .

وفي دفاعه عن نفسه أمام المحكمة العسكرية رفع شنان الستار عن مؤامرة عسكرية أمريكية .

قال إنه دبر الانقلاب لأنه في أثناء قيادته لمنطقة شمال السودان ، التقى مع خبراء أمريكيين كانوا يدرسون فكرة اقامة قاعدة أمريكية عسكرية في منطقة حلايب ، شمال السودان وقريبا من حدود مصر الجنوبية ..

وأغلقت أبواب السجن على شنان .. وأسدت الستار على فكرة اقامة القاعدة الأمريكية في حلايب .

وكشف عبد الرحيم شنان أيضا عملية تسليم الحكم لعبود بقوله :
« لقد قال عبد الله خليل لى اننى عندما سلمت الحكم للرئيس عبود كنت مطمئنا اليه » .

واتخذ الدفاع وجهة سياسية فقال البكباشي عبد الحفيظ شنان في دفاعه أمام المجلس العسكري العالي :

لقد قامت حركة ١٧ نوفمبر وقال قائدها إن الذي قامت من أجله هو القضاء على الفساد والمحسوبية والارتشاء وتبصير الشعب بمصالحه الحقيقية .. فماذا فعلت حركة ١٧ نوفمبر .. ؟

١ - كمت الأفواه واسكتت الشعب وأغلقت الصحف وعطلت النقابات .

٢ - حاكت زعماء العمال بتهم لم يعرفها الشعب وبطريقة مريبة

٣ - كوت لجنة للنظر في قوانين العمال لم نسمع بها
ولا بمجهوداتها الا يوم أعلن نبأ تشكيلها .

٤ - وصفت العلاقة بين الجمهورية العربية المتحدة والسودان
بأنها جفوة مفتعلة خلقها الساسة المديون ، ولم تزدها الا جفوة
وافتعالا ..

٥ - لم تحاكم أى مرتش أو مستغل لنفوذه ! أو مشر على حساب
الشعب أو مفسد للحكم

٦ - قال الرئيس ان الثورة لا تحقد على أحد ولذلك عفا الله
عما سلف ونقول إن من حق أى شخص أن يعفو عما له من ديون
على الغير ولكن حق الشعب لا يعفيه إلا الشعب .

٧ - اعتقلت المواطنين بالجملة وهى تعلم أنها لا تستطيع محاكمتهم
لأنه لا يسندها قانون يحاكمهم وليست هناك جريمة يحاكمون عليها
٨ - انها بدلا من محاكمة المرتشين واللصوص صارت تحيلهم
على المعاش وتزيدهم من مال الشعب الذى نهبوه .

٩ - انها لم تتخلص من أعوان الاستعمار فى الخدمة المدنية وهى
تعلم أنها سبب كل بلاء وفساد اصاب البلاد منذ نيل الاستقلال .

١٠ - انها لا تعلم أن المبادئ لا تحارب الا بالمبادئ وأشياء
أخرى أكثر وأعظم ..

هذا الاتجاه السياسى المعبر عن وجود قوة سياسية ثورية داخل
الجيش انتهى الى محاكمة عشرات من الضباط ، وصلت فيها
الأحكام الى ١٤٠ عاما على عشرة ضباط .. المؤبد على الأميرالين
عبد الرحيم شنان ومحيى الدين عبد الله والبكباشية حسن ادريس

وعبد الحفيظ شنان ومحمد على السيد والصاغ أحمد أبو الذهب والسجن ١٥ عاما على اليوزباشى محجوب بابكر سوار ذهب وطرد ١٧ ضابطا منهم اللواء أحمد عبد الله حامد والقائمقام على صالح سوار الذهب .

ومع ذلك فقد أسدلت هذه المأساة الستار على فكرة اقامة القاعدة العسكرية الأمريكية في حلايب شمال السودان قريبا من حدود مصر الجنوبية ..

بدأت الحركة الشعبية في النهوض بقيادة العناصر الثورية النقابية والحزب الشيوعى . فقد وقعت اضرابات في صفوف العمال بالعاصمة وبين الطلاب في المعاهد العليا والثانوية . ولكن تلك الحركة لم تكن شاملة ولم تصل الى المستوى الذى تحمى فيه العمل المسلح وتمنحه التأييد الشعبى الكافى .

وفى ٦ نوفمبر ١٩٥٩ تجمع عدد من الضباط الثائرين على الاستبداد .. وارتبط بهم بعض الضباط التقدميين ، ولكن انقلابهم لم يتحقق رغم نجاح خطواته الأولى .. وأعدم خمسة من شباب الضباط منهم الطيار الصادق محمد حسن ، والبكباشى يعقوب كبيدة ، والبكباشى على حامد والصاغ عبد البديع على كرار واليوزباشى عبد الحميد عبد الماجد .

وأعدم الضباط شنقا رغم مخالفة ذلك لتقاليد الجيش خوفا من عصيان الجنود لتنفيذ الأوامر .

وحكم بالسجن المؤبد على الصاغ عبدالرحمن كبيدة والملازم ثان محمد محجوب عثمان وطرد عدد من ضباط القوات المسلحة

قبضة العنف

ومن بعد هذه المحاولات بدأ ضباط الحكم العسكري يحمون أنفسهم عن طريق التجسس والسجن والاعتقال والتشريد ، وأخذوا ينزلون عن الشعب ، ويعزلون السودان أيضا عزلة كاملة .

كانت السجون والمعتقلات لاتخلو من الأحرار

وتحمل الشيوعيون العبء الأكبر من جرائم ارهاب حكم عبود وحكم بالسجن على الشفيح أحمد الشيخ سكرتير اتحاد نقابات عمال السودان والعضو البارز في قيادة الحزب الشيوعي .

واعقل ٢٥ من الشيوعيين في يونيو ١٩٥٩ ونقلوا الى معتقل « ناجيشوط » وهو جبل ارتفاعه أكثر من ٦٥٠٠ قدم وجوه رطب جدا .. وكان من بين المعتقلين أحمد سليمان المحامي ، والدكتور عزالدين على عامر ، وجوزيف جرنج وزير الجنوب الحالي في وزارة ثورة ١٤ مايو ، ولم ينزلوا من الجبل الا بعد اضرابهم عن الطعام في أكتوبر ١٩٥٩

ووصلت الحملة ضد الحزب الشيوعي الى ذروتها في الفترة بين منتصف ١٩٥٩ ومنتصف ديسمبر عام ١٩٦٠ ، حيث كان كل أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي .. عدا اثنين داخل السجون والمعتقلات ، وتمت عمليات تفتيش جماعي لمدن وأحياء بأكملها في ليلة واحدة كما حدث في عطبرة وأم درمان ، في محاولة من

١٠٣

الحكم العسكري لتصفية الحزب الشيوعي تصفية كاملة .
ومع ذلك كانت القوى الوطنية تتجمع وأرسل السياسيون.
مذكرات يطلبون فيها إعادة الحياة الديمقراطية .. ولكن بلا جواب ..
وحدثت أن اشتد التعذيب على مواطن يسمى حسنين حسنى ..
وقدمت من أجل ذلك مذكرة احتجاج ، وقع عليها عدد من رجال
الأحزاب ..

ولم يطق المجلس الأعلى صبرا .. اعتقل في يوليو ١٩٦١ مئات
من المشتغلين بالسياسة من مختلف الاتجاهات .. عبد الله خليل
رئيس الحكومة التي أورثتهم الحكم .. إلى عبد الخالق محجوب
سكرتير الحزب الشيوعي السوداني .. وكان ضمن المعتقلين اسماعيل
الأزهري ومبارك زروق ومحمد أحمد محجوب وأحمد سليمان .

وظل هؤلاء المعتقلون سبعة شهور في جوبا .
وكان من أثر هذه الاعتقالات أن أوقفت الأحزاب التي تولت
الحكم كل نشاط يعارض الحكومة .
آثر رجال الأحزاب التقليدية السكينة
وبدأ النشاط السياسي يتخذ طابعا جديدا .. اتجه إلى التجمعات
الشعبية والهيئات والنقابات العمالية والمهنية .
كانت الحكومة قد وضعت لها قوانين رجعية شديدة القسوة ..
ورغم ذلك كان ينفور فيها نشاط العناصر الحرة الثورية ..
وبينما أخذت الأحزاب التقليدية تتوكل وتتكاسل وينخر اليأس
قلوب أعضائها نشط الحزب الشيوعي والهيئات والشخصيات

١٠٤

الانقدمية ، وبرزت عناصر جديدة ترفض قبول
الارهابي ..
وارتفع شعار « الاضراب السياسى العام » كسا

الرجل المريض فى افريقيا .. وقتلة لومومبا

وكان حكم كبار الضباط يقدم كل يوم دليلا جديدا للشعب ،
على أنه يمضى فى ركب الاستعمار .. وانه يحول ربيع الحياة
السودانية الى خريف يذبل فيه كل شىء ..

ومظاهر ذلك واضحة لاتحتاج الى تفسير طويل ..
السودان ليس عضوا فى مؤتمر التضامن الآسيوى الافريقى
وليس هناك من يمثله فى سكرتارية المؤتمر بالقاهرة !!
السودان ليس عضوا فى اتحادالعمال العرب .. رغم أنه يتميز
بنشاط نقابى عريق والحكومة ترفض تكوين اتحاد للعمال وترفض
أى ارتباط بالعرب .
السودان يدير ظهره للمؤتمرات العربية ويكاد لايشترك فيها الا
بقدر ضئيل .

لثمت حكومة اللواءات وجه السودان العربى .
طلعت فريد أحد وزراء عبود يقول فى مؤتمر صحفى عقد فى
فبراير ١٩٥٩ « لا معنى لأن تهاجم صحافتنا فرنسا .. فكما تقتل
فرنسا الجزائريين فان الجزائريين يقتلون الفرنسيين .. ولذا فان
وفود الحكومة الجزائرية زارت كل الدول العربية عدا السودان عبود
القوى الشعبية فى السودان ترى فى ثورة ٢٣ يوليو انتصارا
لها .. لأنها تبنت شعار حق تقرير المصير كما جاء فى اتفاقية ١٩٥٣ ..

وهى سطلع الى احطوات التى تتخذها لمصلحة الشعب العربى ..
ولكن حكومة السودان كانت تقيم أسوارا عالية تمنع تدفق العلاقات
بين الشعبين .. وكانت تعيش بعقلية حكام مصر قبل الثورة ،
وتعتبر كلمة الاشتراكية جريمة لا يحق لسودانى أن يرددها أو
ينحدث عنها .

ومنعت حكومة عبود الطائرات العربية من النزول فى بورسودان
لمساعدة الجمهورية اليمنية بينما فتحت الميناء للأسطول البريطانى !
بينما أغلقت حكومة السودان أبوابها أمام العلاقات الحية
المتجددة مع الشعوب والدول الافريقية المتحررة ، فتحت أبوابها
لرؤوس الأموال الأجنبية ، وامتلأت الوزارات بالمستشارين
والخبراء الألمان والأمريكان .. وأخذ الاستعمار الجديد يثبت
أقدامه عاما بعد آخر .

ولذا لم يكن غريبا أن يشتهر السودان بين الشعوب الأفريقية
باسم « الرجل المريض فى أفريقيا » كما قال سيكوتورى زعيم
غينيا ..

ومن المظاهر التى أثارت شعب السودان موقف حكومته من
المساعدات التى أرادت الجمهورية العربية المتحدة وغيرها من الدول
مثل الاتحاد السوفييتى أن ترسلها الى قوات لومومبا فى الكونغو .
رفضت حكومة السودان السماح لها بعبور أراضيها !! ورفضت
أن تمد قواته بالأغذية .

واتهم الشعب السودانى حكومته بأنها أسهمت فى قتل لومومبا
وخنق الحرية فى الكونغو .

١٠٧

كانوا يطلقون على أعضاء المجلس الأعلى اسم قتلة لومومبا .
هذا في الوقت الذي كانت تسمح فيه حكومة السودان لبريطانيا
بنقل الأسلحة والطائرات الى الجنوب العربى ، فوق أرض السودان !
لماذا يسمى الشعب السودانى أعضاء المجلس الأعلى للقوات
المسلحة باسم قتلة لومومبا ؟

الواقع أن حكومة السودان قد اتخذت موقفا غريبا من حوادث
الكونغو ، استجابت فيه تماما لرغبات الولايات المتحدة الأمريكية .
نشرت صحيفة الوشنطن بوست الأمريكية في ٦ أكتوبر ١٩٦٠ ..
« ولا يفوتنا أن نذكر أن السودان قد ساند الأمم المتحدة بكل
قوة في موضوع الكونغو ، ورفض السماح بحق الطيران فوق
سمائه أو الهبوط في أرضه لشحنات الامدادات السوفييتية
ليوبولد فيل ، وبحكم جبرته للرئيس عبد الناصر ، فقد عرف كيف
يصد بفعالية الضغط الصادر عن القاهرة .. ولاشك أن هذه البلاد
ربما تنظر في أمر تقديم الكثير لمساعدة السودان في سبيل تدعيم
دوره الاستقلالى في قارة أفريقيا .. »

هكذا بكل وضوح وصراحة ، تظهر الجريدة الأمريكية ان رجال
المجلس الأعلى للقوات المسلحة ، قد اتخذوا موقفا معاديا لمساندة
لومومبا ، وجيزنجا من بعده ..

وترسل حكومة السودان السابقة تأكيدا لذلك في شكل مذكرة
الى السفارة البلجيكية في الخرطوم يقول فيها أحمد خير ، « ان
حكومة السودان لاتقر الفوضى وعدم احترام القانون ، وستعمل
على اعادة الأمور الى نصابها وهى لاتضمن أى عدااء للحكومة

البلجيكية ١١ « ..

ليس هذا فقط بل ان اللواء حسن بشير أدلى بتصريح في لندن يشكو فيه حكومة الجمهورية العربية المتحدة لأنها تضغط على السودان ليسمح لها بإرسال المساعدات ١١ ..

ويكمل ميتن ويليمز وكيل الخارجية الأمريكية لشئون افريقيا صورة الأحداث عندما صرح في مطار الخرطوم يوم ١٧ فبراير سنة ١٩٦١ بقوله « ان حكومة السودان قد بذلت جهدا شاقا لتحول دون عبور الأسلحة الى الكونغو » .

ولذا فانه عندما وردت الأنباء بمصرع لومومبا ، هب شعب السودان في مظاهرات جارفة يعلن غضبه على أعضاء الحكومة والمجلس الأعلى للقوات المسلحة ، واصفا اياهم بأنهم « قتلة لومومبا » ..

ومن خلال هذه المظاهرات ، تمت حركة اعتقالات واسعة ، واستمرت حكومة السودان في سياستها المتهاونة .
وقفة قصيرة ..

الموقف الذي اتخذته حكومة المجلس الأعلى للقوات المسلحة كان يمكن أن يكون مفهوما لو أنه اتسم بالحييدة الكاملة ..
ولكن ..

صدر بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٦١ أمر رقم ٩٤ بتوقيع قائد مطار الخرطوم يحذر فيه من الادلاء بأية معلومات عن الطائرات ، خصوصا « غير التجارية » التي تهبط بمطار الخرطوم ١١
لماذا صدر هذا الأمر ؟

١٠٩

لأن الطائرات الحربية الأمريكية كانت تتدفق على مطار الخرطوم ..
وتمكن بعض المواطنين من تسجيل عدد هذه الطائرات ووجهاتها ..
في ثلاثة أيام تبدأ يوم ٢٤ مارس ١٩٦١ هبطت ٢٥ طائرة حربية
أمريكية محملة بالعتاد الحربى !!
وخلال أسبوعين بلغت هذه الطائرات ٨٩ طائرة .
وهي تتحرك بين القواعد العسكرية الأمريكية في الشرق
الأوسط !! ..

الانهيار الاقتصادي

فتح الحكم الديكتاتوري العسكري ذراعيه لرءوس الأموال الأمريكية
الأموال لم تخلق صناعة سودانية ، ولم تسهم في بناء مجتمع
الاكتفاء الذاتي الذي لا يعتمد على المعونة ..

المصانع التي أنشئت كانت للكماليات مثل البيرة والروائح
والحلويات .. ومعظمها يعتمد على خامات مستوردة 11 ..

وأموال المعونة التي بلغت في ثلاثة أعوام مبلغ ٤٤٤٠٠٠٠٠٠
دولار فقط « ١٥٥ مليون جنيه إنجليزي » .. صرف منها ٣
ملايين جنيه للمليونير أمريكى لإنشاء «مصنع سيج في الخرطوم بحرى»
والبعض يصرف على استيراد البضائع الأمريكية مثل الغسالات
والثلاجات وأجهزة الراديو والتلفزيون .. والبعض لمحاولة إنشاء الطرق
وأخضعت الحكومة كافة قطاعات الاقتصاد السودانى لسيطرة
الاستعمار الحديث بقيادة أمريكا .. كانت المعونة الأمريكية هي التي
تخطط والبنك الدولى يشرف والدول الاستعمارية تقدم قروضا
مشروطة عالية الفوائد « بين ٥٪ ، ٧٪ » .. أما القروض من الدول
الاشتراكية التي لا تتجاوز فوائدها ٣٥٪ فلم تتجاوز ١٠٪ ..
وشركات الاحتكار الأجنبية فرضت سيطرتها ..

شركة كاليفورنيا اكسبلوريشن أخذت حق التنقيب عن البترول
في شواطئ البحر الأحمر والاحتكارات الأمريكية تبنت البنك
الصناعى ووضعت تحت اشرافها وهو البنك الذى يمول مختلف

١١١

الصناعات .. وأسهمت فى بناء خزان الروصيرص بسبلغ ١٨ مليون جنيه .. ومصنع النسيج الأمريكى - ٣٠ مليون دولار - وحق استخراج النحاس والمعادن الأخرى .

وألمانيا الغربية أسهمت فى خزان الروصيرص ومحطة أبحاث الحديدية للزراعة .. ومصنع السكر بالحنيد « ٤٦ مليون مارك » واحتكارات كروب أخذت حق استخراج الحديد ومعادن أخرى .. وكهربة خزان سنار ١٤٥ مليون مارك واعتمادات استيراد بمبلغ ٢٥ مليوناً ..

أما إيطاليا فقد حصلت شركة « اجيب » على حق البحث عن البترول .. وامتياز النحاس فى الغرب .. والمساهمة فى خزان « خشم القربة » ٢٥ مليون ..

وانجلترا أخذت حق عمل مصفاة لتصفية البترول على البحر الأحمر ومع القروض والمشروعات يتوافد الخبراء الذين تعطيهم الدولة باليسار ماتأخذهم من معونة باليمن .. بعض الخبراء الأمريكيين يتقاضى ٢٤٠٠٠ جنيه فى السنة ! وأخيراً ..

تكونت لجنة دولية للإشراف على رؤوس الأموال الأجنبية الاستعمارية فى السودان تحت إشراف البنك الدولى .. وتكونت هذه اللجنة بعد موافقة أمريكا وألمانيا الغربية وانجلترا وإيطاليا على خطة التنفيذ لعشر سنوات قادمة !!

وهكذا كانت تنسج حكومة السودان سياستها مع سياسة الاستعمار الجديد الذى يتخفى فى ثوب اقتصادى ..

ثم سؤال ..

اين راس المال الوطنى ؟

انه يلعب دور التابع .. فهو لايملك صناعات يزيد رأسمالها عن ١٠٠ ألف جنيه مطلقا الا عددا محدودا جدا ١ .. وهو اذا ساهم فى صناعات كبيرة ، ظهر بنسبة محدودة ١١

وارتبط الانهيار الاقتصادى .. بفساد شديد

ولم يكن ممكنا أن تتم السرقات فى السودان خلف ستار ١١
فالخرطوم يكاد أهلها يعرفون بعضهم بالاسم ، فهم لايزيدون عن ٣٠٠ ألف وعندما أدخل حسن بشير نائب القائد الأعلى السابق للقوات المسلحة المياه والنور والمجارى الى قريته حلفاية الملوك البقرية من الخرطوم لم يخف الأمر على أحد ١١

وعندما اشترك أحمد خير وزير المالية مع المليونير الأمريكى صاحب مصانع النسيج ، كان هذا الأمر حديث المجالس ..
ومحمد أحمد عروة شريك مقاول خزان خشم القرية .. ومساهم فى صناعة الروائع ..

ومحمد المقبول الأمين ترك رائحة تزكم الأنوف من الانحلال والفجور والشذوذ .. والعشور على شاب صغير غريقا فى النيل أمر يعرفه الجميع وامتداد مدينة الخرطوم .. قصور وفيلات بمختلف الأشكال والألوان .. وقصتها تستحق الرواية السكن فى الخرطوم مرتفع الأسعار جدا .. المسكن العادى يصل الى ٥٠ جنيها أو تزيد بلا فرش ولا أثاث .

وعندما زاد عدد أفراد السلك الديبلوماسى فى الخرطوم ، وتدفق

عليها الخبراء، ارتفعت ايجارات بعض الدور والفيلات الى ٣٠٠ جنيه تقريباً .. وأصاب الجشع كثيرين من رجال الحكم بالجنون .. اندفعوا يبنون الفيلات والقصور ليحصلوا على الايجارات العالية المغربية .. ولم يكن معهم ما يكفى من النقود وامتدت الأيدي الى خزانة الدولة .. وأصبح طبيعياً أن يسرق الموظف ويرتشى لأنه يبنى « فيلا » !! وإذا كان شريفاً يستدين ! ..

واندفع الجميع الى البناء .. ماذا كانت النتيجة ؟ مدينة كبيرة جميلة تكلفت الملايين .. معظم منازلها ينق في البوم .. وليس فيها سوق وأسعار الدور كلها هبطت لزيادة العرض على الطلب .. ملايين الجنيهات تحولت الى طوب صامت كالقبور .. ! ليس هذا فقط ..

بل ان الدولة خصصت ٢٥ مليون جنيه لبناء منازل حكومية في خطة العشر سنوات ..

ومن هذه الصورة التي تبين تسرب الأموال من خلال الأصابع المفتوحة يمكن أن يعكس الشعور بضعف القبضة على الاقتصاد القومى .. والاتجاه الى تبديد الأموال في مشروعات غير إنتاجية .. ومثل آخر ..

في كثير من بلاد العالم تنبت الاشتراكية ، وتقوم الدولة بعض المرافق لصالح الشعب ..

ولكن في السودان .. حدث شيء مثير ..
الأوتوبيسات التي كانت تابعة للحكومة .. تحولت الى شركات تتبع القطاع الخاص !!

نعم ... هذه حقيقة ..

لم يكن ممكنا أن تمضى الأمور طويلا في هذا الطريق ..
ومع هذا كان يندفع فيه أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة ،
وكان على عيونهم غطاء !

وقفة قصيرة عند ميزانية بعض الوزارات عام ١٩٦٣/١٩٦٤ .
زادت ميزانية وزارة الاستعلامات ٣٠٠ ٪ حيث كانت ٤٢٢ ألف
عام ١٩٥٩ وأصبحت ١٨٨٨٠٠٠ جنيه ... الاذاعة السودانية
لا تسمع بوضوح في غرب السودان !!

زادت ميزانية وزارة الاستعلامات ٣٠٠ ٪ حيث كانت ٤٢٢ ألفا
٣٦٧٠٠٠٠ جنيه والزيادة طبعاً كانت من أجل تقوية أجهزة
التجسس والتنكيل .

هذا بينما ميزانية وزارة الصحة لم تزد الا زيادة ضئيلة من
٣١٥٣٠٠٠ جنيه عام ١٩٥٩ الى ٣٨٨١٠٠٠ جنيه هذا العام ..!
وميزانية الجامعة زادت في ٦ سنوات بنسبة ١٣٥ ٪ ..

ومن مظاهر الأزمة المالية أيضا .. ارتفاع الضرائب غير المباشرة
خلال السنوات الخمس الماضية بنسبة تتراوح بين ٥٠ و ٦٣ ٪ ..
وارتفعت الأسعار ارتفاعا جنونيا ، جعلها مصدر شكوى لا ينقطع
وبلغ عدد العاطلين المسجل في مكاتب الخرطوم ٦٠ ألفا في مدينة
لا يزيد سكانها عن ثلث مليون !

ومثل غريب .. استوردت الحكومة السودانية في النصف الأول
من ميزانية عام ٦٠/٦١ سيارات وقطع غيار بمبلغ ٢٥ مليون جنيه
هذا المبلغ أكثر من نصف رأس المال الموظف في الصناعة خلال ٥٩/٦٠

الحريات الديمقراطية

ونكسة الحريات الديمقراطية كانت عاملا من أهم عوامل
انقضاء ثورة ٢١ أكتوبر ..

بعد أسبوع من تسلّم العسكريين للحكم من عبد الله خليل صدر
قانون دفاع السودان ولائحة دفاع السودان لعام ١٩٥٨ ..
أعطى البوليس هذه السلطات .. حق رقابة البريد والجرائد
والمنشورات والكتب ومنعها من الظهور !!

حق فرض حظر التجول في أى منطقة .. وحق منع المواطنين
من السفر !!

حق ارغام المواطنين على تقديم المعلومات التى يطلبها البوليس ..
أو التعرض للسجن !!

حق تفتيش أى منزل ، أو بناء ، أو مركب ، أو عربة ، فى أى
وقت من الليل أو النهار !!

حق القبض والاعتقال دون ضرورة التقديم للمحكمة !!
حق تحويل القضايا من المحاكم المدنية الى المحاكم العسكرية فى
أى مرحلة !!

حق منع الأشخاص من الإقامة فى مناطق معينة أو الدخول إليها !!
وبدأ وزير الداخلية .. ومن خلفه جهاز الحكم يمارس العمل فى
ظل هذا القانون الغريب الذى يلغى حرية الانسان كاملا ..

مثل واحد صغير، فى عطبرة وفى عام واحد تم تفتيش ٣٠٠٠ منزل! وفتحت المعتقلات لمئات المناضلين .. وصدورت الصحف الآتية نهائيا : الميدان .. والطليعة .. والنيل وعطل عدد كبير من الصحف لقررات معينة منها الصحيفة النسائية «صوت المرأة» وهى مجلة شهرية للنساء ، تم تعطيلها مع مطلع هذا العام ..

واختفت من الصحف تماما كل الانباء التى تدور عن الأزمة الاقتصادية ، أو سياسة الحكومة الخاطئة فى الجنوب ، أو نشر أخبار فساد أجهزة الدولة ، أو سيطرة الاحتكارات .. وكان أعظم ما تقرأه فى الصحف السودانية هو أخبار الرياضة ، وخاصة كرة القدم !!

وبعد ذلك لن تقرأ شيئا واحدا نافعا .. ولن تقع عينك على كلمة نقد والقضاء أصبح فى محنة ..

وأصبحت معظم القضايا تنظر فعلا أمام المحاكم العسكرية !! قضت هذه المحاكم على قادة حركات مارس ومايو ونوفمبر ١٩٥٩ بأحكام مددها تزيد على ٢٠٠ سنة !! والأحكام التى صدرت على ٩ من قادة الجيش الوطنيين بلغت ١٨٠ عاما ..

وكثيرا ما شهدت هذه المحاكم كلمات نارية من بعض المحامين ، ينسحبون بعدها من مهزلة المحاكم .. وكان المتهمون غالبا يرفضون رجاء الرحمة الذى يتقدم به المحامون الذين لا يملكون من أمرهم شيئا وكلمة عن بعض القضاة ..

المحامون السودانيون اجتمعوا فى شكل جمعية عامة وأصدروا

قرارا جماعيا رفعوه الى رئاسة مجلس الوزراء مطالبين بعزل كبير القضاة المسمى « محمد أحمد أبو رنات » وقاض آخر يسمى « مجذوب على حسيب » وذلك — كما ورد في نشرتهم — بما أن القضاة المذكورين قد وقفوا موقفا عدائيا لثورة الشعب ، وتعاونوا مع النظام العسكرى المعادى ، بل وفلسفوا وجوده وقانونيته .. وحطموا سيادة القانون ، وأطاحوا باستقلال القضاء .. وبما أن ثورة الشعب ، وثورة ٢١ أكتوبر ، وقد دمغتهم بالخيانة ، بل وطالبت براء وسهم مما يجعل بقاءهم في هذا الجهاز ضد الارادة الشعبية مستحيلا فرق بين موقف القاضى العظيم والرجل الفاضل بابكر عوض الله الذى قاد مع زميله عبد المجيد امام ثورة الشعب في اطار الجبهة .. وتعرضا في لحظة الى محاكمة جزاؤها الاعدام .. فرق واسع بين بابكر وعبد المجيد وبين أبو رنات والمجذوب !!

لم ألتق برجل في السودان الا وهو يتحدث عن فساد رجال الحكومة السابقة ..

- ♦ الرشوة هي القاعدة .. والسرقه هي ثمرة الحكم ..
 - ♦ كل وزير له شركاء من المقاولين ..
 - ♦ المشاريع الكبيرة تتم في ارتجال شديد
- أمثلة محدودة أقدمها :
- ♦ خزان خشم القرية « حلفا الجديدة » قدر له أن يتكلف ٨ ملايين جنيه .. ارتفعت التكاليف الى ١٨ مليون جنيه !!
 - ♦ ليس هذا فقط ولكن بناء الخزان نفسه لم يحقق ارتفاعا في الانتاج ولا أضاف فائدة .. ملموسة ..

• خزان الروصيرص بدأ العمل فيه عام ١٩٦١
تكلف حتى الآن ٦٥ مليون جنيه ، والمفروض أن يروى ١٠ مليون
فدان . في أرض كنانة . ولكن الأرض نفسها ليست معدة للزراعة !!
• الحكومة تعطي الشركة مكافأة لأنها حجزت المياه .. رغم انها
بحيرة ، لا تتسرب مياهها في أرض زراعية !

الارتجال هو القاعدة السائدة .. لا دراسة ولا تخطيط ..
وكل وزير حول اسمه سهرات المجالس في الخرطوم الآن ..
وتتابع القصص والروايات .. وهى في الأغلب صادقة ، لأن الخرطوم
مدينة لا يخفى فيها شيء . لا يمكن أن يتم الفساد في الظلام ..
ويستحيل أن تخفى الحقيقة ..
والخرطوم مدينة ذات طابع خاص .

سهرات الليل تضم أصدقاء تختلف ميولهم السياسية اختلافا
حادا .. يضحكون ويمرحون .. ثم يتبادلون الهجمات في صحف الصباح!
وفي هذا الجو ترتفع الستار عن كل شيء .. وتصبح المعلومات
مشاعا للجميع .

ومن أجل هذا فرض الوزراء المعزولون حول أنفسهم عزلة
مصطنعة .. أقاموا بينهم وبين الناس حجابا لم يعتدها أبناء السودان
.. أصبحت مقابلة الوزراء أمرا عسيرا .. حاولوا إخفاء أبناء الرشوة
والفساد عن طريق اشاعة التجسس ، و فرق الارهاب .

شرارة الثورة

كل هذه العوامل ..

- ♦ اخفاء وجه السودان العربى ..
 - ♦ موقف الابتعاد عن الجمهورية العربية المتحدة وانتصاراتها .
 - ♦ القضاء على الحريات الديمقراطية .
 - ♦ الابتعاد عن النشاط الآسيوى الأفريقى .
 - ♦ فتح الأبواب للاستعمار الجديد ومعاداة الأفكار الاشتراكية .
 - ♦ الفساد والرشوة والانحلال الداخلى للحكومة ..
- كل هذا أثر فى وعى الشعب .. ويوما بعد يوم كان يزداد الغليان .. ويتحدث الناس عن فرصة الخلاص .
- وفى هدوء واصرار .. بعيدا عن الأحزاب التقليدية التى خفتت أصواتها كثيرا بعد خروج زعمائها من المعتقل .. بدأ الشعب يتجمع فى هيئاته وتقاباته وحدثت بعض اضطرابات اقتصادية .

صحيح أنها لم تنجح ..

ولكنها كانت بمثابة « البروفات » .. فى صيف ١٩٦٣ أضرب المزارعون فى مشروع شمال الجزيرة .

وفى بداية عام ١٩٦٤ تمت الانتخابات بين المزارعين على الأسس الرجعية التى وضعتها الحكومة .

وكانت النتيجة نجاح ١٥٤ عضوا كلهم ليسوا من أتباع الحكومة!

ثم حدث شيء مثير ..
وافقت الحكومة في صيف ذلك العام على مبدأ تكوين اتحاد
لنقابات العمال ..

وفي هذه الفترة شددت الحكومة قبضتها وضاعفت من رقابتها ..
ولكن ٥٥ نقابة من ٦٣ قررت انتخاب الشفيع أحمد الشيخ
سكرتير عام اتحاد النقابات المساعد ، الذي أرسلته الحكومة الى
السجن لمدة خمس سنوات !
وفجأة ..

وفي يوم ١٢ أغسطس .. قررت الحكومة منع عقد المؤتمر الذي
كان مقررا أن ينعقد بعد ثلاثة أيام !!
هذا بعد أن حضر العمال المدعوون من مختلف الدول .. وكان
منهم ممثلون لاتحاد نقابات العمال العرب .. واتحاد عمال الجمهورية
العربية المتحدة !!

ولم تكتف الحكومة بذلك ..
شنت حملة اعتقالات واسعة ضمت المئات من النقابيين
والديموقراطيين الاشتراكيين ..

ويبدو أن صبر الجماهير السودانية كان قد نفذ ..
فقرروا ضرورة التفكير في عمل ايجابي ..
عندما تدفقت الجماهير الى الشوارع أصبح واضحا أن الثورة
قد بدأت ..

الأحداث تلاحقت في سرعة مذهلة .. عواطف الناس وصلت درجة
الغليان .. القاضيان بابكر عوض الله وعبد المجيد امام يتحولان الى

قائدين من قواد الثورة ..

عابدين اسماعيل نقيب المحامين يعلن للجماهير تكوين الجبهة القومية الموحدة ... وعلان الاضراب السياسى العام .

وهنا يرتفع زئير الجماهير .. ويتحول الشعب الى عملاق بطل .. اللواء حسن البشير يحاول أن يتشبث بالسلطان .. يقرر تشكيل محاكم عسكرية لمحاكمة أعضاء الجبهة التى أصبحت منبرا يلتف حوله الشعب .. ويعلن انه سيحاكم المتظاهرين بالمادة ٤ من قانون الدفاع التى تنص على الحكم بالاعدام ! ..

ولكن اللواء البشير لم يكن يحسن التقدير كعاداته ..

انتهت الثورة فى كل أنحاء السودان ..

.. وتحطم القرار قبل أن يصدر ..

وصلت الأنباء ظهر يوم ٢٦ أكتوبر بأن المزارعين فى الجزيرة قد رفعوا أيديهم عن الزراعة ، وأنهم يتحركون الى العاصمة ..

فى مدينة الدويم ، أطلقت الجماهير سراح المسجونين .. وكان فى السجن الأميرالاي عبد الرحيم شنان .. الذى قاد انقلاب مارس ١٩٥٩ ، ودخل السجن فى مايو ١٩٥٩ بعد أن اشترك شهورا فى المجلس الأعلى .. ولكن الأميرالاي شنان لم يخرج من السجن .. كان مترددا .. وبقي خلف القضبان .. ينتظر قرار الافراج عنه من أعضاء الحكم الجديد ..

وفى مدينة مدنى سلم الحاكم العسكرى السلطة الى القضاة

المدنيين ، وفى عطبرة انسحبت قوات الجيش الى الشكنات ..

وفى بور سودان ، أمضت الجماهير ليلتها يقظى فى الشوارع ..

وتحول السودان كله الى ساحة ثورية .. وفي غمرة هذه الأحداث تحولت قوة من الاخوان المسلمين وتسربت الى السفارة المصرية حيث حاولت حرقها بدعوى الاحتجاج على مقالات ظهرت في بعض الصحف المصرية .

ولكن الرئيس جمال عبد الناصر فوت هذه المؤامرة الاستعمارية قائلا : «ان ذلك لا ولن يؤثر على تأييد ثورة مصر لثورة السودان»

الجيش مع الشعب

ويخطئ من يظن أن ثورة ٢١ أكتوبر قامت ضد جيش السودان ..

ويخطئ من يظن أن قوات الجيش تعادى ثورة الشعب ..
الحقيقة ان القوات المسلحة أسهمت الى حد كبير في نجاح الثورة ،
عندما تحركت أجزاء من مشاة حامية أم درمان الى الخرطوم وكان
في مقدمتها جعفر نميرى وفاروق عثمان حمد الله وعدد من الضباط
الأحرار ، بعد محاولة اللواء حسن البشير انتزاع السلطة والانفراد
بها وحده ..

حاصرت هذه القوات القصر الجمهورى عصر يوم ٢٦ أكتوبر ..
وقدمت مطالبها التى وقع عليها حوالى ١٦٠ ضابطا والشعب يحيط بها
كانت هذه المطالب هى :

- ♦ حل المجلس الأعلى للقوات المسلحة ..
- ♦ حل مجلس الوزراء .
- ♦ وقف المجازر .
- ♦ تطهير الجيش من عناصر الفساد .

وكانت نتيجة ذلك بيان الفريق ابراهيم عبود الذى أذيع فى
التاسعة والنصف ليلا وبعد اذاعة البيان عادت قوات الجيش الى
تكناتها ، لتمارس عملها الحقيقى كقوات مسلحة فقط لحماية الوطن

وليس لكبت جماهير الشعب ..

أيا ما كانت الظروف .. فإن لجنة من القوات المسلحة من مختلف الرتب قامت باتصالات دائمة مع أعضاء الجبهة الموحدة لحل كل المشاكل وتصفية الخلافات وتنفيذ تطالبات المسلحة في حدود ما تقضى به المصلحة الوطنية .

الدليل على أن هذه اللجنة التي تمثل الجيش ، لا تهاجم فرقة بين الجيش والشعب .. انها قاومت فكرة تعيين ضابط للدفاع !!

ولم تكذب تمضي عدة أيام حتى فوجئت الجماهير باعتقال الضباط الوطنيين منهم جعفر نميرى وفاروق عثمان - وهنا بادر فاروق أبو عيسى المحامى، وسكرتير الجبهة الوطنية بالذهاب الى محطة اذاعة أم درمان وأعلن أن الثورة وهنا تدفقت الجموع الى الشوارع في ليلة حافلة يدها ويهتفون لحماية الثورة ، حتى اضطرت السلطات الرجعية الى الافراج عن الضباط المعتقلين .

ويذكر أن اذاعة القاهرة كانت هي الاذاعة الوحيدة ما تذيعه أم درمان وهي تطالب الشعب بالخروج الى الشوارع والوزراء ومبنى الاذاعة حتى استقر الأمر وعاد الى العمل ويمكن القول في ثقة أن نجاح ثورة ٢١ أكتوبر يرجع أولا - الى الاضراب السياسى الذى نفذته قوى العاملين ثانيا - الى انحياز أقسام مقرر في القوات المسلحة الى - وتولى وزارة الدفاع رئيس الوزراء سر الختم .

اتجاهات الثورة .. ورأى الحزب الشيوعى

أصحاب الأنوف الحادة كانوا يحاولون أن يشموا رائحة الثورة ، ويتعرفوا على اتجاهاتها ويحللوا مستقبلها .

وبعض الأقلام حاولت أيضا أن تثير الأقاويل التى تبعث الانقسام والفرقة ..

ومن ذلك ما كتبه مندوب للأسوشيتد برس يسمى ماكارتنى .. وقال فيه ان الذى يملك زمام الموقف ، رجل غامض ، يسمى عبد الخالق محجوب ، سكرتير الحزب الشيوعى ! .. وكأنما ثورة ٢١ أكتوبر هى ثورة شيوعية خالصة . والحقيقة كانت غير ذلك ..

عناصر الشعب البسيط اشتركت فى الثورة .. لم يتخلف عنها انسان .. لم يتردد فى تأييدها أحد ..

لم أشهد فى حياتى اجماعا على تأييد ثورة ، مثلما شهدت هنا فى السودان .. ومثلما شاهدته فى ٢٣ يوليو فى مصر ، عندما كانت تنهمر الدموع من العيون ، والشعب يهتف للضباط الأحرار الذين كسروا أغلاله ..

الناس هنا فى هذه اللحظات الخالدة لا يتحدثون عن الآراء السياسية ، ولا يناقشون الخلافات الحزبية . ولا يقول أحد انها ثورة شيوعية ، اطلاقا لا تسمع هذه

.. الكلمة ..

صحيح ان الحزب الشيوعى ممثل فى الوزارة بأحد الوزراء .. لأنه كان حزبا عليا ، حتى قبل اعلان الاستقلال .. وكان يحمل اسم « الجبهة المعادية للاستعمار » .

وصحيح ان هذا الحزب تحمل أكبر قدر من التضحيات فى فترة الحكم الأخير حتى ان عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب خرج من السجن قبل الثورة بأيام .

ولكنه صحيح أيضا أن الثورة ليست حزبية ..

الاتجاه الأكيد لثورة ٢١ أكتوبر انها كانت تريد أن تعيد للسودان وجهه العربى ، أن تعيد الصلة بينه وبين الدول العربية المتحررة .. ان تصل بينه وبين الحياة المتجددة المتطورة .. أن تحقق العدالة والاشتراكية والديموقراطية ..

وفى لقاء مع عبد الخالق محجوب الذى درس الآداب فى جامعة القاهرة ، وانضم مع غيره من الشباب الى الحركة المصرية للتححر الوطنى ، ثم ساهم فى انشاء الحركة السودانية ، وأصبح اليوم سكرتيرا للحزب الشيوعى السودانى ، حرصت على معرفة رأيه فى ثورة ٢١ أكتوبر .

قال عبد الخالق محجوب :

— الحديث عن مستقبل ثورة ٢١ أكتوبر واحتمالات هذا المستقبل يرتبط ارتباطا وثيقا بطبيعة تلك الثورة والقوى الاجتماعية التى اشتركت فيها ، فقد ولد انقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ مينا منذ البداية ، بوصفه انقلابا رجعيا وعميلا للاستعمار الأجنبى لا ثورة

أصيلة للجيش السوداني .. وقد شرعت الطبقات الاجتماعية المختلفة في النضال ضده بدرجات متفاوتة .. وقد فجرت اجراءاته الديكتاتورية الارهابية قوة لم تكن في حسبانها وهي القوى الوطنية المناهضة للاستعمار والتسلط الرجعى في جيش السودان .. وقد ساهمت هذه القوى في اضعاف النظام وفي الحيلولة دون تنفيذ الخطة الكاملة للاستعمار والتي كان قد رسمها لكبار ضباط الجيش الذين تربوا في أحضانه .

وقد أدى هذا الوضع الى مزيد من العزلة للنظام وسارت حركة المعارضة المقاومة له في طريقها وهي تضم قوات اجتماعية سياسية ذات وجهات نظر مختلفة في مستقبل السودان ، ولأسباب عديدة وقع عبء المعارضة لذلك الحكم الرجعى على أكتاف القوة الشعبية الثورية من عمال ومزارعين ومثقفين وطلبة ودوائر سياسية نشطة في معارضة النظام .

ولذلك يمكننا أن نعتبر ثورة ٢١ أكتوبر بأنها « ثورة وطنية مناهضة للاستعمار القديم والحديث » ويعتمد مستقبلها على مقدرة القوى التى أشعلتها في التعبير عن ارادتها تعبيرا ديموقراطيا .

كما أجاب عبد الخالق محجوب على سؤال عن موقف الحزب الشيوعى من قضية بناء الاشتراكية في السودان فقال :

ان الظروف التى أحاطت بثورة ٢١ أكتوبر والعوامل التى أثرت في الشعب السودانى خلال سنوات الحكم الرجعى الست قد فتحت الآفاق لطريق واسع لبناء الاشتراكية في السودان .

صحيح ان الحزب الشيوعى ظل خلال هذه المدة يدعو للاشتراكية

ويؤثر على أقسام من جماهير الشعب ولكن من غير الصحيح اعتبار المطامع الاشتراكية لكل قطاعات الشعب المناضل وقفا عليه وحده .. وهذه حقيقة لا تفوت على بال الشيوعيين في السودان لأنها موضوعية وذات صلة بالحياة المعاصرة لشعب السودان .

وعلى الرغم من أن الحزب الشيوعي السوداني قد أبرز تنظيمه علنا بعد انتصار ثورة ٢١ أكتوبر إلا أنه لم يعتبر هذا التنظيم وحده معبرا عن الاتجاهات الاشتراكية المختمة في أذهان ثوار ٢١ أكتوبر .. ولكن وجود الحزب الشيوعي يساعد في تجميع كافة القوى الاشتراكية على صعيد واحد .

وعلى العموم فإن رياح التغيير تهب على كل المنظمات الاجتماعية والسياسية في السودان بدرجات متفاوتة وليس من الأمر السهل التجاوز عن أن معظم هذه التنظيمات تعلن الاشتراكية في برامجها بغض النظر عن الدوافع ، ويصبح المحك لصدق الدعوى الاشتراكية هو بمقدار قبولها لتجمع اشتراكي واحد منه على أساس الاشتراكية العلمية بتجاربها المختلفة ، هو بإخلاصها وتفانيها في النضال وقبول الجماهير لها .

إن الاتحاد بين القوى الاشتراكية يتطلب امتحان هذه القوى في النضال اليومي من أجل مصالح الجماهير .

من هذا الحديث مع عبد الخالق محبوب يثبت أن الذين حاولوا تصوير ثورة ٢١ أكتوبر بأنها ثورة شيوعية فقط إنما كانوا يستهدفون إثارة التفرقة بين قوى الشعب السودانية الهادفة لتغيير الحكم العسكري الديكتاتوري .

١٢٩

ويتضح كذلك مرونة فكر سكرتير الحزب الشيوعي في تحليله نوافع الاتجاه الاشتراكي في السودان ، وعدم تصويره وكأنه احتكار خاص للحزب الشيوعي وحده .

وقبل أن أختم هذا .. أحب أن أشيد بظاهرة رائعة ..
♦ جماهير الشعب السوداني لم تنطلق عابثة مدمرة .. لم تحطم على غير هدى ولم تشعل النار بلا سبب .. ولم تتحول الثورة الى مجزرة ..

♦ الشعب نظم صفوفه .. وقاد جموعه .. وحقق أهدافه .. في اصرار وفي سلام ..

♦ أثبت شعب السودان مرة أخرى .. ان الشعب دائما هو البطل ..

ماذا بعد انتصار ثورة أكتوبر ؟

الواقع ان ثورة ٢١ أكتوبر ، كانت تحمل في طياتها بذور الثورة الاجتماعية في جانب الثورة السياسية ..

والسبب أن تنظيمات الطبقة العاملة والمزارعين والمثقفين الثوريين والنقابات المهنية قد اشتركت في التحضير للثورة .. ثم في قيادتها .
وهي التي أعلنت الاضراب السياسي سلاحا للشعب ..

ومن هنا تتجه الأحزاب والهيئات جميعا الى مناقشة برامج جديدة ... تظهر فيها كلمة الاشتراكية ..

وقد يتصور البعض ان واقع المجتمع السوداني قد يعادى بناء الاشتراكية والحقائق تثبت غير ذلك ..

ليس في السودان اقطاع واضح صريح !!
معظم الأراضي تملكها الدولة .. ولكنها لا تزرعها !!
ومن هنا يظهر اقطاع من نوع آخر ..

اقطاع الرخص .. وهو نوع من الاقطاع يتيح لشخص واحد أن يتحكم في زراعة آلاف الأفدنة بإيجار اسمى لمدة معينة ..
ويشترط عليه أن يقيم تجهيزات خاصة في الأرض .

مثل هذه الرخص كانت تمنح للأقارب والمحاسيب وأعوان المستعمرين !!

١٧٤١

لعله مما يثير الدهشة أيضا، أن الرأسمالية في السودان ليست
لاختكارية كبيرة... وفيما أوضحت سابقا أن أكبر مشروع وطني
لا يتجاوز رأسماله ١٠٠٠٠٠٠ جنيه .

الخطورة تتمثل في أعوان الاستعمار ، الذين يسهمون معه في
شركاته واحتكاراته .. وهم كما أوضحت أيضا يلعبون دور الشريك
التابع الذي لا يملك من أمر المشروع الذي يسهم فيه شيئا !! ..
وهكذا يقترب واقع المجتمع السوداني كثيرا من الاشتراكية !!
ولا تفصله عنها حواجز عسيرة ..

وطبيعة الشعب السوداني تجعله يتعامل أيضا بروح اشتراكية ..
لا فرق بين غنى وفقير .. لا تعالى ولا كبرياء .. ينادون بعضهم
بالأسماء المجردة .. ويتعاملون في بساطة ملحوظة ..

ولكن ..

كيف يمكن الوصول الى تحقيق الاشتراكية ؟

جواب هذا السؤال كما تظهره احداث الثورة .. هو
الديموقراطية ..

ولعل مفهوم هذه الكلمة يتغير كثيرا بين أصحاب النظريات
والمبادئ المختلفة ..

هى عند أقصى اليمين .. ديموقراطية ليبرالية ..

وهى عند أقصى اليسار .. ديموقراطية موجهة ..

ومن وجهات النظر المختلفة يمكن أن تتحدد معالم المجتمع
السوداني الجديد ..

المجتمع الذى يحرص كل أبنائه على ارساء معالم الحرية .. ووضع
تقاليد جديدة للديموقراطية ..
والانتخابات الحرة المباشرة هى التغيير الذى يجمعون عليه ،
للوصول الى نوع الحكم الجديد ..
وكل حديث عن سيطرة حزب .. أو سيادة اتجاه معين .. هو
حديث مسموم يهدف الى نفس انتصارات ثورة ٢١ أكتوبر ، وفتح
الطريق لنكسة خطيرة ..

الانتخابات ... رغم كل شيء !!

وفي زيارة أخرى للسودان خلال شهر ديسمبر ١٩٦٤ تبينت حدوث أشياء كثيرة ..

معالم المجتمع في السودان تتغير كل يوم ..
قرارات حكومة الثورة الشعبية لا تتوقف ..
رجال النظام المنهار يسقطون كأوراق الخريف الذابلة ..
حكومة السودان تحقق أشياء جلييلة ..

• أصدرت قرارها الوطنى العظيم بمنع مرور الطائرات البريطانية فوق مجالها الجوى وهى فى طريقها الى الجنوب العربى ..
وكانت ٧٥ ٪ من الطائرات بالمنطقة تسلك هذا الطريق كما أعلن متحدث بلسان وزارة الدفاع البريطانية ..

• وأصدرت قرارا بحق تفتيش الطائرات المدنية للبحث عن المواد الحربية التى قد تهرب فى طائرة أمريكية أو بريطانية ..
• وصادرت أموال رجال المجلس الأعلى السابق ، وبعض الذين اثروا عن طريق الاتصال المريب بهم ..
• وشكلت لجنة لتطهير الصحافة .

روح الثورة ما زالت تدفع كل شيء .. رغم أن الهدوء قد عاد الى الخرطوم ، عدا مظاهرات أسمع هتافها الآن ، تنادى بسقوط أمريكا ، وبلجيكا !! ..

١٣٤١

ولكن ..

هل أصبح كل شيء هادئا ، هدوء مياه النيل في شهر نوفمبر ؟
الجواب ليس سهلا ..

وهدوء الليل يعكره نقيق الضفادع .

وماذا يمكن أن يعكر صفو الانتصار الشعبي غير الانتخابات ؟

والانتخابات الآن هي محور حديث الناس في كل مكان ..
حددت لها الثورة شهر مارس موعدا ..

ولكن هل يمكن أن تتم في هذا الموعد ؟

أذكر في مقابلي الأولى للسيد سر الحتم الخليفة ، في أول صباح
لى في السودان .. انه قال ان أربعة شهور قد تبدو غير كافية
للاستعداد للانتخابات .. ولكنه استطرد قائلا ، انهم سيبدلون
الجهد لتدبير كل شيء في موعده ..

وكان في حديثه نبرة الأمانة ..

ولكن كل صباح جديد ، كان يحمل للحكومة عاملا جديدا ،
يجبرها على أن تضع الانتخابات على مائدة المناقشة رغم ما تفكر
فيه وتنفذه من قرارات متدفقة ..

ما هي عوامل الشد والجذب في الانتخابات ؟ ..

الجنوب هو موضع الاعتبار الأول ..

والخطوات التي اتخذت حتى الآن لحل مشكلة الجنوب هي
خطوات متقدمة ، تستهدف وحدة السودان ، والقضاء على سياسة
السيطرة والتفرقة ..

أصدرت الحكومة قراراتها باطلاق سراح المسجونين السياسيين

من أبناء الجنوب ، والاعتراف بعظلة يوم الأحد ، والبدء في
المفاوضات مع ممثل أحزاب الجنوب ..

ومع هذا التيار الوطني السليم .. يبدو أن آثار حكم المجلس
الأعلى السابق مازالت تترك بصماتها في الجنوب ..
اتحاد السودان الوطني الأفريقي ، أو حزب « سانو » الجنوبي ،
أرسل خطابا مفتوحا الى رئيس الوزراء جاء فيه :

— وكما نعلم فإن هناك آلاف من اللاجئين من مواطني جنوب
السودان يوجدون حاليا في بلاد افريقية مجاورة وخصوصا يوغندا
والكونغو (ليوبولدفيل) وأثيوبيا وجمهورية افريقيا الوسطى وكينيا
وتنجانيقا ، وان كثيرا منهم قد منح حق اللجوء السياسى .. وهؤلاء
اللاجئون يمثلون قسما هاما من شعب جنوب السودان فمنهم
الزعماء السياسيون ، والمهنيون ، والفنيون .. وزعماء القبائل ،
والطلاب ، وبعض هؤلاء اللاجئين خرج من السودان مباشرة بعد
عصيان الجنوب سنة ١٩٥٥ أثناء حكم الحكومة الوطنية الأولى ،
ولكن معظمهم اضطر الى مغادرة البلاد ابان الحكم العسكرى منذ
عام ١٩٥٨ .. وتحت ظل تلك الظروف كانت الحكومة العسكرية تطبق
سياسة هي أشبه بسياسة الدول الاستعمارية في مستعمراتها ، وكان
هذا ما يهدد المستقبل الطيب لهذا البلد ..

هنا ينتهى حديث حزب سانو ..

ويقول زعماء أحزاب الجنوب ، ان اجراء الانتخابات في مارس ١٩٦٥
.. أمر مستحيل .. لأن عشرات الألوف يعيشون لاجئين خارج
السودان .. وعشرات الألوف هربوا من الظلم الى الغابات ..

والاتصال بهم في هذا الوقت القصير أمر عسير أو مستحيل ..
والمفروض في الانتخابات أن تكون تمثيلا صادقا للشعب كل الشعب
وهو كلام منطقي كما نرى ..

وليس تحديد شهر مارس آية من آيات القرآن .. انه يمكن
التأجيل شهرا أو شهرين مثلا ..
ولكن الطبيعة تتدخل ! ..

إذا لم تتم الانتخابات في مارس ، يبدأ موسم المطر ، الذي يمتد
حوالي ثمانية شهور ، يصعب فيها التنقل ، ويصعب فيها الاتصال ..
ولا يمكن خلالها - باجماع الآراء - اجراء الانتخابات ..
ولهذا يطلب زعماء الجنوب تأجيل الموعد الى الفترة بين نوفمبر
١٩٦٥ ، مارس ١٩٦٦ ..

وبعد تأثير الجنوب في الانتخابات يأتي تأثير الأحزاب التقليدية ..
الصادق المهدي ممثل حزب الأمة ، واسماعيل الأزهرى ممثل
الحزب الوطنى الاتحادى قدما طلبا بضرورة اجراء الانتخابات في
موعدهما أى في مارس ١٩٦٥ .

ولن نقف طويلا عند ما يتحدث به الناس علينا ، من أن الأحزاب
التقليدية تود أن تتعجل جنى مكاسب ثورة الشعب ، رغم استحالة
قياداتها أثناء فترة الحكم المنهار ..

ولا عن دهشة الناس من اتفاق الأزهرى مع حزب الأمة عند
مطلب موحد ، رغم ما بين جماهير الحزبين من خلاف واضح ..
ولكننا نقف طويلا عند نقطتين ..

أولا :

هل يمكن أن تتم انتخابات سليمة معبرة تمام التعبير عن رأى الشعب قبل أن يتم تطهير الأجهزة الادارية التى ساندت الحكم المنهار ؟ ..

انه رغم سرعة خطوات الحكومة فى التطهير ، فان الطريق أمامها مازال طويلا ، والرجعيون مازالوا أحياء فى مناصبهم ..
ثانيا :

ماهو موقف الجنوب ، لو استمر الاصرار على اجراء الانتخابات؟
وهنا نصل الى عنق الزجاجة ..

الجنوب يرفض تحديد مارس موعدا للانتخابات ..
والأحزاب التقليدية تطلب ذلك وتبقى القوة الثالثة فى المعركة ..
الجبهة الوطنية للهيئات ..

وموقف الجبهة الوطنية للهيئات التى تتشكل أساسا من القوى الوطنية والديموقراطية يتخذ شكلا نضاليا صريحا .. يمكن تلخيصه فى أنها لا يمكن أن تسمح بأى موقف يؤدى الى استمرار مشكلة الجنوب التى يقوئها الاستعمار من أجل تجزئة الوطن الواحد ..
والجبهة تثق فى الحكومة ثقة كاملة ..

وهكذا يمكن أن تتأجل الانتخابات من أجل المحافظة على وحدة الشعب السودانى ، الذى يعيش منه ٣ مليون مواطن فى الجنوب ..
وقبل أن أطوى صفحة الانتخابات أنقل هنا تجسيما للموقف خاتمة خطاب حزب (سانو) الى رئيس الوزراء ..

« وأخيرا — اذا لم تعبر الحكومة المدنية هذه المطالب المتواضعة،
فاننا فى حل مما يترتب على هذا الرفض من مشاكل — ذلك أننا

لا نستطيع ايقاف رجالنا عن حمل السلاح ، وفي هذا تعطيل للتقدم الاقتصادي في البلاد كلها ورفض اعطائنا الفرصة كاملة لكي نشترك في حكم أنفسنا سوف يدفعنا الى حمل السلاح ، وحمل قضيتنا الى الأمم المتحدة وتنبه أذهان الأفريقيين والعرب لما يجرى في السودان . ومن الذى يكون مسئولاً آنذاك ؟ قطعاً ليس أهل الجنوب ..

ومع ذلك فان قرارا لم يتخذ لتأجيل الانتخابات .. ولما أصبح الجنوب مشكلة مجسمة وحاسمة عقد مؤتمر المائدة المستديرة في الخرطوم في الفترة من ١٦ الى ٢٦ مارس ١٩٦٥ وحضره لأول مرة منذ ٦ سنوات ممثلون للشمال والجنوب معا يمثلون الحزب الشيوعى السودانى وجبهة الهيئات وجبهة الجنوب وحزب سانو وحزب الأمة وحزب الشعب الديموقراطى وحزب الوطنى الاتحادى وجبهة الميثاق الاسلامى وأصدر عدة قرارات لتسوية بعض مشاكل الجنوب أهمها تعيين أبناء الجنوب في الوظائف الهامة وحرية التنقل وضرورة انشاء جامعة ومدرسة ثانوية للبنات وتكوين مجلس اقتصادى قوى للتنمية .

نكسة ثورة أكتوبر

في هذا الجو العاصف ، الذى تكتلت فيه القوى السياسية المختلفة حول قضية الانتخابات كموضوع صراع رئيسى ومبدئى .. كانت هناك نقط خلاف أخرى صغيرة ..

رفضت الأحزاب التقليدية سرعة محاكمة قادة الحكم العسكرى المنهار ورفضت أيضا الاقتراح المشترك من الحزب الشيوعى وحزب الشعب الديموقراطى والاتحاد العام للعمال بتكوين حرس شعبى مسلح .. وانتقل الخلاف الى الشارع

جلب حزب الأمة ٣٠ ألفا من الأنصار ليقيموا فى أم درمان ويشاركوا فى مظاهرات تهتف للطائفية والأحزاب التقليدية . وقابل ذلك مظاهرات أخرى تحت قيادة الجبهة ترفض وزارة بلا عمال أو مزارعين .

وسقط بعض المتظاهرين قتلى فى شرق السودان وهم يحتجون على اجراء الانتخابات التى أصدر النائب العام فتوى بعدم دستورية اجرائها فى الشمال دون الجنوب .

وكان محور هذا الخلاف السياسى يتركز أساسا فى يد سر الحكم الخليفة رئيس الوزراء ، الذى كان يستطيع مواصلة مسئوليته التى اختارها الشعب لها ، ولكنه نظرا لارتباطات خاصة وشخصية ، اتخذ موقفا غريبا ، طعن به الثورة التى اختارته رئيسا وخان

الجماهير التي منحتها ثقته .

فاجأ سر الحتم الخليفة بعض أعضاء وزارته الذين سهر معهم حتى الثانية بعد منتصف الليل ، بتقديم استقالته في ١٨ فبراير سنة ١٩٦٥ . طوت صلة رئيس الوزراء المستقيل بأسرة المهدي وشدة تأثيرها عليه ، واغداقها الوعود له .. صفحة مجيدة من صفحات نضال الشعب السوداني .

وأخذت المفاجأة القوى التقدمية التي لم تكن قد استجمعت طاقاتها ، ووصلت بتأثيرها الى كافة المراكز العصبية والحساسة في المجتمع .. وتشكلت وزارة جديدة ، أصر حزب الأمة والوطني الاتحادي على ابعاد جبهة الهيئات منها .. وأصبح لكل من حزب الأمة والوطني الاتحادي والشعب الديمقراطي ثلاثة وزراء ووزير واحد لكل من الشيوعيين والاخوان المسلمين .

وكان في هذا التشكيل الجديد انتصار لقوى اليمين ، التي اندفعت لتحقيق هدفها بإجراء انتخابات عاجلة ، تمت في ابريل ١٩٦٥ وقاطعها الجنوبيون وحزب الشعب الديمقراطي .

أجهضت القوى الرجعية والأحزاب التقليدية أمل الشعب السوداني في ثورة أكتوبر وتبددت أحلامه في مواصلة المسيرة الثورية الى مجتمع جديد متحرر .

اتكسبت ثورة أكتوبر لأنها ارتضت منذ البداية الديمقراطية الليبرالية واجراء انتخابات بعد ستة شهور في وقت كان اليمين فيه مهيمن على كافة أجهزة الحكم منذ انقلاب ١٧ نوفمبر . وكانت الروابط الطائفية مازالت بعلاقتها القبلية والطبقية تشكل

حاجزا وسدا منيعا أمام قوى التقدم ..
ورغم أن الأحزاب التقليدية لم تكن في مركز السلطة الرئيسي
من ناحية التمثيل الوزاري إلا أنها كانت صاحبة نفوذ اقتصادي
 واجتماعي وفكري ، لم تستطع القوى التقدمية ان تقدم له بديلا
 نظرا لقصر المدة التي استطاعت فيها مخاطبة الجماهير علنا وصراحة
وعلى نطاق واسع ..

وعى الجماهير وارادتها كانا يرتبطان الى حد كبير بالأسماء
والشخصيات والتنظيمات التقليدية ، لأن القوى التقدمية كانت قد
أرهقتها خلال سنوات الحكم العسكري عمليات القمع والسجن والمطاردة
اتحاد نقابات العمال كان محلولا .. وبعض النقابات سلمت
لقيادات انتهازية وعمليات تصفية شديدة طاردت القوى التقدمية ،
التي كانت تحتاج الى وقت أطول لاعادة تنظيم صفوفها والانطلاق
الى مرحلة عمل سياسى جديد .

ولكن الفترة القصيرة التي حددتها الثورة لاجراء الانتخابات
أبرزت قورا وبصورة واضحة كل الدوافع الانتهازية في صدور
المشتغلين بالسياسة ..

والواقع أن الثورة - أى ثورة - يجب أن تتوفر لها فترة انتقال
كافية ، تتيح احداث التغييرات الفكرية والاجتماعية الضرورية
لتجميع الشعب حول أهدافها .

كما أن الديموقراطية الليبرالية ليست هى أفضل الأشكال الجنى
ثمار ثورة شعبية فى دولة نامية حديثة الاستقلال .. بل انها من
المؤكد وخلال ستة شهور فقط ، لا يمكن أن تؤدي إلا الى نكسة

رجعية ، خاصة وقد افتقد التعاون والتحالف بين القوى الثورية في الجيش وخارجه .. هذا ما حدث تماما في السودان .. ومع ذلك يبقى سؤال ..

هل مضت ثورة ٢١ أكتوبر ادراج الرياح بلا أثر ؟
الواقع أنه رغم نكسة ثورة أكتوبر من ناحية امكانية التعبير الصحيح عن القوى التي أشعلتها ، ومن تأكيد السلطة في يد الجماهير ، إلا أنها حققت انتصارات كثيرة ، جعلت الشعارات التي رفعتها باقية وصامدة أمام المد الرجعي .

حققت ثورة أكتوبر نهاية الحكم العسكري الديكتاتوري الذي حارب كل القيم الديمقراطية وكسرت القضبان التي عزلت شعب السودان عن الدول العربية والافريقية ..

وجعلت .. الاشتراكية .. كلمة مباحة ، يعتنقها البعض عن إيمان عظمي ، وتدرجها الأحزاب ، في برامجها لاغراء وخداع بجانب من الجماهير المتطلعة إليها .

بدأت تتحقق فكرة جبهة شعبية من الحزب الشيوعي وحزب الشعب الديمقراطي فيما سمي وقتئذ بالتجمع الاشتراكي الديمقراطي وأخذت قوى الثورة التي قادت الاضراب السياسي تعيد تنظيم قواتها ، تدعم اتحاد نقابات العمال . وأخذ يمارس دوره القيادي العلني ، وانتظم اتحاد المزارعين ، ونشطت النقابات المهنية خلف قيادات تقدمية ، وتكون اتحاد الموظفين .. وبدأت التنظيمات الوطنية داخل القوات المسلحة تستجمع قوتها وتوحد صفوفها وتمارس نشاطها

الباب السابع

حكم الأحزاب التقليدية

- قاع السياسة
- الاقتصاد يهبط الى الحضيض

قاع السياسة

أسفرت الانتخابات المتعجلة التي تمت في ابريل ١٩٦٥ وقاطعها الجنوبيون وحزب الشعب الديموقراطى عن حصول حزب الأمة على ٧٥ مقعدا من ١٧٣ ، والوطنى الاتحادى على ٥٣ مقعدا ، والحزب الشيوعى على ثمانية مقاعد .. كما أسفرت انتخابات الخريجين على حصول الحزب الشيوعى على ١٣ مقعدا من ١٥ .

والواقع أن رفض حزب الشعب الديموقراطى دخول الانتخابات لم يكن له مبرر مطلقا .. اذ أنه سهل سقوط الأغلبية فى يد حزب الأمة - أكثر الأحزاب التقليدية رجعية - كما انه حرم التجمع الشعبى الديموقراطى من فرصة الحصول على مقاعد كافية ، تؤدي الى تكوين معارضة قوية نشطة .

ومع ذلك فان معارضة ممثلى الحزب الشيوعى للحكومة المشكلة من حزب الأمة والوطنى الاتحادى كانت ذات أثر كبير ، أدى الى اصطناع تمثيلية مخجلة ، رفعت الزيف والخداع عن كلمات الحرية البرلمانية والديموقراطية الليبرالية التى أحاطتها الحكومة بهالة من الدعاية .

دفعت عناصر الحكومة طالبا فى أحد المعاهد بأم درمان كان منتسبا فى الماضى للحزب الشيوعى الى التهجم على الدين الاسلامى الخفيف .

وأخذت من هذا الموقف تكأة استندت إليها في حل الحزب الشيوعي قانونا ، وفصل أعضائه من الجمعية التأسيسية ! ورفع الحزب الشيوعي ذلك القرار الجائر الى المحكمة العليا التي أصدرت حكمها برئاسة بآبكر عوض الله بعدم شرعية تعديل الدستور الذي تم بموجبه حل الحزب الشيوعي وطرده أعضائه من الجمعية التأسيسية .. وأصبحت الحكومة محاصرة .

المحكمة العليا تحكم بعدم شرعية قراراتها .
ووزير الداخلية والجمعية التأسيسية يرفضان الاستجابة الى قرار المحكمة ..

هذا وقد استقال بآبكر عوض الله من منصبه في مايو ١٩٦٧ احتجاجا على عدم تنفيذ قرار المحكمة .

ولم يكن هذا هو التناقض الوحيد الذي ظهر في حكم تجمع الحزبين التقليديين .

ظهر تناقض جديد داخل صفوف حزب الأمة بين « الامام » الهادي المهدي ورئيس الوزراء الصادق المهدي .. وهو تناقض انبعث من خلافات شخصية داخل الحزب حول الموقف من الامامة والخضوع لها .

كان الهادي المهدي يمثل محمد احمد محبوب رئيس الوزراء قبل الصادق وبعده .. وانقسم الحزب فعلا الى كتلتين متنافرتين .. ووصل الخلاف الى الحد الذي جعل نائبا من الأمة يضرب وزير الصحة وهو من حزبه أيضا حتى ينقل الى المستشفى !!
١ - مصر والسودان .

وكان هناك صراع أيضا على منصب رئيس الجمهورية بين اسماعيل الأزهرى الذى كان يتولى هذا المنصب بصفته رئيسا لمجلس السيادة، وبين الهادى المهدي الذى كان يتطلع الى المنصب أيضا .

وفي هذه الفترة أخذ حزب الشعب الديمقراطى يدير ظهره الى التجمع الاشتراكى الديمقراطى الذى ربطه بالقوى التقدمية ، ويفاوض الحزب الوطنى الاتحادى من أجل الاندماج معا تحت اسم الحزب الاتحادى الديمقراطى .

كان أحد المطالب الرئيسية لحزب الشعب الديمقراطى حل الجمعية التأسيسية التى لم يكن ممثلا فيها .. وكان الوطنى الاتحادى يرغب فى بقائها حتى توافق على الدستور .

والدستور كان موضع خلاف شديد اذ أن القوى الرجعية وفى مقدمتها الأمة والاخوان المسلمين كانت تشبث بجعله مايسمى دستورا اسلاميا بعيدا عن روح العصر ، بينما عارضت القوى التقدمية هذا الاتجاه فى كل موقع ، حتى حلت الجمعية التأسيسية فى أواخر عام ١٩٦٧ لتتخذ من جديد فى فبراير ١٩٦٨ بعد انتخابات جديدة .

وأخيرا ترك حزب الشعب الديمقراطى جبهة التقدم نهائيا ، وانضم الى الحزب الوطنى الاتحادى حيث تكون حزب الاتحادى الديمقراطى .

ومنذ اللحظة التى تجمعت فيها الأحزاب التقليدية جميعا فى حكومة واحدة ، وبدأت محاولات التام حزب الأمة ، تبين تماما للشعب السودانى أن قوى التخلف والرجعية قد احتشدت فى جبهة تسيطر على السلطة ، وأن القوى العاملة والجماهير العريضة أصبحت

رغم كل الظروف في جبهة واحدة خارج الحكم .
وأدى هذا الموقف الى مزيد من الوضوح ، وخاصة بعد أن اكتشف
أن محاولات حزب الشعب الديمقراطي للانضمام الى جبهة التقدم
والديموقراطية ، كانت من باب التضليل والتعلق بانتصار قريب
وحاسم للقوى الاشتراكية التى ظهرت حقيقة قوتها فى ثورة أكتوبر ،
فلما بدا لها أن الانتصار غير قريب ، هرت عائدة الى حضنها القديم
حزبا تقليديا طائفا .

وبدأت الأحزاب التقليدية تتجه صراحة الى فرض « ديكتاتورية
مدنية » تسمى للاختفاء خلف شعار الدين الاسلامى ، بمحاولة
فرض ما أسمته « الدستور الاسلامى » .. وتحولت جامعة « أم
درمان » الاسلامية التى كانت تمولها بعض الدول الأخرى الى مقر
لبث الدعاية المضادة للتقدم والاشتراكية والحریات الديمقراطية ،
واستجلبت من الخارج أساندة من عتاة الرجعية والتخلف .

ولا يفوتنى التنويه هنا بأن الحرية الدينية لم تكن محل خلاف
اطلاقا بين كل الأحزاب بما فيها الحزب الشيوعى ، الذى اعتاد أن
يبدأ اجتماعاته بتلاوة من آيات الذكر الحكيم .. والذى حرص
فى مؤتمره الأخير على دعم القيم والفضائل الدينية التى تؤكد
العدالة الاجتماعية .

والواقع أن محاولات طعن ارادة التقدم والتغيير الاجتماعى وبناء
المجتمع الاشتراكى عن طريق الدين قد وصلت فى السودان الى
طريق مسدود بعد أن تبين أن البعض قد استغلوا الدين وأصبحوا
أبعد الناس عن تقديم ما يرفع الظلم والغبن عن حياة البسطاء الكادحين

وهنا يجب أن نفكر طويلا في هذه الظاهرة
لا يمكن القول بأن هناك شعبا « محافظا » أى رافضا لدوافع
التقدم .. والا كان معنى ذلك تشبث المظلومين بالظلم والقهر والجوع
ولا يمكن تصوير تمسك الناس بالدين على أنه تحفظ أو رجعية
تقف ضد تطور المجتمع نحو الاشتراكية .. فنحن في عصر يدرك فيه
الناس أنه يجب تحرير حياتهم من قيود الفقر والمرض والتخلف ، ولم
يعد منطق رجال الدين الرجعيين الذى يطالب الناس بقبول الفقر
طمعا في نعيم الآخرة مقبولا في هذا العصر .

ضاقت جماهير الريف في السودان وهى تكون حوالى ٨٦٪ من
مجموع السكان بأسلوب الأحزاب التى تفرض الولاء الطائفى
وتصدر توجيهاتها عن المركزية الروحية ، وبدأت تتطلع لمن يستوعب
طاقاتها البشرية وامكانياتها الطبيعية خلال عملية انتاج حديثة منظمة
.. ووجدت في الاتحادات الديوقراطية نصيرا وسندا لها يبدد الظلام
الذى أحاط بها سنوات طويلة ، عاشتها في خديعة الأمل والوعود
الكاذبة من قادة الطائفة أو الأعضاء المرشحين للبرلمانات والجمعيات
التأسيسية .

هكذا كانت الحالة السياسية في السودان .
أحزاب تقليدية عاجزة عن اقناع الجماهير .. وجماهير متطلعة
الى التغيير .

حكومة تهتم بفرض ديكتاتورية مدنية عن طريق مايسمونه
بالدستور الاسلامى ... وجماهير ضاقت بالوعود الطائفية ، وكشفت

١١٤٩

تماما خديعة كبار الرجال المستغلين للدين .
تجمع لكل القوى التقليدية في موقع السلطة .. وتجمع لكل
قوى التقدم والاشتراكية في موقع المعارضة
جامعة اسلامية يحيط بها اخوان مسلمون تتاح لهم فرص التهجم
على الاشتراكية .. وقوات واتحادات جماهيرية اشتراكية تقدمية
تناضل في مواجهة هذا الهجوم وتكسب كل يوم مواقع وأنصارا جديدا
خلال فترة حكم الأحزاب التقليدية وصلت السياسة الى القاع ..
وهبطت الناحية الاقتصادية أيضا الى الحضيض .

الاقتصاد ... يهبط الى الحضيض

كانت الأحزاب التقليدية تحاول الهبوط بمستوى العمل السياسى الى القاع ، ولم يقنع الجميع مبادرات الأزهرى ومحجوب بعقد مؤتمر القمة العربى بالخرطوم فى أغسطس ١٩٦٧ ، فان الجماهير فى تأييدها للصمود العربى كانت أكثر وضوحا وصلابة .. وكان لقاء جمال عبد الناصر دليلا على اصرار الشعب السودانى على استمرار الثورة والتقدم لبناء المجتمع الاشتراكى

والاتجاهات التى وضحت فى السياسة ، اقترنت بأخطاء وانحرافات ادارية وشخصية أدت الى هبوط الاقتصاد الوطنى الى الحضيض .

وتكررت فيما يبدو أخطاء بعض رجال الحكم العسكرى المنهار . هرع عدد من النواب والوزراء الى الاستفادة الشخصية ، وعادت قصص الرشوة والفساد وتصاريح الاستيراد واعطاء رخص السلاح تصبح حديث المجالس من جديد ..

وحقق البعض ثروات تحت شعار « سودنة التوكيلات التجارية » الأمر الذى أدى الى استفادة النواب فوائدا شديدة كشفت عنها محاكمات الثورة الأخيرة

وحديث الأرقام فيه ماثير

المصروفات العامة قفزت من ٥٨٥ مليون جنيه فى السنة السابقة

١٥١.

على ثورة أكتوبر الى ١٠٧ مليون جنيه أى بزيادة ٤٨٥ مليون جنيه .. بينما لم تزد إيرادات الميزانية بعد فرض سلسلة من الضرائب المباشرة وغير المباشرة الا بمقدار ٣٧٥ مليون جنيه .
بلغ العجز المقدر لمجلس المديرية والمجالس المحلية حوالى ٥ مليون جنيه .

ارتفعت مديونية القطاع العام للمصارف من ٣٩ مليون جنيه عام ١٩٦٥ الى ٤٦ مليون جنيه عام ١٩٦٩
واجهت الميزانية عجزا عاما سنويا مقداره يتراوح بين ٦ الى ٩ مليون جنيه كل عام ، ونتيجة لذلك انخفضت الأرصدة الأجنبية انخفاضاً كبيراً متصلاً ، فتدهورت العملات القابلة للتحويل من ٦١ مليون جنيه عام ١٩٦١ الى ١٦٣ مليون جنيه عام ١٩٦٩
ولم تعكس هذه السياسة وفراً فى السلع الاستهلاكية ، ذلك أنه لم تكن هناك مراعاة لأسبقية استعمال العملات الأجنبية .. كانت الرخص التجارية توزع بلا حساب لاستيراد السلع التى لا تتصل باحتياجات الشعب ولا باحتياجات عمليات الإنتاج ولا بالمواد الخام اللازمة للصناعة المحلية .

بلغت ترخيصات الاستيراد من اليابان وحدها ٧ مليون جنيه ليس فيها شئ واحد يخدم الاقتصاد أو جماهير البسطاء !
وأنقل هنا فقرة من تقرير منصور محجوب وزير الخزانة الذى قدمه بعد ثورة مايو بتاريخ ١٧ يونيو يحمل فيه صورة الموقف الاقتصادى .

« من أسباب هذه الأزمة — فترة الحكومات الحزبية — المعالم

الباب الثامن

قصة ميلاد ثورة مايو

الآتية :

١ - انتهاج سياسة أدت الى تبديد الأموال العامة بسبب الاهمل والاسراف والتبذير كتعدد رحلات الوزراء الى الخارج بدون مبرر واعتمادات مايسمى بمال الوزير والرشاوى السياسية والعلاج في الخارج الذي تحول الى سياحة على حساب الدولة والحفلات الاكرامية والمعاشات الاستثنائية ، واعفاءات الديون القائمة

٢ - المبالغة في العلاوات والبدلات والامتيازات والحوافز
٣ - عدم التقيد باللوائح والقوانين المالية وتخطى جهات الاختصاص .

٤ - السباق المحموم بين الوزارات لتمثيلنا في الخارج والمبالغة في عدد موظفي السفارات وامتيازاتهم
ويواصل منصور محجوب تعداد نقاط الخطأ والانحراف ، ثم ينتهى الى القول بأن :

« هذه قائمة عاجلة لبعض مظاهر الفساد الاقتصادى ، ولكن الفساد الأكبر هو فشل النظام الحزبى البائد فى تطبيق الإصلاح الاقتصادى والمالى والادارى ، فلجأ أولاً الى أسلوب الرشوة السياسية للفئات والطبقات بدون دراسة متأنية ، ودون تخطيط ، واضطر بعد ذلك الى فرض الضرائب المتعددة المباشرة وغير المباشرة حتى أثقلت كاهل الشعب والى استخدام بعض القروض النقدية بطريقة أرهقت كاهل الميزانية العامة ، ثم خضع بعد ذلك لارادة النواب وتسابقهم على مطالبة الحكومة بمطالب عاجلة تخص دوائرهم وأشخاصهم فكانت مقترحات الصرف على غير أساس »

وينهى وزير الخزانة تقريره بالقول بأنه عندما ارتفع العجز المالى الى مستوى لم تعرفه البلاد من قبل ، ولم تكف القروض لتغطيته ، لجأ النظام الحزبى البائد الى الاستدانة محليا من بنك السودان وغيره وهذا أخطر ما يمكن أن تلجأ اليه حكومة لمعالجة الموقف الاقتصادى اذ أن زيادة المديونية والتوسع فى الائتمان المصرفى قد أدى الى زيادة النقد المتداول بنسبة أكبر بكثير جدا من احتياجات الاقتصاد نجم عنها ارتفاع المستوى العام للأسعار والغلاء الذى اكنوى بناره المواطنون وانخفاض فى الدخل الحقيقى للأفراد ، خاصة ذوى الدخل المحدود ..

هكذا هبط الاقتصاد الى الحضيض .. وفى كلمات كان السودان على شفا هاوية الافلاس

كثير من الموظفين لم يتسلموا مرتباتهم الا بعد أول الشهر بأيام .. وارتفعت الأسعار .. ووصل سخط الجماهير غايته ولم يعد هناك من سبيل الا التعبير عن هذا السخط بطريقة ايجابية ..

الشعب كان مهيناً تماماً لذلك .. والقوات المسلحة أيضا .

لم يكن انحدار سياسة الحكومة الى القاع .. وهبوط الاقتصاد الى الحضيض .. مما يمكن أن تفض عنه عين الثوار الأحرار كان التنظيم التقدمي الرئيسى - الحزب الشيوعى السودانى - والاتحادات الديمقراطية المختلفة تمارس دورها النضالى فى تعبئة الشعب ..

وكانت تنسج فى صفوف القوات المسلحة قصة ثورة جديدة وخلال صفحات هذا الكتاب يمكن التعرف على قصص الثورة فى الجيش السودانى .. والتعرف أيضا على تاريخ وتضحيات بعض الضباط السودانيين ، الذين قدموا حياتهم فى النضال ضد الاستعمار البريطانى ، وضد الديكتاتورية العسكرية .

الجيش السودانى لم يكن بعيدا أبدا عن السياسة .
وثورة ٢٣ يوليو فى مصر كانت بداية مرحلة جديدة للعناصر الوطنية فى الجيش السودانى التى تأثرت بالدور الذى قام به الضباط الأحرار فى مصر .

وتكون فى هذه الفترة تشكيل للضباط الأحرار السودانيين كان من المنظمين له محمود حسيب الضابط بسلاح الاشارة فى ذلك الوقت ووزير المواصلات الحالى .. ولم يكن لهذا التنظيم اتجاه معين للاستيلاء على السلطة .. ولكنه على حد تعبير محمود حسيب « أحس الضباط ان لهم دورا ايجابيا ، وأنه لابد لهم أن ينظموا

أنفسهم ليكونوا على الأقل صمام أمان في المستقبل اذا انحرف القادة السياسيون عن الطريق القويم ، وكان المهم أن يشعروا المستعمر الانجليزى ان الجيش لن يستمر مطية يمكن أن يسخرها لأغراضه الخاصة » .

غاية الهدف عن هذا التنظيم ، وعدم ارتباطه برغبة التغيير جعلته لا يتحرك حركة ايجابية ، خاصة وأن شعب السودان فى هذه الفترة كان يعبر مرحلة الانتقال متطلعا الى الاستقلال ، وكأنه العصا السحرية التى سوف تنقذه من كافة المصاعب والمشاكل .

وما كاد استقلال السودان يتحقق فى مطلع عام ١٩٥٦ وتحرر الأرض من قوات الاحتلال البريطانية قبل أن يتم الجلاء عن مصر حتى فقد الحزب الوطنى الاتحادى رئاسة الحكومة فى شهر يوليو لموقفه المتهاون وحل محله عبد الله خليل ممثل حزب الأمة الرجعى متعاوناً مع حزب الشعب الديمقراطى .

وحدثت فى مصر خلال هذا العام عدة حوادث بارزة هى جلاء القوات البريطانية فى ١٨ يونيو ثم تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو وأخيراً التجمع الاستعمارى والعدوان الثلاثى فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ وكان عام ١٩٥٦ من أعوام المد الشورى فى الوطن العربى .. احتشدت الأمة العربية حول شعب مصر فى موقفه من العدوان الثلاثى .. ومع ظهور مشاعر الشعب السودانى بدأ الضباط الأحرار السودانيون يتجمعون من جديد وأمامهم نضال الشعب المصرى ولكن سرعان ما اكتشف الأمر عام ١٩٥٧ وحاكت حكومة حزب الأمة عددا من الضباط الأحرار هم الصاغ عبد الرحمن كبيدة

ويعقوب كبيدة وعمر خلف الله وعوض بابكر
وأحيل النقيب جعفر نيمرى الى الاستيداع ، وكانت هذه هى
المرّة الأولى التى يقدم فيها للتحقيق والمحاكمة .
وكانت هذه الضربة من العوامل التى ساعدت على تنفيذ تسليم
الحكم للعسكريين يوم ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ فى هدوء .. اذ أن الضباط
الوطنيين لم يكونوا قد تجمعوا بعد من جديد .
ولكن الروح الوطنية عند رجال الجيش السودانى سرعان ما ثارت
ضد الديكتاتورية العسكرية .

المحاولة الأولى للانقلاب كانت فى ٤ مارس ١٩٥٩ كما سبق أن
لُوحِظت فى الباب الخامس .. وقد نجح الانقلاب عسكريا تحت
قيادة الأميرالاي عبد الرحيم شنان الذى دخل المجلس الأعلى للقوات
المسلحة ومعه اميرالاي محبى الدين عبد الله بعد أن خرج منه اللواء
أحمد عبد الوهاب المدير الحقيقى للانقلاب الرجعى
وسرعان ما قرر الضباط الأحرار القيام بمحاولة انقلاب أخرى فى
٢٢ مايو ١٩٥٩ تحت قيادة الأميرالاي عبد الرحيم شنان أيضا
والبكباشية حسن ادريس وعبد الحفيظ شنان ، ولكن الحركة
قُشِلت وحوكم عدد كبير من الضباط وطرد آخرون .

وقبل أن ينتهى العام وارتباطا بحركات اضراب واسعة بين الطلبة
والطالبات وعمال السكة الحديد واتحاد نقابات العمال ، قامت
محاولة انقلاب ثالثة يوم ١٠ نوفمبر ١٩٥٩ ، وقدم للمحاكمة قادة
الحركة الضباط الوطنيون التقدميون البكباشى على حامد والبكباشى
يعقوب كبيدة والصاغ عبد البديع على كرار واليوزباشى طيار

الصادق محمد الحسن ، واليوزباشى عبد الحميد عبد الماجد .. فصدر عليهم الحكم بالاعدام ونفذ الحكم شنقا خوفا من عدم تنفيذ الجنود للحكم رغم مخالفة ذلك لتقاليد الجيوش فى أنحاء العالم .
وكان من بين المعتقلين فى هذه الحركة الرائد فاروق عثمان حمد الله عضو مجلس قيادة ثورة مايو ووزير الداخلية .
واضح أن هذه الحركات المتلاحقة كانت تعبر عن ضيق شديد بطبيعة الحكم الديكتاتورى ، وأنها أيضا كانت عمليات سياسية غير ناضجة .

وخلال عام ١٩٦١ أعيد احياء تنظيم الضباط الأحرار وصدرت مجلته السرية الأولى « صوت القوات المسلحة » وكانت هذ المجلة عاملا من أهم عوامل تجسيم المناضلين فى القوات المسلحة السودانية ، وربطهم بالقوى الوطنية التقدمية خارج الجيش .
فى أحد أعداد هذه المجلة السرية الصادر فى منتصف فبراير ١٩٦٢ وردت هذه الفقرة عن الاستراتيجية الفكرية للمناضلين داخل القوات المسلحة :

« ان تنظيم الصفوف فى الجيوش والحركة الشعبية أصبح شعار الساعة ، وشعبنا وجيشنا الذى اصطدم بالاستعمار اصطداما مباشرا خلال أعوام ١٩١٠ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٣٧ ، ٤٧ وبأعوانه فيما بعد لقادر على الاطاحة بهذا الحكم الضعيف المعزول .

ان برنامج الوحدة الشعبية الذى تتمثل فيه أمانى ومصالح بلادنا الحقيقية والذى يتلخص فى قيام حكومة وطنية معادية للاستعمار تكفل للشعب حقوقه وحرياته الديموقراطية ليتمكن من صنع

أمجاده بنفسه وتتخذ أسلوبا واضحا في سياستها الخارجية ضد الاستعمار والأحلاف العسكرية ، وتقف في صف السلم ، ومن أجل صيانة الاستقلال ومساعدة الشعوب الأخرى المكافحة من أجل استقلالها ، حكومة تتجه لتحسين حياة الشعب المادية والثقافية وتنهج سياسة اقتصادية من أجل تصنيع البلاد ومن أجل تجارة حرة .
.. هذا البرنامج كفيل بتوحيد كافة المواطنين من أجل انجراح الاضراب السياسى المقترح الذى سيشل حركة العصبه العسكريه الحاكمه ويأتى بالسلطة فى أيدي الشعب وطبقاته الوطنيه خاصة اذا تفاعلت الحركة الشعبية وتجاوبت مع القوى الوطنيه فى الجيش » ولعله لم يعد سرا أن « صوت القوات المسلحة » كانت تصدر للتعبير عن رأى الضباط الأحرار ، وانها كانت تطبع سرا بأجهزة مطباعة الحزب الشيوعى السودانى الذى كان يضم التنظيم عددا كبيرا من أعضائه .

ويجدر بنا أن نتعرف على آراء هؤلاء الضباط الأحرار خلال مجلتهم .

عن الديموقراطية يقولون :

الديموقراطية التى نريدها هى الديموقراطية الحققة ، والتى فى مضمونها تبنى حكم الشعب بواسطة الشعب ، والتى لا تقبل تسلط فرد أو طبقة معينة .

وعن ضعف الجيش السودانى يوضحون :

الضعف المسكرى الذى منى به جيشنا فى السنوات الأخيرة من ناحية الكم والنوع ، فخيرة ضباطه فى السجون والشوارع وتحت

الثرى ... مع الانعدام التدريب ... كل هذا مضاف اليه عدم وجود الخبرة العسكرية والسياسية .

وعن الانقلابات المتكررة ينفدون :

« ان الانقلابات التى حدثت فى السنوات الأخيرة جعلت الشعب يفقد الثقة فى أى انقلاب عسكرى غير مرتبط بكفاحه ، وقد قال الشعب كلمته وهو انه يريد الديمقراطية ولن يؤيد أى حكم عسكرى مهما كانت أهدافه ، وما دام تنظيمنا قام من أجل هذا الشعب مندفعاً بثورته مرتبطاً بنضاله فالديموقراطية تفرض علينا نفسها ويفرضها علينا الشعب السودانى بترائه الوطنى وبكفاحه المستميت واستمر تنظيم الضباط الأحرار ينمو يوماً بعد يوم ، ويزداد صلابة ووعياً ، حتى أسهم بدور بارز فى اسقاط حكم عبود كما سبق أن أوضحنا عندما وقف ضباط الجيش وفى طليعتهم بكباشى جعفر نميرى ويوزباشى فاروق عثمان حمد الله ، يحاصرون يوم ٢٦ اكتوبر قصر عبود ، ويجبرونه على الاستقالة بعد تقديم مطالبهم فى مذكرة وقعها ٦٠ ضابطاً .

وعادت القوات المسلحة الى ثكناتها بعد انهيار ديكتاتورية عبود والمجلس الأعلى .

والواقع أن هذه المرحلة كانت تتجاذبها وجهتى نظر .. الأولى .. تقضى بضرورة مواصلة القوى الوطنية والتقدمية فى الجيش لدورها بمساندة جماهير اكتوبر التى لم تكن تملك القدرة الكافية على امتلاك زمام الموقف كما أثبتت الأحداث فيما بعد .

الثانية .. تقضى بضرورة عودة القوى الوطنية والتقدمية فى الجيش

الى الشكنات ، تحت ضغط الرغبة الشعبية الجارفة المضادة لأى لون من ألوان الحكم العسكرى والتي ملأت سماء الخرطوم هتافات تقول « الى الشكنات يا ... » ، وأقامت فى الشوارع ليلة ٩ نوفمبر متاريس تمنع سير كل أنواع الدبابات والعربات والمصفحات .

انتصرت وجهة النظر الثانية لأن التنظيم العسكرى فى الجيش لم يكن قد نضج الى الدرجة التى تؤهله لحمل مسئولية السلطة . . . وتركت عودة القوى الوطنية والتقدمية الى الشكنات جماهير أكتوبر وقياداتها التقدمية فريسة لمؤامرات الرجعية الطائفية والأحزاب التقليدية التى أجهضت الثورة الشعبية الأصيلة .

قال الرائد فاروق عثمان وزير الداخلية لجريدة الموند بعد ثورة مايو « لو كنا قد نسقنا عملنا مع المنظمات الشعبية لما كانت ثورة أكتوبر قد فشلت ، وذلك لأن التحالف بين المدنيين والعسكريين التقدميين هو وحده الذى يمكن أن يؤدى الى اصلاحات جديدة ودائمة ومقاومة حملات الرجعية » .

دليل صحة هذا القول انه لم تكد تمضى عدة أيام على حصار الضباط للقصر الجمهورى وسقوط حكم عبود ، حتى دبرت الدوائر الرجعية فى الجيش مؤامرة ضد الضباط الثلاثة « نيمرى وفاروق والرشيد » ومعهم خمسة آخرون واعتقلتهم ليلة ٨ نوفمبر بعد أيام قليلة من انتصار ثورة أكتوبر .

وصدر منشور فوراً من الضباط الأحرار يقول :
« ان الدوائر الرجعية تحاول أن ترداد الاتهام للضباط الأحرار بأنهم يعملون لحساب مصر ، وهذه محاولة رخيصة لستر الحقيقة

تقصد من ورائها الدوائر الرجعية أن تبرر موقفها في تصفية الجيش من العناصر الوطنية وفرض سيطرة العناصر الرجعية عليه .
وتدفقت المظاهرات الى شوارع الخرطوم تطالب بالافراج عن الضباط الأحرار مما اضطر السلطات الحاكمة الى اطلاق سراحهم .
وقد أوضح ذلك للجماهير الدور الوطنى الذى قام به بعض ضباط الجيش .. وثبت لهم ان القوات المسلحة ليست كلها نماذج من ضباط عبود !

وخطا تنظيم الضباط الأحرار خطوة أخرى الى الأمام بمحاولة توسيع جبهته .. وأصدروا مجلتهم الجديدة « الأحرار » بدلا من « صوت القوات المسلحة » .

ووضح الاتجاه الاجتماعى للضباط الوطنيين فى القوات المسلحة فى جريدة الأحرار التى صدرت يوم ٤ يناير ١٩٦٥ بعد انتصار ثورة أكتوبر وجاء فيه :

« نحن ندرك اليوم كما يدرك العمال والمزارعون والمثقفون بأن طريق الرأسمالية الذى سرنا فيه بعد الاستقلال والذى أدى انقلاب ١٧ نوفمبر لترسيخه انما هو طريق شقاء لا حدود له بالنسبة للشعب وهو لا يقود الى التقدم بل الى التخلف والتبعية التامة للاستعمار ، ولفقدان الاستقلال نفسه ..

« نحن ندرك ذلك فنتلفت حولنا فنرى بلادا عانت من الاستعمار مثلنا بل أشد ولكنها شقت طريقها ونجحت فى حماية استقلالها ، ذلك لأنها رفضت الطريق الرأسمالى واتخذت الاشتراكية هدفا لها .. »

هكذا أصبحت « الاشتراكية » هدفا للمواطنين في القوات المسلحة السودانية .. وبدأت تظهر صلة وثيقة بين الضباط وصف الضباط والجنود ، عبرت عنها مجلة « الأحرار » أيضا بقولها :
 « ان الجبهة تضع في المقام الأول علاقة الضباط بالجنود فالارتباط بينهم ارتباط حتمى تمليه طبيعة العمل والأهداف المشتركة ، ولذا كان لزاما أن تصل العلاقة بينهما الى أقصى مراتب التعاون » .

ولم يكن النشاط السياسى في القوات المسلحة قاصرا على القوى الوطنية التقدمية ، وانما كانت القوى الرجعية تثبت أنصارها في مراكز الجيش القيادية .. وكان الصادق المهدي نشطا في ذلك غاية النشاط .. بل انه كان يدبر لانقلاب رجعى عسكرى .

وحاول الصادق المهدي ضرب القوى الوطنية في الجيش عن طريق مؤامرة مفتعلة اختار لها ملازم ثان اسمه خالد الكد يت بصلة قرابة الى عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعى وان لم تربطهما معا أية صلة فكرية أو سياسية .

واعتقل خالد الكد والضباط جعفر نميرى وهاشم العطى والرشيد نور الدين ورشيد أبو شامة ومن المدنيين عبد الخالق محجوب وغيره .. ثم تبين ان التدبير كان ساذجا وعجز التحقيق عن توجيه الاتهام لأى معتقل فأفرج عنهم جميعا .

وعموما اتخذت الرجعية موقفا من الضباط الوطنيين .. نقلتهم الى الجنوب والى معسكرات بعيدة عن العاصمة ..

نقل جعفر نميرى الى غرب السودان وفاروق عثمان حمد الله الى جوبا .

ولكن ذلك لم يوقف تيار المد الثورى ، أو يعرقل وحدة التجمع التنظيمى .. بل العكس هو الصحيح اذ أنه تكشف لبعض هؤلاء المناضلين مأساة الجيش السودانى .

يقول فاروق عثمان (ان الجندى كان ينزف الدم فى الجنوب حتى يموت دون وجود أية اسعافات أولية .. وان بعض الوحدات كانت تقضى ثلاث سنوات بلا غيار أو اجازات ، وبعض الوحدات عزلت سنة كاملة وكانت تمون بالطائرات .. وبعض الجنود كانوا يشترون الملابس من جيوبهم الخاصة !!) ..

ويقدم فاروق عثمان حمد الله بتاريخ ١٨ يونيو ١٩٦٩ صورة شديدة الوضوح والتأثير لموقف القوات المسلحة السودانية تبين ان الحكومة فى الخرطوم كانت معزولة تماما عما يدور فى الجنوب وكانت تحجب عن رأى العام بل وتتجاهل الحقائق التى كانت تصلها ، وأهملت تماما واجبها نحو توفير أبسط احتياجات الجندى المقاتل من ملابس وذخيرة .

ويقول فاروق عثمان ان قيادة القوات المسلحة بالخرطوم كانت تساعد فى تعميق المشكلة فقد كان التنظيم رديئا وكان التسليح ضعيفا وكانت المعدات عموما فى حالة سيئة بسبب سوء الادارة وكثيرا ما اختل نظام الضبط والربط ووقعت حوادث تمرد فى القوات العاملة فى الجنوب .

وبشكل عام كانت الفوضى هي الصفة التى يمكن أن تطلق على الوضع فى القوات المسلحة .
وكان النقص عاما فى الضباط والجنود فى كافة الوحدات دون

استثناء وبعض « البلوكات » كان مرتبها خمسة ضباط . ولم يكن يوجد فيها ضابط واحد !
وكان العساكر لا يتمكنون من صرف مرتباتهم لمدة تصل الى ستة شهور .. وكانت تصل اليهم أطعمة فاسدة لا تصلح لأكل انسان ..

وكان الجنود يواجهون مشكلة حتى بالنسبة لمياه الشرب ومعظم كمانن المتمردين تقع في أماكن تواجد المياه .. وحدث في كباله أن استشهد ١٧ صف ضابط وعسكري وجرح أربعة جنود أثناء محاولاتهم للحصول على المياه .. وتبذر احضار الجرحى لعدم توفر الوقود !؟
والى جانب ذلك كان هناك نقص في الذخيرة والتسليح والصيانة والمدافع .. الأمر الذى أدى الى انهيار الروح بين الجنود ، وحدثت خمسة حوادث تمرد في وحدات كاملة بالجنوب .

ويقول فاروق عثمان ان من أقوى أسباب انعدام الثقة وسوء التفاهم بين الجنود والضباط .. وعد القائد العام أثناء جولته في الجنوب في حوالى أغسطس ١٩٦٥ بأنه تقرر أن تكون مدة الخدمة بالجنوب سنة واحدة ، هذا فى الوقت الذى توجد فيه وحدات أمضت حوالى ثلاث سنوات ولم ينفذ هذا الوعد ، الأمر الذى أدى الى أن يعتقد الجنود أن الضباط هم السبب فى التأخير ... وقد دفع ذلك بعض الجنود الى نشر بعض المنشورات واقامة جمعيات سرية منها جمعية « لهب » والجنود الأحرار .

ورغم بعثرة الضباط الأحرار الا انهم كانوا على اتصال دائم حول مجلتهم السرية « الأحرار » .. واستطاعوا أن يجمعوا توقيع ٨٠

ضابطا على مذكرة للقيادة تطلب زيارة وزير الدفاع والقائد العام للجنوب .

وعندما حضر الاثنان طلب منهما الضباط :

١ - تحسين الحالة المعيشية للجنود وضباط الصف والعناية بأسر الشهداء .

٢ - اعادة تنظيم وتسليح القوات المسلحة .

٣ - تطهير القوات المسلحة من العناصر الفاسدة .

وفي ختام الاجتماع شكر الوزير والقائد العام الضباط على وطنيتهم وأكدوا لهم تنفيذ المطالب وعدم اتخاذ اجراء ضد أى ضابط ..

وعندما عاد الاثنان الى الخرطوم تقرر طرد عدد من ضباط الجيش منهم فاروق عثمان الذى عين فى وظيفة مدنية ببلدية أم درمان ، تقرر نقله بعدها الى الجنوب ولكنه استقال ليظل قريبا من تنظيم الضباط ..

وكان هذا الاجراء نقطة تحول فى تاريخ القوات المسلحة اذ وضح لتنظيم الضباط الأحرار الذى يتولى فاروق عثمان سكرتاريته ان الاصلاح لن يتم الا اذا تغير الجهاز الحاكم نفسه .

ولم يكن تنظيم الضباط الأحرار منعزلا عن التنظيمات الشعبية ... كان حلقة الاتصال بين القوى الوطنية والتقدمية داخل الجيش وخارجه ، بابتكر عوض الله رئيس القضاة الذى استقال احتجاجا على تصرفات الحكومة ورفضها تنفيذ قرار المحكمة العليا الصادر بعدم قانونية تعديل الدستور الذى أباح للجمعية التأسيسية حل

الحزب الشيوعي وفصل أعضائه منها .
بدأت صلة الضباط الأحرار مع بابر عوض الله عقب ثورة
أكتوبر ١٩٦٤ عندما شكلت لجنة من القضاة لتطهير الجيش ..
وكانت الأحداث السياسية تدفع تنظيم الضباط الأحرار الى
سرعة الحركة .

حرص الضباط الأحرار على منع اقرار الدستور الرجعي الذي
يتخفى باسم الاسلام .. وحرصوا أيضا على منع اجراء انتخابات
للرئاسة ..

وبدأت تظهر تحركات واجراءات مريبة .
حزب الأمة بدأ يكون مليشيا عسكرية .
قام الصادق المهدي بزيارة مشبوهة للخليج وأبو ظبي .
ثم تنازل الصادق عن بعض آرائه في سبيل المصالحة للاستيلاء
على الحكم .

وأخذت الصورة تبدو مظلمة ويائسة ♦♦
ولم يجد شباب الضباط الأحرار سبيلا الا الحركة لتغيير الحكم
من الجذور .. وكانت ارادة التغيير عند الشعب قد وصلت ذروتها .
ولكن كانت هناك صعوبات فنية في التنفيذ ... حرصت قيادة
الضباط الأحرار على أن يشترك أقل عدد وأحسن مستوى ثوري
من الضباط ..

وفي لحظات الاعداد الأخيرة تقاعس بعض الضباط المنتظمين في
لجنة الضباط الأحرار لارتباطات خاصة ، وتحليلات غير سليمة .
وانكمش عدد المسئولين عن التنفيذ ... وجابهوا هذا الموقف

بالتمويه بأنهم صرفوا النظر من جهة ... وعملوا على الاسراع بالتنفيذ من جهة أخرى .

تقرر موعد الثورة لأول مرة يوم ١٤ مايو .
وتأجل للمرة الثانية ليكون ٢١ مايو بمناسبة سفر الأزهرى .
ثم استقر ليكون ٢٥ مايو أثناء وجود كبار ضباط الجيش في زيارة للاتحاد السوفيتى .

وحمل مسئولية الثورة سريتان من المظلات وقوة من المدرعات لاتتجاوز في عددها ٤٠٠ صف ضابط وعسكري كانوا في مناورات

خارج الخرطوم حسب مشروع سابق
وتمت العملية في هدوء .. ولم تطلق سوى طلقة رصاص واحدة
في الهواء في مكتب بريد الخرطوم أثناء قطع المواصلات .

وانتصرت ثورة مايو .. ولم تنجح محاولات تأجيلها الى حين
استكمال تشكيل « الجبهة الديمقراطية » التى كانت قد تمت
محاولات جادة لتشكيلها من الشيوعيين والاشتراكيين وسائر
المنظمات الشعبية .



وانتصرت الثورة في الساعة الثانية صباح يوم ٢٥ مايو ١٩٦٩ .
وأعلن في الصباح تشكيل مجلس قيادة الثورة برئاسة العقيد
جعفر نميرى وعضوية بابكر عوض الله والمقدم بابكر النور والرواد
فاروق عثمان حمد الله وخالد حسن وهاشم العطا ومأمون عوض
أبوزيد وأبو القاسم ابراهيم وأبو القاسم هاشم وزين العابدين
محمد أحمد عبدالقادر .

١٧٠

وأعلن أيضا تشكيل وزارة جديدة برئاسة بابكر عوض الله .
وهزت هذه الأنباء أرجاء الوطن العربي ، وكان لها صدى عالمي
كبير ..
وبعد ساعات من الثورة .. كنت في الخرطوم .

الباب التاسع

ثورة مايو

- ♦ في الخرطوم .. بعد ساعات من الثورة
- ♦ تلال المشاكل
- ♦ قائد الثورة يتحدث
- ♦ آخر صورة .. من السودان

في الخرطوم .. بعد ساعات من الثورة

منذ اللحظة الأولى في مطار الخرطوم تتبين على الوجوه اشراقا وابتهاجا بما تحقق منذ ساعات في السودان .. كلمات الترحيب والابتسامات المضيئة .. سائق التاكسي لا يتوقف عن الحديث طول الطريق .. انه يخفف علينا حرارة الجو التي تعلو على الأربعين ، والعربة كأنها تخترق جبالا من لهب .

الشوارع هادئة والأنوار تغمر النوادي ، ودور السينما مزدحمة بالرواد .. ولا تلمح الا عددا محدودا من الجنود عند القصر الجمهوري وثلاث مصفحات .

الملاح التي رأيتها في الخرطوم منذ خمس سنوات عندما انفجرت ثورة أكتوبر الشعبية أشاهدها اليوم أكثر اشراقا وحيوية .. ومسئولية أيضا .

الطلقة التي استقرت في قلب الشهيد الطالب أحمد القرشي في أكتوبر ١٩٦٤ .. عندما تظاهر الطلبة نتيجة تتبع الجامعة لوزارة التربية والتعليم التي كان يتولاها طلعت فريد لم تضع عبثا .. في هذه الأيام المجيدة ظهرت للشعب السوداني قيادات أصيلة جديدة . هذه القيادات التي بزغت من صفوف الشعب في أكتوبر ١٩٦٤ ، هي التي تقود الخرطوم اليوم في مايو ١٩٦٩ بعد فترة مهتزة كثيبة . السودانيون يذكرون تماما ذلك الضابط الشاب الذي تردد

١٧٣

اسمه أكثر من مرة في كل عمل وطني داخل القوات المسلحة السودانية ... انه العقيد - أو اللواء الآن - جعفر نميري قائد الثورة .. الذي كان أحد الضباط الذين اشتركوا مع الشعب في ثورته وطالب بحل المجلس الأعلى للقوات المسلحة ، وحل مجلس الوزراء ، ووقف المجازر وتطهير الجيش من عناصر الفساد .
وساعة انتصر الشعب بعد اذاعة بيان عبود في التاسعة والنصف ليلا عاد جعفر النميري مع زملائه الى الشكنات ، ينتظر حصاد الثورة ... ولكن طال به الانتظار !

ورئيس الوزراء بأكبر عوض الله عضو المحكمة العليا في ذلك الوقت لم يتردد لحظة عن وقوفه الى جانب شعب أكتوبر ... واختار موقفا يعرضه لخطر شديد .. ولكن صلابته وأصالته وإيمانه بوطنه وشعبه كانت حوافز قوية لموقفه الثوري ، الذي يرفض أيضا منصب رئيس الوزراء الذي عرض عليه ، والذي قدمته الثورة الى رجل بعيد عن الأضواء .. بعيد عن السياسة ، هو سر الحتم خليفة الذي رأس أول وزارة سودانية شعبية ترفض الظلم والاستبداد ... والتي كان يمكن لها أن تؤدي دورا عظيما خلافا في حياة البلد الشقيق .

ولكن سر الحتم خليفة آثر في اللحظة الحرجة الحاسمة أن ينسحب من الميدان خاذلا زملاءه ووزراءه ، ورضى بأن يصبح سفيرا في روما ثم في لندن ... ولذا كان من أول قرارات الثورة الجديدة تنحيته عن منصبه .

قابلت قائد الثورة الذي تسبقه سمعته الطيبة في مقر مجلس

الثورة بالقيادة العامة .

قال اللواء جعفر نميري : يخطيء من يظن أن ثورة أكتوبر قامت ضد جيش السودان .. انها هبت ضد الحكم الفاسد ... ويخطيء من يتصور أن قوات الجيش الآن يمكن أن تقف ضد ارادة الجماهير ... ان ثورتنا تهدف الى تحرير الشعب السوداني من الفساد الذى أصبح موضع نقمة الجميع ..

ويواصل اللواء حديثه فى هدوء : « لقد انتظرنا من الذين وثبوا الى الحكم بعد أكتوبر أن يقدموا لنا مثلاً طيباً على الروح الجديدة التى انبثقت فى صفوف الجماهير . ولكن للأسف كان يغمرنا الأسى ونحن نرى شجرة الثورة تصفر أوراقها وتذبل وتذروها الرياح ... لقد قتلت الأحزاب التقليدية أمل الشعب فى التغيير ، وأصبح رجل الشارع البسيط ، يطلب انقاذاً للبلاد مما غمرها من فساد .

وسألت اللواء جعفر النميري :

— وهل تعتبر ثورة مايو امتداداً لثورة أكتوبر ؟

وقال قائد الثورة فى حسم :

— طبعاً .. اننا نعبر عن ارادة الجماهير .. وتشكيل مجلس الوزراء الجديد يدل على أن الثورة حريصة أشد الحرص على اختيار عناصر جديدة لم تتلوث بالارتباط بالحكم القديم .

وواصل حديثه قائلاً :

— البعض يحاول تصوير ثورتنا بأنها انقلاب .. وهذا غير صحيح .. لأننا لانقوم بحركتنا محصورين فى اطار الجيش وحده .. ولكننا ننفتح تماماً على شعبنا الذكى الأصيل .. ونضع أهدافنا فى

خدمة الذين عانوا طويلا من الظلم والاستغلال .

ويقول يابكر عوض الله رئيس الوزراء :

— ان الاعتراف بألمانيا الديمقراطية يعبر عن أصالتنا وتقاليدنا العربية في تقدير موقف الأصدقاء .. ان ألمانيا الاتحادية كانت أنشط الدول الاستعمارية فترة حكم عبود ، وتصورنا ان موجة تدخلها سوف تنحصر في عهد مابعد الثورة ، ولكنها زادت نفوذا ، وأصبح رئيس مجلس السيادة ينادى بعودة الاعتراف بها .

— ان قنصلنا العام في بون الآن ، كان سفيرنا هناك قبل قطع العلاقات . الحكم المنهار كان يود أن يؤكد لهم أن شيئا لم يحدث ! ظاهرة أخرى تتميز بها الثورة .. هي الحسم السريع .

ان قيادة الثورة ومجلس الوزراء يدركون جميعا أن قوى الثورة المضادة في السودان والمنطقة كلها ترتبص في محاولة الانقضاض عليها . ولذلك فانهم يجابهون في صرامة ، يضربون أعداء الشعب في نفس الوقت الذي يمدون فيه أيديهم الى الجماهير .

انهم يحكمون بروح أكتوبر ، ولكنهم لا يمثلون وزارة « مصالح وطنية » كما كانت وزارة أكتوبر .. استفادوا خبرة من خطأ تكوين هذه الوزارة التي لم تستند الى قوة الجيش مع الجماهير .. ولذا استطاعت الأحزاب التقليدية أن تنقض على كل انتصاراتها .

هناك اتجاه واحد مميز للحكم الجديد .. اتجاه وطني تقدمي .

كنت أرقب حماس الناس في الخرطوم للتظاهر تأييدا لثورة مايو بشغف شديد ، كل الذين قابلتهم كانوا يعلنون رأيهم في حماسة جارفة .. وينتظرون اللحظة التي يعلن فيها وزير الداخلية موافقته

على قيام مظاهرات التأيد .

وكانت مظاهرة ٢ يونيو اختفاء بمرور سبعة أيام على الثورة هي بداية التعبير الشعبى الأصيل عن ارادة التغيير عند الشعب السودانى الذى فجر ثورة أكتوبر ثم فوجئ بأن الانتصار قد تحول الى هزيمة ... وان الآمال قد تبددت بمناورات الأحزاب التقليدية ، وحصر العمل السياسى فى غرف مغلقة وقيود روتينية .

والجماهير التى احتشدت فى ميدان أبو جنزير وتدفقت الى ميدان عبد المنعم ، أعادت الى الذاكرة مظاهرات أكتوبر ، وليلة ٩ نوفمبر الخالدة عندما سهر الشعب السودانى طوال الليل يدق الطبول ويردد الشعارات والهتافات ، حماية لثورته ، بعد أن سمع فى الاذاعة الكلمات التى قالها فاروق أبو عيسى وزير الدولة الحالى بأن « الثورة فى خطر » .

والناس يقارنون بين حالتهم اليوم وحالتهم عندما قوضوا حكم عبود عندما انفجرت ثورة أكتوبر كان سعر كيلو اللحم ١٧ قرشا ويبيع اليوم بخمسة وثلاثين قرشا ، وعلبة السجائر ارتفعت من عشرين الى ثلاثين قرشا .. والبنزين من ١٨ الى ٢٥ قرشا ، والأرز من ٦٥ مليما الى ١١ قرشا وزجاجة البيرة من ١٨ الى ٢٨ قرشا .. وهكذا .

صحيح ان الكادر الأخير قد رفع المرتبات ١٥ ٪ ولكن نظرة الى ارتفاع الأسعار توضح أنها قد تجاوزت هذه النسبة كثيرا ، والرابع هو التاجر الكبير المستغل ، الى جانب ان ميزانية الدولة قد تحملت عبء زيادة حوالى ١٥ مليون جنيه ، دون أن تقدم خدمة حقيقية للجماهير

لذا كان من أول قرارات ثورة مايو تخفيض أسعار الشاي والبن والملح وهي أساسيات في غذاء الشعب .. ومعالجة الموقف الاقتصادي علاجاً شاملاً ..

ومما دفع الشعب السوداني الى الوقوف في صلابه مع ثورة مايو الاحساس المخيف بأن الفساد قد بدأ يتسلل الى كل موقع ، حتى كاد يصبح أمراً طبيعياً ... أسماء كثيرة من المسؤولين أصبحت الأصابع تشير الى عمارات يمتلكونها ، وأرصدة ضخمة يحتفظون بها في البنوك ، بينما مرتباتهم لا تسمح الا بحياة متواضعة .. ولن نجعل من ذلك مجالا لضرب الأمثلة فهي معروفة لدى كل سوداني حاول أن يأخذ حقه من طريق طبيعي ، فأجبرته الظروف على دفع ما كانت تفرضه بعض الشخصيات .

وعندما يصبح الفساد حديث المجتمع، تكون الثورة هي المنقذ الوحيد والجمعية التأسيسية التي حلته الثورة لم تلعب أبداً دور الرقابة الشعبية ، ولم تمارس سلامة التعبير عن ارادة الجماهير ، ولم تحفظ للديموقراطية مظهرها الشكلي وانما استجابت لمؤامرة أدت الى قرارها بحل الحزب الشيوعي وطرد أعضائه من الجمعية ، وهو ما رفضته المحكمة العليا .

أكبر ما كانت تهدف اليه الجمعية التأسيسية هو اقرار « الدستور الاسلامي » الذي كان يؤدي بالحثم الى تعقيد المشكلة مع الجنوب والى خلق نظام متخلف باسم الأمامة الاسلامية يرتبط بالاستعمار ارتباطاً وثيقاً .

وثورة مايو تتميز بموقفها الحاد الصريح من « الديموقراطية

الليبرالية » التي انتهكت ارادة الشعب وأجهضت ثورة أكتوبر .. وجعلت الديمقراطية في خدمة الرجعية الاقطاعية والمالية المتركة في الأحزاب التقليدية .

الديموقراطية الليبرالية أثبتت عدم صلاحيتها في السودان ، كما في سيلان عندما حاولت مسز باندرايكا أن تسيطر القوى التقدمية على الحكم عن طريقها ولكنها انتهت الى خروجها من الحكم وسيطرة القوات الرجعية .

وقد أعطى ذلك لشعوب الدول النامية خبرة سياسية ثمينة .. هي أن الثورة الشعبية لا يجوز لها أن تتعاون مع أعدائها .. أو أن تمنحهم فرصة التسلط على الحكم تحت شعار « الديمقراطية » أو اغراء « المصالحة الوطنية » .

الديموقراطية الاشتراكية ، أو ديموقراطية قوى الشعب العاملة القائمة على الحقوق الديموقراطية للجماهير الثورية هي ما تتبناه ثورة مايو ، وتحاول بها أن تعيد للجماهير صوتها وارادتها .

وثورة مايو تتميز بأصالة وجهها الاشتراكي .. كل الذين شاركوا فيها بالتخطيط أو التنفيذ أو العمل المسئول ، لم يعرف عنهم في تاريخهم أى انحراف لليمين .. ولم يسهم واحد منهم في دعم سلطة الرجعية أو الأحزاب التقليدية .. ولهم جميعا دور واضح في دفع الاتجاه الاشتراكي التقدمي في السودان .

واذا كانت ثورة مايو قد حرصت على تأكيد دور الشعب السوداني في تحرير الأرض العربية من الصهيونية والامبريالية العالمية، فانها تدرك بذلك ان استمرار الثورة في السودان يرتبط

١٧٩٠

تماما بإحباط المؤامرة الاستعمارية المحيطة بأرجاء الوطن العربي أو المتسللة الى داخل أرضه .

ونحن لا نريد أن نقلل من الأخطار التي تجابه ثورة مايو .. سواء من الداخل أو الخارج ..

زعماء الطائفية من الأنصار لم يسعدهم نشوب ثورة مايو التي تهدد مصالحهم ، حيث يسخرون الجماهير في أرضهم ، ويحاولون أن يغرّقوها في غيبات مخيفة متخلفة متنافية مع تعاليم الدين .. ولذا فإن الثورة قد أخذت منهم موقفا حازما منذ اللحظة الأولى أدت الى اعتقال الصادق المهدي ، وهو أول أمر اعتقال يصدر على زعيم من زعماء الأنصار وانتهت الى ردع حركة التمرد في جزيرة آبا ومصرع الهادي عبد الرحمن عند محاولته الهرب على حدود أثيوبيا .

وثورة مايو تختلف عن أي حكم سابق في السودان ... لأنها تعزل اليمين في صراحة ، وتبني موقفا اجتماعية واضحا لا يسمح لها بالتردد أو المهادنة .

قادة الثورة والجماهير يعرفون أن أي انكسار لثورة مايو لا بد

يزداد ويتماسك يوما بعد يوم ، بل ساعة بعد أخرى .. حيث تبينت كل القوى والشخصيات والتنظيمات التقدمية أن هناك التحاما عضويا ومصريا بينهم وبين قادة الثورة .. وأصبح التعاون الوثيق المطلق هو أسلوب الأغلبية المتطلعة الى الحق والعدل الاجتماعى والانسانى فى مواجهة الأقلية الرجعية المثبثة بالتقاليد البالية والاستغلال الشديد .

وتواجه ثورة مايو أخطارا أخرى قد تحركها القوى الاستعمارية على الحدود المشتركة للسودان .. ولكن كل هذه الاخطار سواء فى الداخل أو الخارج لا يمكن أن تشكل تهديدا حقيقيا لاستمرار الثورة ، طالما هناك وحدة أصيلة بين الثوريين ، وطالما أن الثورة لا تعتمد على الأسلحة وحدها .. ولا تستمد سلطتها من قوة الجنود فقط .. ولكنها كما أعلنت منذ اللحظة الأولى ترتبط بالشعب .. وتعمل على تشكيل تنظيم شعبى ديمقراطى يحمى وجودها ويعمق جذورها وهنا يتساءل البعض :

كيف ستكون الصورة فى المستقبل ؟

وماذا ستكون العلاقة بين مجلس الثورة والحكومة والتنظيم السياسى المحتمل ؟

وهى أسئلة لا تكون ملحة — فى رأى — الا بعد الانتهاء تماما من تأمين الثورة فى كافة المجالات ، وهو الهدف الذى يجمع عليه اليوم كل الثوريين والتقدميين .

ومع ذلك فانه كانت هناك خطوات ايجابية فى خلق تنظيم سياسى تراكى ديمقراطى ممثل فى « الجبهة الديموقراطية » التى كانت

تضم كل الأحزاب والقوى والشخصيات الوطنية التقدمية ، والتي أعدت فعلاً مشروع برنامجها وكان مقرراً أن تظهر علناً قبل نهاية هذا العام ، لتسبق اجراء انتخابات الجمعية التأسيسية في فبراير .

« والجبهة الديمقراطية » هي التحول الأساسى فى محاولات اللقاء الثورى التقدمى بعد وصول « التجمع الديموقراطى » إلى طريق مسدود .

ان اضافة كلمة « الديمقراطية » الى اسم السودان ليصبح « جمهورية السودان الديمقراطية » لا يعبر عن تغيير شكلى ، وانما يعبر فعلاً عن تحول موضوعى فى بناء المجتمع .

ان ثورة مايو تنهى خدعة « الديمقراطية الليبرالية » التى تترك الحكم يتعثر فى يد الرجعية المتسلطة وتضيف الى الوطن العربى قوة تقدمية ثورية .. وتحقق للمجتمع السودانى وجهها اشتراكيا ديموقراطيا واضح المعالم .

بل ان ثورة مايو تفرض نفسها على الوطن العربى كحدث من أهم الأحداث التى أشرقت وسط ظلام النكسة ... وأنهت الاعتقاد بأن صدمة الهزيمة المفاجئة قد أصابت الجماهير العربية بشلل مؤقت سوف يعجزها عن السير لمدة طويلة ، ويدعها فريسة محتملة لنكسة اجتماعية وسياسية .

ثورة مايو أثبتت أنها اضافة جديد للنضال الوطنى التقدمى الذى فجرته اليقظة الشعبية بعد غف الهزيمة العسكرية .. وبدلاً من اليأس انطلقت ثورة شعب فلسطين ، وتبعها ثورة شعب السودان واذا كان لكل من الثورتين طبيعة مختلفة وخصائص مميزة ، الا

أنه يجمعهما خيط واحد .. هو الانفجار بعد النكسة ، فى وقت ، كاد يتسرب فيه اليأس الى كل شىء وانهما معا تحملان وجهها تقدما مشرقا . ورغم أنه لم تكد تمضى الا أسابيع محدودة على ثورة مايو ، الا أنها أبرزت معانى ودلالات هامة ، يحسن بنا أن نقف عندها طويلا ، حتى تتبين سلامة طريق الثورة السودانية .

أولا : أعظم ماتقدمه لنا ثورة مايو هو احتجاجها العملى على وقوع آمال الشعب السودانى وأهدافه التى ثار من أجلها فى أكتوبر ١٩٦٤ فريسة فى يد رجال الأحزاب التقليدية ، الذين لم يعرفوا السياسة الا بأسلوبها القديم ... أسلوب الحكم الروتينى الذى يخدر المشاعر بديموقراطية ليبرالية مظهرية تطفو على السطح ، وتترك العفن راسبا فى الأعماق .

رفض ثورة مايو لهذا الأسلوب من جذوره .. دليل على أنها ثورة شعبية ، تريد أن تحرث المجتمع حرثا جديدا ، لتنمو فيه بذور التقدم والحضارة .

ثانيا : الاستجابة الشعبية السريعة لأهداف ثورة مايو ، والتكتل الجماهيرى الراضخ لحماية الثورة وتأييدها يأتى أساسا من ضيق الشعب بمظاهر الفساد التى لم تعد هناك حتى محاولة لاختفائها أو التستر عليها .

ذلك يؤكد أن الفساد الاجتماعى هو الذى يقوض نظام الحكم ، ويخقه بالاحتجاج والكراهية ..

ثالثا : العلاقة الوثيقة التى ظهرت وتواصلت بين القوات العسكرية والقوات الشعبية منذ اللحظة الأولى ، تفسر لنا أن ثورة مايو ليست

انقلابا عسكريا محدودا ، ولكنها ثورة شعبية متفتحة ... يحى فيها الجيش سلطة الشعب التى سلبت منه بعد أكتوبر .

ومجلس الثورة السودانى يتميز بأن بعض أعضائه من الضباط الذين مارسوا السياسة منذ مطلع الشباب عندما كانوا طلبة فى المدارس الثانوية أو الجامعة ... والبعض الآخر منهم لحقت به أخطار السياسة ، فتعرض للاعتقال أو الفصل أو التشريد .

ولذا فانهم ينسجون كل أفكارهم بالسياسة ، ويحرصون دائما على ألا تعزلهم الروح العسكرية عن تدفق الحياة الشعبية .

رابعا : تبينت الثورة منذ اللحظة الأولى انها يجب أن تعتمد على قوة سياسية منظمة ... وهذا التنظيم السياسى واضح أنه لن يعتمد على الأحزاب التقليدية .

تعتمد الثورة حاليا على التنظيمات الجماهيرية والسياسية التى لم تتلوث بفساد الحكم ... والتى طرحت مهام التغيير الاجتماعى منذ اعلان الاستقلال مطلع عام ١٩٥٦ ، ثم قادت ثورة أكتوبر ١٩٦٤ ذات الأهداف الوطنية الديمقراطية .

واذا كانت ثورة مايو تهدف الى تكوين تنظيم سياسى يضم قوى الشعب العاملة صاحبة المصلحة الحقيقية فى التطور الاجتماعى والاشتراكية ، فانها لن تجد ذلك أمرا عسيرا .

يتميز السودان بوجود قوى سياسية تقدمية ذات تاريخ نضالى واضح ، يمتد أثرها ونفوذها الى التجمعات العمالية والزراعية والمهنية ..

هذه القوى هى الحليف الطبيعى للثورة ، وهى الأساس الذى

يمكن أن تتبلور حوله كل القوى التقدمية التي تشكل جبهة ديموقراطية سليمة ..

ان حرص الثورة على وجود تنظيم سياسى تقدمى وديموقراطى ، هو حرص منها على تأصيل الثورة وتعميق جذورها الشعبية ... وهو ما يضمن لها الاستقرار والاستمرار .

خامسا : كثير من الثورات تبدأ خطواتها الأولى متأرجحة ومهتزة، ولكن ثورة مايو تتميز بأنها تواجه الواقع فى ثبات ، وترسم خطوات المستقبل فى وضوح لأنها تعتمد على الرصيد النظرى للحركة الثورية السودانية .

ذلك يتضح فى موقفها من مسألة الجنوب التى تحل مشكلة مزمنة، وموقفها من عزل أعداء الثورة وسد الطريق أمام تسربهم الى مركز السلطة ، ووضعها حولا للمشاكل الاقتصادية ، وحرصها على اعادة تكوين الجيش الوطنى على أسس سليمة فى التسليح والتدريب والتنظيم هذا دليل على أن ثورة مايو لم تنبت فجأة ، ولم تنفجر كفورة عاطفية ... وانما كان هناك تمهيد فكري وتنظيمى سابق لها ، أدى الى وجود أبحاث ودراسات لكثير من المشاكل ، أسهم فيها عدد كبير من المثقفين والمفكرين السودانيين .

سادسا : ان ثورة مايو لم تتردد لحظة فى الاعلان عن وجهها الاشتراكى ، ثقة منها فى هذا الميدان الانسانى ، الذى يحقق أحلام الجماهير اذا أحسن تطبيقه ، ولم تثقل الأخطاء والانحرافات خطاه . ان التطبيق الاشتراكى هو الدماء التى تتدفق فى عروق الثورة .. وكلما كان التطبيق سليما ومرتبطا بالواقع السودانى ، ازدهرت

حيوية الثورة وانطلقت طاقات الشعب .

وتصريحات قادة ثورة مايو تؤكد انهم علميون لا ينجرفون الى أفكار عاطفية ، ولا ينفرون من فلسفات انسانية عالمية ، ولا يتعدون شعرة عن أرض السودان أو واقع الشعب السوداني .

ولذلك فإن ألفاظ التفاضل نسمعها في كل مكان مؤكدة بأن الاشتراكية لن تكون مبدأ مفترى عليه في السودان ، لأنها تطبق بعقول اشتراكية وأفكار واقعية وأصالة سودانية .

سابعاً : تعتبر ثورة مايو تأصيلاً للاتجاه الاشتراكي في الوطن العربي ... الذي يعمل على رفع قبضة الاستغلال عن البشر ، ومنحهم كل الفرص المتاحة للتقدم الاجتماعي .

وبذلك تزداد صلابة الوطن العربي في مواجهة مؤامرات الامبريالية التي كثيراً ما تجد سبيلاً لتسرب الى الدول التي لا تخضع السلطة فيها الى قيادة ثورية واعية . وثورة مايو تعيد الحيوية من جديد الى شعارنا الخالد « وحدة القوى التقدمية والثورية » .

هذه هي بعض المعاني والدلالات التي أبرزتها ثورة مايو السودانية .. تؤكد أن ظلام النكسة لا يمنع اشراقة الثورة ... وان الاشتراكية في دولة نامية هي حلم الجماهير المتعطشة الى العدل الاجتماعي وحياة العصر ... وان الجيش الوطني ينسج أحلامه فوراً مع الجماهير الشعبية في تنظيم سياسي يجعل من عمله العسكري انتصاراً شعبياً له جذوره التي تضمن له الدوام والحيوية والانتصار . وهكذا نجد في ثورة السودان تحدياً آخر للنكسة ولمحاولات الامبريالية بتحظيم كل ما هو تقدمي ومشرق وأصيل في الوطن العربي

تلال المشاكل

يخطئ من يتصور أن وصول الثورة الى الحكم يعنى اختفاء كل الأخطاء والانحرافات بلمسة سحرية ، وفتح صفحة جديدة ناصعة البياض ..

الثورات فى شهورها الأولى تكون متخمة بالأعباء والمسئوليات ... تحاول جهدها أن تتخلص من قيود الماضى ، لتنتقل بعناصرها وطاقنتها الواعية الى الأمام .

وثورة مايو انتصرت بعد فترة طويلة من الردة الرجعية فى البلاد ... وتحركت قواتها وليست عندها دراسة كاملة وافية لكل المشاكل .

صحيح ان استراتيجيتها شديدة الوضوح .. وانها أعلنت طبيعتها الديمقراطية الواعية للاشتراكية منذ اللحظة الأولى ، وفصلت بين الرجعية الطائفية والتقليدية وبين جماهير الشعب العاملة والقوى الاشتراكية للمرة الأولى فى تاريخ السودان .

ولكنه صحيح أيضا أن هناك تلالا من المشاكل تحتاج فى مواجهتها الى جهد ودقة .. وشجاعة أيضا .

أولا - الثورة المضادة

أخطر ما يواجه الثورة .. أى ثورة .. هى عناصر الثورة المضادة

.. وهى فى السودان واضحة فى رجال الطوائف المستفيدين من استغلال الدين ، وقادة ونواب الأحزاب التقليدية الذين جعلوا الحكم مغنما وفائدة وارتبطت مصالحهم بالتنمية الرأسالية ... والتنظيمات الرجعية المساندة لهؤلاء مثل الاخوان المسلمين . والقوى الرجعية لا تنحصر فى حدود أفراد أو جماعات فقط .. ولكنها فى الحقيقة مصالح مادية اقتصادية واجتماعية ترتكز على قواعد خارجية فى مقدمتها الولايات المتحدة ودوائر الاستعمار الحديث .. وقواعد داخلية تتمثل فى الهيئات والطبقات التى ذكرتها والتى تعتمد بدورها على رجال الادارة الأهلية وبعض كبار التجار والاداريين والمثقفين الذين أبعدتهم الثورة أو الذين مازالوا يعملون مستخدمين ألوان التمويه .

وقوى الثورة المضادة لا يمكن أن تهدأ أو يصيبها اليأس .. انها تنتهز كل الفرص المتاحة للطعن والاساءة بالكذب والتضليل ... وقد تعرضت ثورة مايو لبعض هذه المحاولات .

حاولوا التشهير بأن الثورة ملحدة ومعادية للدين .. ولكن سرعان ما طاش هذا السهم بعد أن اكتشف بسطاء الناس بأنفسهم ان الثورة تحقق لهم مطالبهم العاجلة فى الماء والتعليم والعمل .

وحاولوا الوقيقة بين مصر والسودان بعد لقاء الثورات الثلاث ٢٣ يوليو ، ٢٥ مايو ، أول سبتمبر ... ولكن مبادرة مجلس قيادة الثورة ووزارتى الداخلية والارشاد القومى والهيئات والتنظيمات الشعبية جعل من نجاح هذه المحاولات سرايا صعب المنال .

ولن تتوقف المحاولات عند ذلك .. ولا أريد هنا أن أمضى فى

هذا الحديث الذى يمكن أن يتجدد كل يوم بلهجة وأسلوب آخر .

ثانيا - مشكلة الجنوب

أصدرت ثورة مايو بيانا فى ٩ يونيو خاصا بالجنوب ، حدد فيه الحكم الذاتى الاقليمى فى اطار السودان الواحد . وأيد الجنوبيون ذلك وساروا فى مظاهرة كبيرة يوم ١٥ يونيو تعبر عن تأييدهم .. وكانت زيارة الرئيس جعفر نميرى للجنوب أيضا مظهرا من مظاهر نجاح سياسة ثورة مايو .. وتقرر أن تكون هناك زيارات دورية مستمرة للوزراء والمسؤولين .

وأرسلت الحكومة وفدا الى الدول المجاورة لشرح السياسة السودانية الجديدة .. وسافر وفد خاص الى البابا أيضا ... ونقلت الحكومة بعض ضباط البوليس من الجنوبيين الى هناك ، ومنهم أول جنوبى يشغل وظيفة قومندان بوليس فى مديرية . واستقبلت الكلية الحربية وكلية الشرطة عددا كبيرا من الجنوبيين . ومع ذلك فان الجنوب ما زال أبرز مشكلة تواجه الثورة ... وبيان ٩ يونيو لم يحدد شكل الحكم الذاتى ولا الفترة الزمنية المطلوبة لتحقيقه ..

ولكن بيان نميرى الذى أذاعه يوم ٩ يونيو يقول :

« اننا نرى انه من الأهمية بمكان عظيم نمو حركة اشتراكية ديموقراطية فى الجنوب تضع يدها على يد الحركة الثورية على قدم المساواة والأخاء فى سبيل تحقيق أهدافنا التقدمية المشتركة ، ولتقلد تلك الحركة التقدمية فى الجنوب زمام السلطة فى هذه الرقعة

العزيزة من بلادنا لوقف النشاط الاستعماري كشرط أساسى فى تطبيق المعنى السليم لمبدأ الحكم الذاتى الاقليمى .
« ان النجاح الفعلى فى حل مشكلة الجنوب لا يقتصر آثاره على بناء الوحدة الوطنية السودانية بل تمتد الى النطاق العربى . فالسودان الموحد هو تعبير عن التحالف الوثيق بين حركة التحرير الوطنى العربية وشقيقتها الأفريقية » .

ثالثا - التنظيم السياسى

يعتبر موضوع التنظيم السياسى أكثر المواضيع التى تجابه ثورة مايو أهمية وحساسية أيضا .. فانه لا يمكن التقليل لحظة من أهمية وجود تنظيم سياسى يوسع قاعدة السلطة التى يتحمل عبئها كله مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء .
والديموقراطية الاشتراكية ترتبط أساسا بوجود تنظيم سياسى صلب تتوفر فيه ديموقراطية وحرية أصيلة .
ولا يخفى أن هناك جهات نظر مختلفة تتبناها القوى الاشتراكية لا نود أن نتعرض لها هنا بالتفصيل .
نستطيع القول بأن الخلافات التى طرحت للمناقشة فى الصحافة وفى الاجتماعات الشعبية تتلخص فى وجهتى نظر رئيسيتين أولاهما :
أن يقوم تنظيم سياسى واحد تندمج فيه كل التنظيمات التى أسهمت فى العمل الثورى قبل الخامس والعشرين من مايو . وثانيهما أن تجمع كل القوى الثورية فى جبهة ديموقراطية تمثل فيها وجهات النظر المختلفة فى اطار ميثاق كامل لمرحلة الثورة الديموقراطية فى البلاد .

ويميل أصحاب الرأي الأخير الى ضرورة طرح ميثاق الثورة الديمقراطية لجماهير الشعب أولا واجراء مناقشة عامة على النطاق الوطنى نحوه ثم تأتى الخطوات التنظيمية لاحقة لهذا العمل الفكرى .
 . ان الوصول الى حل جماعى مشترك لقضية التنظيم السياسى يرمى أساسا متينا لانطلاق طاقات القوى الثورية ، ويخلق فى الدول النامية المتحررة نموذجا جديدا للعمل السياسى التقدمى .

رابعا - مقاومة الانحراف

أشد الطعنات التى وجهت لنظم الحكم السودانى المنهارة سواء حكم الديكتاتورية العسكرية أو الأحزاب التقليدية كانت الفساد والرشوة واستغلال النفوذ .

والشعب السودانى الذى يتميز بالبساطة الشديدة ، يرفض فى غضب محاولات الاستيلاء على جهده وعرقه بالسرقة والرشوة ...
 وفى السودان كما ذكرت لا تعيش الأسرار فى الظلام .
 الأحزاب أفسدت الجهاز الحكومى وحولته الى آلة طيعة لخدمة الوزراء وكبار المسئولين .. كما أفسدت جهاز الخدمة المدنية وحولته الى أداة لقمع الشعب .

وثورة مايو تعمل على بناء جهاز دولة حديث .
 ولكن ما زالت هناك عناصر خطيرة ومشبوهة فى مستويات عليا ودنيا ، يجب أن تصل اليها يد التطهير حتى توضع الكوادر الثورية ذات المقدرة والكفاءة فى مراكز السلطة والمسئولية .
 وفى تقرير أعدته لجنة ميثقة من مجلس قيادة الثورة والوزراء

طالعت هذه الكلمات القيمة :

« نحن فى مرحلة التحول والدعوة لبناء الاشتراكية يجب علينا أن ندعو لقيم المجتمع وتمكنها من الرسوخ والاستقرار .

١ - احترام العمل وتقديسه فى كافة المستويات .

٢ - المحافظة على أموال الدولة والأموال العامة وحمايتها بشتى الطرق والوسائل وأن تضرب العناصر القيادية مثلاً فى ذلك .

٣ - التحرر من الذاتية والأنانية والأغراض الاجتماعية التى تدور فى فلكها والتفكير والتصرف فى جو من الشعور بالرابطة الاجتماعية. وكل هذا لا يتم ولا يمكن للقيم الاشتراكية أن تنمو وترسخ الا :

١ - بالقدوة التى تتمثل فى سلوك القادة والمتصددين لدعوة الجماهير وتعميق مفهوم النقد والنقد الذاتى وان مقياس الاخلاص الثورى هو الأداء المسئول للواجب وليس التظاهر بالسلطة .

٢ - ممارسة الديمقراطية أسلوباً لا بديلاً له وفى جميع المستويات لنشر القيم الاشتراكية ولاقتلاع القيم الفاسدة وعن طريق الديمقراطية يمكننا كشف كل ماهو بال ومعوق وفتح آفاق جديدة .

٣ - أن تقوم أجهزة الارشاد والتربية بدورها فى تعميق المفاهيم والقيم الاشتراكية فإن مصيرها يتوقف على ايمان الانسان الفرد بها ، وممارسته لها فى حياته العامة والخاصة . وهذا يعتم على جميع الثورين والاشتراكيين القيام بهذا الدور فالعمل الثورى لا يقوم به الا ثوريون مؤتمون والاشتراكية لا يعمل لها وبينها ويحافظ عليها الا اشتراكيون ..

خامسا - الموقف الاقتصادى

تركت الأحزاب التقليدية السودان والاقتصاد يهبط الى الحضيض والمجتمع يشرف على الافلاس والفرد يعانى من الضيق والبطالة معاناة شديدة .

ولا يجوز أن يجرفنا الأمل الى تصور أن حل مشاكل السودان الاقتصادية أمر يسير .. فان الاستعمار قد ترك السودان بلا صناعة ولا طرق للمواصلات ولا مشروعات للرى ولا زراعة متطورة . كان الاستعمار الجديد يحبس كل أمل فى قفص من القروض ذات الفوائد العالية التى يصرف معظمها فى مشروعات لا تفيد ، ويستهلك جزء كبير منها فى الميزانية الجارية للدولة وفى الصرف الاستهلاكى . وقد بادرت ثورة مايو باتخاذ عدة خطوات أهمها توسيع وتوطيد العلاقات التجارية والاقتصادية مع الدول العربية والاشتراكية ، ووسعت قاعدة القطاع العام وخاصة فى المجال الصناعى ، وشجعت رأس المال الوطنى ، وغيّرت سياستها نحو القروض الأجنبية ، فاشتترطت أن تكون لعمل مدرج فى الخطة وبفوائد محدودة ، ووضع سياسة استيراد لا تنفق فيها العملات الصعبة على السلع الاستهلاكية الترفيحية غير الضرورية .

ولكن طريق اصلاح الاقتصادى مازال طويلا يحتاج الى بذل جهود ايجابية مضمّنة . اذ أن القضية الجوهرية ، هى وقف عملية التنمية الرأسمالية البطيئة ودفع البلاد خطوة وراء خطوة فى سبيل التنمية المدنية غير الرأسمالية .

سادسا - الخدمات الاجتماعية

وتجابه ثورة مايو أيضا مسئوليات كبيرة من حيث تقديم التعليم، الخدمات الصحية، والارشادات الزراعية، والتنمية الدينية الجماهير الشعب الذى مازال يعاني من العطش والجهل - الأمية ٨٣٪ والمقيدون في المدارس فوق ١٠ سنوات ٣٨٪ - والمرضى حيث تكاد تنعدم الخدمات الصحية الضرورية في أقاليم السودان البعيد .

تلال من المشاكل تعترض طريق ثورة مايو لايحوز لنا مطلقا أن نهون منها أو نعتبر أنها سوف تذوب بحرارة الحماس والاخلاص وحدهما ..

ثورة مايو تحتاج دائما الى دراسات علمية وثورية وكادر ملتزم يقوم على تنفيذ هذه القرارات .

جعفر نميرى *** يتحدث

قابلت الرئيس اللواء جعفر نميرى بالقاهرة أثناء حضوره مؤتمر دول المواجهة واجتماع القمة الثلاثى - مصر والسودان وليبيا - طرحت كل ما يحمله صدرى من أسئلة ، وما يؤرق نفسى من هموم قابلى جعفر نميرى فى فترة كان مفروضا الا يلتقى فيها بزائر .. فترة نصحه زملاؤه بأن ينتهزها ليستريح قليلا من عبء العمل . وكنت مع الصديق محمد سليمان سفير السودان فى القاهرة ..

وليست هذه هى المرة الأولى التى يقابلنى فيها جعفر نميرى .. كانت المرة الأولى فى الخرطوم عقب ثورة مايو فى مكتبه بالقيادة العامة مع زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة .

واليوم وبعد حوالى تسعة شهور من الثورة ، واستقرار الأمور فى السودان ، وجدت أن السلطة لم تغير فى الرجل شيئا .. الزوار الذين أقبلوا عليه فتحت لهم الأبواب فى يسر ، وهو فى ثوبه السودانى يحمل نفس الصفات التى تميز بها ، والتى تؤكد معانى الديمقراطية فى البلد الشقيق .

وبعد الاطمئنان على صحته التى كان يتحدث عنها فى بساطة شديدة .. قلت للرئيس جعفر نميرى :

• كانت ثورة ٢٥ مايو أول انطلاقة تحرر فى الوطن العربى بعد النكسة ، تعبيرا عن منطق رفض الهزيمة عند

جماهير الأمة العربية . ما هي النتائج الايجابية لهذه
الثورة بالنسبة لموازين القوى في الشرق الأوسط ؟

وقال جعفر نميري :

— اذا رجعنا الى مؤتمر القمة العربي الذي عقد في أغسطس
١٩٦٧ بالخرطوم وجدنا أن الشعب السوداني قد عبر عن رأيه تعبيرا
صادقا أظهر أصالته ، عند مقابلة الرئيس جمال عبد الناصر .. ان
الحكومات السابقة لم تكن تشكل قيادة سياسية للجماهير ، ولهذا
فهى لم تقيم مشاعر الشعب تقييما صحيحا حتى تكيف سياستها بتبعالاته
وظل الشعب صابرا حتى تفجرت ثورة ٢٥ مايو .. التى قامت
لتفرج عن مشاعر الشعب المكبوتة ، وتعبر عن ارادته فى مختلف
القضايا العربية والافريقية والداخلية ، وأصبحت همسات الناس
هى شعارات الثورة ..

والأثر الأول أو النتيجة الايجابية الأولى لثورة مايو ، هى ظهور
قوة تقدمية عربية تلتقى مع ثورة مصر التى كانت تمثل الدولة
التقدمية المحاصرة بالأعداء والقوى الرجعية .

ظلت مصر صامدة بالرغم من جمود الأوضاع فى الدول الافريقية
المحيطة . وأنا أعلم أن تهديدات وصلت الى الثورة المصرية من بعض
ممثلى الامبريالية العالمية تقول « البحر أمامكم والعدو وراءكم ،
ولا سبيل الا الخضوع » .

ولذا كان انفجار ثورة مايو بعثا للأمل فى استمرار مسيرة الثورة
المصرية الرائدة .. وقد تبينا ذلك من سرعة تجاوب مصر مع ثورة
٢٥ مايو ..

بعد ساعات من الثورة كنا نسمع تأييدا غير مشروط ..
واهتزت قلوبنا ونحن نسمع استعداد جمال عبد الناصر لاعطاء
أسبقية لمساندة ثورة مايو قبل أى تحركات فى منطقة القناة .
وهنا أحب أن أؤكد أن مصر لم تكن تعرف شيئا عن القائمين
بهذه الثورة أو أهدافها .. ولكن الحس الثورى الصادق لجمال
عبد الناصر هو الذى استطاع أن يكشف له من بياناتها الأولى
اتجاهها التقدمى الأصيل .

ولا أجد بأسا من ترديد مقالته لى الرئيس جمال عبد الناصر
(ثورة السودان أعطتني قوة وعزيمة ، ومنحتني أملا وثقة)
السودان كان ورقة فى أيدي الأعداء .. وبعد ثورة مايو أصبح
صديقا وسندا لثورة مصر ، ومزق من حولها الحصار .

وهذه هى النتيجة الايجابية الهامة فى تغيير موازين القوى .. الى
جانب أن ثورة السودان قد فرضت على الاستعمار أن يغير سياسته
فى افريقيا وخاصة بعد أن انتصرت الثورة التقدمية فى ليبيا والصومال
♦ وسألت جعفر نميرى عن رأيه فى الأسباب التى أدت
الى هذا التجمع السريع بين الثورات الثلاث فى السودان
وليبيا ومصر .. وما هى عوامل الجاذبية الحقيقية فى هذا
اللقاء المشترك ؟

وقال نميرى ملخصا الركائز التى تقوم عليها أية ثورة بأنها ارادة
شعب وقوات مسلحة مؤمنة ومعبرة عن هذه الارادة ، وقيادة
مخلصة أمينة ..

والثورات التى تتوفر لها هذه المقومات لا بد وأن تتجاذب ..

أما الثورات التي تفتقد بعض هذه العناصر ، فانها تعكس خلافات تمزق الجماهير .

ونحن في السودان نؤمن بأن قواتنا المسلحة في خدمة الجماهير وقوى الشعب العاملة ، تماما مثل ثورة مصر رائدة ، وثورة ليبيا الناهضة .. ومن هنا كان ذلك اللقاء السريع .

أما اذا ابتعدنا عن النظريات . فاننا نجد أشياء تاريخية عريقة تربطنا بمصر .. ان منير وحسين وفاروق وأنا — والثلاثة الأوائل هم مديرو مكتبه وسكرتاريته من زملائه الضباط الذين كانوا معه في المستشفى — جميعا لنا أقارب في مصر .

بل ان حسين كان له أخ في مصر لم يره الا في هذه الزيارة .
واذا أضفنا هذه العلاقات الانسانية التاريخية الى المصالح الاقتصادية المشتركة ، والثقافة والعادات المتحدة ، والتكوين الجغرافي المتكامل . وجدنا أنفسنا أمام أمر واقع يفرض علينا ضرورة اللقاء ، مادامنا نؤمن ونعمل من أجل مصلحة الجماهير .

♦ وقلت لجعفر نميري : تميزت ثورة مايو منذ اللحظة الأولى بوضوح تفكيرها الاشتراكي العلمي ، وحرصها على عزل القوى الرجعية عن ساحة العمل السياسي . هل يمكن توضيح القوى السياسية التي تعتمد عليها الثورة في قيادتها للجماهير ؟

وقال جعفر نميري :

— عندما انتصرت ثورة مايو وجدت الوضع القديم قائما على أشباح لا تظهر الا في الانتخابات فقط ، تعتمد على الطائفية والعشائرية

والقبلية ، دون أن تكون لها قاعدة سياسية قوية .
كان رجال الأحزاب المنحلة يعتمدون على تكتلات قديمة يسيطرون عليها بالوعود البراقة مستغلين ما يعانونه من جهل وعطش وجوع .
كانوا يحفرون لهم مثلاً آباراً بلا طلبات ، ويماطلونهم بالوعود كالسراب ، وأحياناً يوزعون آلات بئر واحدة على عدة آبار حتى لا تعمل واحدة منها ، ويظل الناس مخدرين بالحلم والأمل !
أذكر أنى قابلت واحداً من زعماء منطقة كردفان (قبيلة المسيرية الزرق) يسمى أحمد سيفين من أنصار المهدي أثناء زيارتي لهم وفوجئت به يقول لى :

« لما جاءت ثورتكم كنا منكربين بيبك لأن جونا ناس جالوا اتتو ملحين .. وانت لو كنت ملحد ما كنت تجيب لنا مياه .. روح احنا معاك لحد الجبر » .

هكذا كانت تعيش الجماهير فى السودان أسيرة الضغط والاهمال .. وأما ثورة مايو التى أشرت الى وضوح نظرتها الاشتراكية العلمية فانها تعتمد على القوى السياسية صاحبة المصلحة فى بناء المجتمع الاشتراكى ، وهى المنظمات والهيئات التى تضم العمال والمزارعين والمثقفين الثوريين والرأسمالية الوطنية التى تنتشر وتعمل بنشاط واخلاص فى أرجاء البلاد .

وقد اقتربنا بذلك من قضية التطبيق الاشتراكى فى الدول النامية المتحررة ، حيث تنهج نهجاً جديداً .

• سألت جعفر نميرى : هل توجد أى حساسيات —
من ناحية الفكر — بين منطلق التفكير الاشتراكى فى

السودان ، ومنطلق التفكير الماركسى ؟

وقال جعفر نميرى :

— اننا نرتفع بمفهومنا للعمل السياسى فوق كل الحساسيات ،
واثقين أن ما نعمله من أجل الشعب السودانى لا يمكن أن يكون
منعزلا أو منبثا عن تراثنا وتقاليدنا وعاداتنا .. مؤمنين أيضا بأن
الاشتراكية العلمية واحدة ، ولكن تطبيقاتها هى التى تختلف تبعاً
لظروف كل بلد .

وفى هذا المضمار لا يجوز أن تتغاضى عما صرفه الاستعمار من
أموال وما قام به من دعاية مركزة ضد الفكر التقدمى .. موجهاً
الاتهام بالشيوعية لكل وطنى يطالب بالتححر الوطنى والتقدم والعدالة
الاجتماعية ..

وقال جعفر نميرى وهو يتسم ويشير الى السفير محمد سليمان :
— ان هذا الرجل عندما كان عضواً فى الجمعية التأسيسية كتب
عدة مقالات مستندا فيها الى آيات الدين والحديث والتاريخ
الاسلامى .. ومع ذلك فقد اتهم بالشيوعية لأنه كان يطالب بالتغيير .
وأنا شخصيا وجدت بعد الثورة أن لى ستة كروت فى الادارات
المختلفة تنهمنى بذلك أيضا !

هذا ما يدفعنى الى القول بأن ايماننا العميق بالدين الحنيف
ورسالته يجب ألا يجعلنا نساق وراء الدعايات الاستعمارية التى
تبذر الحساسيات وتخلق التناقضات بين القوى الوطنية التقدمية
وأفكار الاشتراكية العلمية .

♦ وسألت جعفر نميرى : هل ترفعون فى السودان

شعار « الوحدة الوطنية » أم شعار « وحدة القوى
الثورية » في هذه الظروف التي نجابه فيها جميعا ضراوة
الامبريالية الأمريكية والصهيونية التوسعية ؟

وقال نميرى :

— اذا قلنا « الوحدة الوطنية » فاننا نقصد وحدة القوى الثورية ،
ولا يمكن أن نسمح للرجعية بمكان في صفوفها .. وهذا موقف
مبدئي ..

وفي وضوح نحن نقول « وحدة القوى الاشتراكية » .. ونحن
نعرفها ونحددها من تجاربنا السياسية ووعى جماهيرنا .. والقوى
الرجعية المتخلفة لا تحمل طاقة ثورية تتيح لها النضال ضد الامبريالية
... وانما هي تلعب دور المهادنة والعمالة ولذا فانه ليس لها مكان
في صفوفنا . .

♦ وقلت للواء جعفر نميرى : اننا على بعد أيام من فصل
الربيع وهذا يقترب في ذهني دائما بندوة الربيع
للإشتراكيين العرب التي دعا اليها هوارى يومدين في
الجزائر في أواخر مايو ١٩٦٧ .

كانت هذه الندوة بادرة طيبة ، اجتمعت فيها لأول مرة
المدارس الاشتراكية المختلفة .. ودارت فيها مناقشات
جادة وألقيت أبحاث هامة ، ولكنها تبذرت مع العدوان
الذى غير كثيرا من الأفكار .. وأجبر عددا من التنظيمات
على مراجعة أيديولوجيتها . ما رأيكم في موقف الاشتراكيين
العرب في مختلف المدارس ، وأنتم في مركز القيادة

والتوجه في بلد تقدمى يبنى المجتمع الاشتراكى ؟

وقال جعفر نميرى :

— اننى أعتقد أن جانبا من الاشتراكيين فى الدول العربية قد بددوا طاقاتهم فى خلافات جانبية صرفتهم عن قضيتهم الرئيسية .. كنت أتوقع من الاشتراكيين على اختلاف مدارسهم أن يبدلوا مزيدا من الجهد فى توعية الجماهير للالتفاف حول الاشتراكية ، وتوضيح أخطار الامبريالية والاستعمار الحديث .

ولكننى ألاحظ تهافت بعض الاشتراكيين على السلطة باعتبارها أقرب طريق لنشر الاشتراكية ، وقد نجح هذا فى بعض الدول . ولكنهم وصلوا — مع الأسف — الى السلطة وهم غير موحدين فى الأسلوب الذى يسيرون به ، مما انعكس على الجماهير التى تمزقها الخلافات .. وأدى أيضا الى أن تصبح الاشتراكية فى بعض الدول مبدأ مفترى عليه !

وأعتقد أنه يمكن علاج هذه الحالة عن طريق تكرار عقد هذه الندوة التى جمعت صفوة الاشتراكيين فى الجزائر بصفة دورية .. وصولا الى وحدة القوى الثورية والتقدمية .

ومن المفيد أيضا تبادل الزيارات بين أعضاء نقابات العمال والمزارعين فى المستويات القاعدية وليس القيادية وحدها .. اننا نريد التحام القوى صاحبة المصلحة الحقيقية فى الاشتراكية على اتساع الوطن العربى ..

وأحب أن أطمئنك الى أن ندوة الجزائر لن تكون « بيضة ديك » ولكن ندوة ثانية ستعقد هذا الربيع أيضا خلال شهر مارس فى

وقال الرئيس نميري :

— نحن نصر وندعم بأن يكون لنا دور فعال في المنطقة الافريقية باعتباره تقديرا للعرب ونصرا لهم .. خاصة بعد ما قام به الاستعمار من حصار للثقافة العربية حال دون انتشارها في افريقيا . وقد بدأت تعود ثقة الدول الافريقية بالسودان مرة أخرى ، وخاصة بعد عدة مواقف ايجابية اتخذناها منها .

أولا : وضعنا في ميزانية الدولة جانبا خاصا لتحرير الدول الافريقية .

ثانيا : دفعنا متأخرات السودان التي لم تدفعها الحكومات السابقة في منظمة الوحدة الافريقية .

ثالثا : قررنا زيادة معاملتنا التجارية مع الدول الافريقية ، حتى ولو لم تحقق لنا كسبا ماديا .

اننا نهدف الى مقاومة التسلل الاسرائيلي — الامريكى في افريقيا . يكفى أن تعرف أن ١٣ دولة افريقية شاركت في هذا المؤتمر ، وكان طلبها المشترك هو فتح مكاتب لتعليم اللغة العربية فيها باعتبارها من لغات افريقيا الحية .

وقد تأكد حكام افريقيا بأن كل حديث عن اضطهاد في الجنوب خاطيء ، لأن المظاهرات التي استقبلتهم في الخرطوم كان جانب كبير منها من أبناء الجنوب .. وقد ساعد هذا الوضوح في ازالة بعض الأوهام التي أحاط الاستعمار بها جنوب السودان .

وتبين لنا أيضا أنه لا توجد مساعدات من هذه الدول للمتمردين ولكنها تأتي من الخارج عن طريق التبشير ومساعدة المتمردين من

شعبى وادى النيل أن يحقق بعض الانجازات فى هذا
السبيل ؟

وغلبت الحماسة على صوت نميرى وهو يؤكد :
- مصر لم تبخل علينا بشئ .. وشركة « ريجوا » مثلا حفرت
أكثر من ١٠٠ بئر قبل أن ندفع لها مليما من الحساب .. واقترحت
انشاء شركة سودانية مصرية لتوسيع العمل .. وسيصل السودان
٤٧ خبيرا زراعييا مصريا .. ويحضر للقاهرة ٢٠٠ خبير سودانى لدعم
التعاون الزراعى بين البلدين

وسحبنا الحديث عن التعاون بين البلدين الى الحديث عن
المشروعات الكبرى المنتظرة ، وتبينت أن الاتحاد السوفيتى يقوم
بتنفيذ مشروع « الرهد » لاصلاح ٣ ملايين فدان ، وانه يقدم
المساعدات والخبراء ، وقد أصر على أن يتم المشروع بأيد سودانية .
وقد قال اللواء نميرى ان تكاليف المتر المكعب فى بعض المشروعات
كان قد حدد بمعرفة البنك الدولى بمبلغ ٣٥ قرشا ، وبعد الدراسات
السوفيتية تبين أن تكاليفه لن تتجاوز ستة قروش ا

♦ وقلت للرئيس نميرى : يبدو أن التاريخ قد طوى نهائيا
وصف سيكوتورى للسودان فى فترة حكم عبود بأنه
« رجل افريقيا المريض » ، بعد اندلاع ثورة أكتوبر
١٩٦٤ ، وثبتت أهدافها وانطلاقها الى رحلة جديدة بشورة
مايو ١٩٦٩ .. وقد اجتمع خلال شهر يناير فى الخرطوم
مؤتمر قمة لدول شرق ووسط افريقيا . ما هى فى رأيكم
أهم النتائج التى حققها هذا المؤتمر ؟

الخرطوم ... وقد كلف مجلس قيادة الثورة وزارة الشباب باتمام اجراءاتها التنظيمية والادارية .

♦ ولما كنت أحد المتابعين في اهتمام شديد لرحلات الرئيس نميرى في الريف والمناطق النائية في السودان .
أقرأ خطبه وكلماته الثورية ، فقد سألته عن الهدف من هذه الزيارات التي يبذل فيها جهدا يحسده عليه الشباب .
وابتسم جعفر نميرى وبدا في عينيه أنه يستعرض شريط هذه الرحلات ثم قال :

— بعض المثقفين في السودان غرقوا في الآحاديث النظرية ،
وابتعدوا عن الواقع العلمي ، لأنهم لا يذهبون الى أماكن التطبيق .
وهذا مايجعلنى أخرج للريف لسببين :

أولا : حتى يرى المثقفون المرافقون لى بأنفسهم حقيقة واقعنا
ويقدروا على الطبيعة صعوبات التنفيذ ويعيشوا واقع الناس الذى
يشرى أفكارهم .

ثانيا : حتى يشعر أهل الريف بأنه توجد سلطة تسأل عنهم وترعاهم
ولا تضللهم كما كانت تفعل الحكومات السابقة .

وفى هذه الزيارات تحل بعض المشاكل العاجلة فورا ، وبعد العودة
للخرطوم تتحول الدراسات النظرية الى تطبيقية .

كذلك فاننا نعطى للسلطات المحلية صلاحيات لا مركزية ، ونمنح
بعض الذين يقومون بأعمال خارقة للعادة مكافآت مجزية .. مثل
المدرسين الذين رأيتهم يعقدون دروس محو أمية بلا مقابل .

♦ وسألت نميرى : وهل يمكن التعاون الأخوى بين

خلف ظهر الحكومات .. وفي بعض الدول المجاورة توجد مناطق خاصة للكنائس الكاثوليكية يمكن أن تهبط فيها الطائرات !
 • وقلت للرئيس نيمرى : ان ثورة مايو قد امتلكت من الشجاعة ما جعلها تعلن الحكم الذاتى لجنوب السودان منذ اللحظة الأولى .. فهل تعتبرون الموقف فى الجنوب اليوم أفضل وأكثر استقرارا منه بالأمس ؟
 وقال نيمرى صراحة :

— حدث تغيير ولكنه بطيء .. والآن يوجد اطمئنان ولا تقع حوادث تقريبا ، ونحن نسعى لوضع سياسة تنمية ، وقد أقمنا بعض صناعات للنسيج والأخشاب وتعليب الفواكه ومشروعات زراعة الأرز ان ما نطلبه هو خلق مجتمع اشتراكى فى الجنوب يحمل مسئولية الحكم الذاتى الاقليمى .

وكان طبيعيا أن ينتقل بنا الحديث الى مؤتمر دول المواجهة الذى حضرته السودان رغم عدم وجود حدود مشتركة بينها وبين اسرائيل .. وموقف السودان من قضية العدوان وحقوق شعب فلسطين واضح تماما .. وجنوده منذ النكسة يسهمون بدورهم فى خط المواجهة على القناة .. ولكنى أردت أن أسأل الرئيس نيمرى عن موقف الثورة السودانية فى السودان من القضية فى شمولها .

وقال الرئيس نيمرى — معبرا عن رأيه الشخصى على حد قوله :
 يجب ألا نهرب من الواقع القائم ، وهو وجود أكثر من مليونى يهودى فى المنطقة .. ونحن لا نطلب قتلهم أو القاءهم فى البحر .. كما أننا لا نطلب منهم أن يتحولوا الى لاجئين مشردين .. لأننا

نعرف عمق مأساة اللاجئين .

ولكننا نطلب أن تقوم في فلسطين دولة ديموقراطية عصرية تكون لها حكومة تقدمية واحدة .. واختلاف القوميات لا يقف سدا أمام تكوين دولة في هذا العصر .

اننا نرفض الصهيونية باعتبارها ايدولوجية رجعية وتنظيما متعاوننا مع الامبريالية الأمريكية له أهداف توسعية .. ولكننا لانرفض اليهود الموجودين في فلسطين .

اننا نعتبر الصهيونية الممثلة في حكومة اسرائيل تعمل على خلق التوتر والقلق في المنطقة ، واشعال الحروب والقضاء على السلام ، ومحاولة اسقاط النظم الوطنية التقدمية لاعادة سيطرة الامبريالية والاستعمار الحديث . بل اننا على ثقة من أنها تعمل ضد مصلحة جماهير السكان في اسرائيل أنفسهم .

ولذا فان على اسرائيل أن تنسحب قبل أن تتعرض المنطقة لخطر انفجار حرب كبيرة قد تهدد السلام العالمي .. لأننا نحن العرب لن ندعن للعدوان ولو بذلنا آخر قطرة من الدماء .

آخر صورة من السودان

وبعد أيام من هذا الحديث ، ذهبت الى الخرطوم استكمل الصورة قبل أن يصدر هذا الكتاب ..

ويبدو أن العمل السياسى لا يركن الى الهدوء فى السودان ..
تصورت أنى فى هذه الزيارة لن أشاهد فى الخرطوم ما شاهدته أثناء
ثورة أكتوبر ١٩٦٤ . أو خلال انعقاد مؤتمر القمة . أو فى اللحظات
الحاسمة والأيام الأولى لثورة مايو .

ولكنى منذ اللحظة الأولى فى المطار . تبينت أنى كنت واحدا .
وان حيوية العمل السياسى فى قمتها تتدفق فى أرجاء المجتمع الكبير ..
وتجذب اليها جماهير الشعب السودانى الذى يتناول السياسة فى
أحاديثه وسهراته ، كما يتناول الخبز اليومى .

ما أن استقرت عجلات الطائرة على أرض المطار . حتى انفجرت
عاصفة من التصفيق والهتاف . وتلفت حولى أبحث عن القادمين
الذين وقفت هذه الصفوف فى انتظارهم ترحب بهم .. ورأيت عند
سلم الطائرة الشفيع أحمد الشيخ ومعه مندوبو اتحاد نقابات العمال
السودانى . يستقبلون وفد عمال فيتنام .. ويتحرك الجميع الى قاعة
كبار الضيوف .

وقال لى الشفيع سكرتير اتحاد نقابات عمال السودان انهم
يستعدون لانعقاد المكتب التنفيذى لاتحاد نقابات العمال العالمى

ورأيت وفودا من مختلف أنحاء العالم تجتمع في فندق « الجراندي أوتيل » .

والاتحاد العام لنقابات العمال في السودان هو أحد هذه التنظيمات المناضلة التي تعبى قوة اجتماعية هائلة ، تساند اليوم ثورة مايو مساندة أصيلة .

وخلال الأيام التي أمضيتها في الخرطوم كان الاتحاد يعيش أياما زاهرة .. المكتب التنفيذي لاتحاد النقابات العالمي يعقد اجتماعه هناك لأول مرة في تاريخه خارج أوروبا .. وكان هذا انتصارا كبيرا لثورة السودان ... حيث احتشد ممثلو عشرات الملايين من العمال في الغرب والشرق . ليشهدوا بأنفسهم الدعم الشعبى الكبير لثورة اشتراكية جديدة في دولة هي قلب افريقيا .

وفي جلسة الافتتاح دخل الرئيس جعفر نميرى بخطوات نشطة يقفز سلم المنصة الرئيسية ليحيى القاعة التى التهمت بالتصفيق ويجلس بين رئيس الاتحاد العالمى من أمريكا اللاتينية وسكرتيره العام الفرنسى .. ومعهم الشفيع أحمد الشيخ ..

وفي القاعة كان يجلس أعضاء مجلس الثورة والوزراء يستمعون مع الجميع الى خطبة رائعة للرئيس نميرى تؤكد ثورته ووضوح فكره التقدمى واصالة اقتناعه بالدور الرائد للقوى العاملة .

وارتجت القاعة بتصفيق متواصل لمدة دقائق والجميع وقوف . وهم يسمعون رئيس جمهورية السودان يهتف بحياة اتحاد نقابات العمال العالمى . واتحاد نقابات عمال السودان .

والاتحاد العالمى يضم ثمانية اتحادات عربية . ليس من بينها اتحاد

٢٠٩

الجمهورية العربية المتحدة .. وأعتقد مخلصا أن غيابه عن هذه الأيام الحافلة لم يكن في مصلحة الطبقة العاملة المصرية . كما أنه كان محل تساؤل كبير من الذين يؤمنون بفكر الثورة المصرية التقدمي .

وما أظن أننا نجني ثمرة واحدة من الوقوف خارج هذا الاتحاد العالمي الذي يساند قضية الحق العربي مساندة واضحة أكيدة .. ولا أعتقد أن هناك سببا واحدا مقنعا يفرض الحذر على حركتنا الى هذه الساحة العالمية التي تموج بالنشاط والحيوية .

قال لى مندوب اتحاد العمال الايطالى ونحن نترقب مظاهرات العمال في شرفة الجرائد أوتيل أنه لم يتوقع كل هذه الحفاوة من الشعب السودانى . وان خطاب الرئيس نيرى كان تنويجا لنضال الطبقة العاملة .. وقطع علينا الحديث صوت الهتافات وهى تقترب .. عمال فى ملابسهم الوطنية أو الزرقاء يرفعون فوق رؤوسهم غابة من الأعلام . ويرددون شعارات ثورية .. والموكب طويل طويل .. يمتد الى مدى البصر .

وتذكرت مظاهرات اكتوبر .. ومظاهرات العمال يوم ٢ يونيو بعد أسبوع من الثورة .. وزادت ثقى بأن الطبقة العاملة السودانية هى الرصيد الأكبر لثورة مايو ، والضمان الأعظم لاستمرار انتصاراتها . وزاد اقتناعى أيضا بأن العمل السياسى فى السودان لا يمكن أن يركن الى الهدوء .. مادامت تحتضنه الجماهير .. ومادامت طاقاته تنطلق فى رحاب الشعب .

وكلمات جعفر نيرى فى قاعة الشعب أمام ممثلى عمال العالم تظهر رأيه واضحا فى قضية قوى الشعب العاملة اذ يقول :

— ان العاملين في بلادنا لا تشغلهم مطالب طبقتهم فحسب ، بل يتصدون لكل قضايا البلاد جاعلين من أنفسهم فرقة طليعية من فرق الثورة السودانية وقد وجدت ثورة مايو منذ يومها الأول في الحركة النقابية سندا قويا ومناضلا يقف صفا واحدا خلفها يشد من أزرها ويقفل الطريق أمام أعدائها .

وليست حفاوة الثورة السودانية باتحاد النقابات العالمى هى المظهر الوحيد لانفتاحها على الهيئات والتنظيمات الدولية والديموقراطية منذ أسابيع انعقد هناك مجلس السلام العالمى لأول مرة في تاريخه خارج أوروبا .. وأنشأ مكتبا دائما له في الخرطوم .. وهو المكتب الثانى له في العالم بعد مكتب هلسنكى .

وقدم مجلس السلام العالمى ميدالية « يوليو كورى » أعلى أوسته الى الرئيس نميرى كما قدمت ثورة مايو وساما رفيعا الى المجلس تسلمه بطل السلام الهندى « روميش شاندر » السكرتير العام للمجلس .

وعادت بى الذاكرة الى أيام الحكم قبل أكتوبر . عندما كان نشاط السلام محرما . واتحاد نقابات عمال السودان محظورا .. وآمنت أن تغييرا جذريا قد حدث في المجتمع السودانى .

والنشاط الحاضر ليس مقطوع الصلة بالماضى ولكنه استمرار لنضال طويل وتضحيات كبيرة حمل مسؤوليتها رجال في الجيش ورجال خارج الجيش .

واعتقد أن صفحات الكتاب قد أوضحت الدور الذى لعبه الضباط الأحرار في ستوات ما قبل الثورة ضد الرجعية التقليدية

التي أجهضت ثورة أكتوبر . واستولت على الحكم عن طريق
ديمقراطية ليبرالية مزيفة .

ولكنى أقف عند لحظة وفاء .. عندما توجه اللواء نميرى ومعه
بعض أعضاء مجلس الثورة الى منزل الشهيد الطيار صادق محمد
الحسن فى واد مدنى حيث زار أرملة الفريد وأسرته .

وجعفر نميرى لم يزر فقط منزل زميله الضابط الشهيد ولكنه
وقف فى خشوع أيضا أمام قبر صغير فى احدى قرى الجزيرة يضم
رفات أحد شهداء ثورة أكتوبر .

ومن أهم مايلفت النظر فى السودان اليوم ، الصلة الانسانية العميقة
التي تربط جعفر نميرى ورفاقه بجماهير الشعب البسيطة التي طالت
معاناتها واستبدت بها المأساة .

زاد اقتناعى فى السودان بأن « الانسانية والاشتراكية » خيطان
فى نسيج واحد .. وما أظن أحدا يختلف حول « انسانية » الاشتراكية
كنظرية وعلم للثورة والتغيير الاجتماعى . ولكننا أحيانا نحتاج الى
الاطمئنان لذلك خلال مرحلة التطبيق والبناء .

والتطور الاجتماعى لا بد وأن يحمل معه سعادة واستقرارا لأغلبية
الشعب التي طال اضطهادها والكسب من عرقها خلال أجيال طويلة .
واذا كانت قوى الامبريالية والاستعمار لاترك فرصة . للاساعة
الى التطبيق الاشتراكى فى أية دولة الا واتهزتها خلال دعاية مسمومة
تصرف عليها الملايين .. فان الارتفاع العام التدريجى لمستوى معيشة
الجماهير فى هذه الدول يحمل أبلغ جواب .. ولا تجد هذه الدعاية
عقولا تخاطبها الا الذين قلمت الاشتراكية أظافرهم ونزعت أنيابهم .

وثورة مايو أعلنت الاشتراكية منذ لحظتها الأولى وربطت مصيرها بنجاح التطبيق .. ولم تجعل كلمة « الاشتراكية » سلعة تجارية تحاول أن تربح بها جانبا من الرأي العام ، كما فعلت الأحزاب التقليدية التي أجهضت ثورة أكتوبر .

لم تعد « الاشتراكية » ستارا للتمويه والاختفاء .. ولكنها أصبحت نظرية ثوار مايو ، والعلم الذى يستندون اليه فى عملية تغيير المجتمع والنهوض به .

والمجتمع السودانى ذو طبيعة فريدة .. الصراع الطبقي فيه واضح وحاد .. ولكن العلاقات بين الناس لا تتحدد بالرأى والفكر .. وكثيرا مايجتمع فى سهرة واحدة اصحاب النظريات والاراء المتعارضة يسهرون معا .. ثم يشرعون أقلامهم لتبادل الاتهامات مع نور الصباح ويتميز المجتمع السودانى أيضا بالبساطة والديموقراطية .. المناصب لا تقيد أصحابها بمظاهر خادعة .. والأبواب ليست موصدة .. والناس لا تنتظر شهورا من أجل موعد . أو تعجز عن مقابلة مسئول .

وينفرد الشعب السودانى برغبة شديدة فى مناقشة السياسة ومتابعتها .. الأمر الذى رفع مستوى الثقافة السياسية بين أبنائه بصفة عامة .

وفى هذا المجتمع الذى لا يملك الانسان نفسه من الاعجاب به تشق ثورة مايو طريقها .

وحكم الأحزاب التقليدية المرتبطة بالرجعية الطائفية ترك الخزائن خاوية .. لم تكن هناك مبالغ كافية لصرف مرتبات الموظفين .. وكثيرا

ما تأخر الصرف أياما بعد أول كل شهر ؟
 واجه ثوار مايو هذا الموقف بنشاط شديد ، يلحظه المراقب في
 كثرة تحركات أعضاء مجلس الثورة والوزراء الى مختلف الدول
 لعقد الاتفاقيات واستيراد الخبرات .
 ويلتقى مع هذه الحركة النشطة الى الخارج .. حركة أشد نشاطا
 الى الداخل .

وكلما وجد الرئيس جعفر نميري وقته - في الخرطوم - خاليا
 من الارتباطات والمقابلات الرسمية تحرك مع قافلة من المسؤولين الى
 مناطق السودان المختلفة والناحية .

بعض هذه المناطق لم يشهد في تاريخه وزيرا أو مسئولاً .. ومن
 هنا تصبح زيارة رئيس الجمهورية ومعه عدد من أعضاء مجلس
 الثورة والوزراء حدثا تاريخيا .

زار نميري خلال شهور ما بعد الثورة كل مناطق السودان .. وهو
 يتحرك اليها - في رأيي - بدافع انساني .

أثناء خدمته في الجيش ، عاش في هذه الأقاليم مبعدا عن العاصمة
 .. ولأنه نشأ في أسرة شعبية تولد في نفسه الحرص الشديد على رفع
 قبضة الاستغلال عن هؤلاء الذين تشكل حياتهم مأساة هذا العصر ..
 ولأنه يفكر علميا فهو لا يريد أن يفصل النظرية عن التطبيق ، ولا يريد
 أن يكون التخطيط أحلاما بعيدة عن الواقع .

وجعفر نميري لا يسمح لحياة الخرطوم أن تسحبه ورفاقه بعيدا
 عن حياة شعبه .. وما أن سافر تيتو حتى كان جعفر نميري يستعد
 لرحلة يزور فيها كردفان للمرة الثانية .

وفي الساعة صباحا وصل جعفر نميرى ، وانتقل من عربته الى
عربة « لاندروفر » .. وتحركت قافلة تضم هاشم العطا وأبو القاسم
ابراهيم وأبو القاسم هاشم وزين العابدين ابراهيم من مجلس قيادة
الثورة والوزراء فاروق أبو عيسى ومرضى أحمد ابراهيم ومبارك
سنادة واييل البروعلى النوم، وعدد من كبار المسؤولين في الوزارات المختلفة
الطريق من الخرطوم الى واد مدنى هو الطريق - الوحيد -
المرصوف الذى يربط بين المدن الكبيرة فى مختلف أنحاء السودان ..
خرج الاستعمار مخلقا وراءه طرقا من تراب ، تجعل تجمع الشعب
والتقاءه أمرا عسيرا ، وتترك الجماهير أسيرة للتقاليد القبلية والطائفية.
والمسافة بين الخرطوم وواد مدنى حوالى ١٨٠ كيلومترا تقطعها
العربة فى ساعتين تقريبا .

ونظرت الى ساعتى .. توقعت أن نكون فى حوالى العاشرة تقريبا ،
واضعا فى ذهنى أن سرعة عربات « اللاندروفر » أقل من سرعة
العربات الخاصة .

وقلت لفاروق أبو عيسى ومبارك سنادة وصلاح مازن وكيل وزارة
الاسكان الذين زاملتهم فى العربة عن الموعد المحتمل لوصولنا
وابتسم الجميع .. وقال فاروق :

- انتظر .. ان رحلات الرئيس ذات طابع خاص .

ولم تكد تمضى دقائق حتى هدأت العربات من سيرها ثم توقفت
تماما .. ووقف جعفر نميرى يحيى جماهير احدى القرى الذين
احتشدوا على جانبى الطريق .

وفجأة ذبح أحد المزارعين خروفا .. وهذا من تقاليد السودانيين

عند الترحيب بالضيوف .

وامتدت الأيدي تطلب مصافحة قائد الثورة ورفاقه ولم يتردد نميرى لحظة في مصافحة الأيدي التي لم تلمس من قبل يد مسئول 1 والطريق الى واد مدنى يمتد عبر الجزيرة .. أغنى مناطق السودان ، حيث يزرع القطن والقمح والخضروات .. وتزرع الأرض عاما وتستريح عامين .. الأرض كثيرة والمساحات الزراعية شاسعة ، ولكن المشروعات التي تتيح زرع الأرض بصفة دائمة مازالت محدودة بل معدومة .

ومشروعات استصلاح الأرض في السودان لا تتكلف كثيرا ، ولكن الاستعمار لم يفكر في تنفيذها وآثر تعطيلها حتى يظل المزارع السوداني في فقره وتخلفه .

الجماهير تهتف : « للزراع .. مايو » « للعمال .. مايو » . « للتعليم . مايو » .. مسئوليات كبيرة تتحملها ثورة مايو ، ولكن النبت المخلص في أرض السودان ، سرعان ما ينضج ويثمر وتكررت هذه الوقفة القصيرة عشرات المرات . احترم رجال الثورة شعور المواطنين الذين غادروا دورهم ووقفوا على جانبي الطريق ، مهما كان عددهم محدودا .. لم تنطلق العربات في سرعتها ، وانما كانت تهدىء من سيرها أو تتوقف .. وجعفر نميرى ورفاقه لا يستقرون على مقاعدهم ، وانما يقفون على حافة العربة ، أو يقفزون الى سطحها

كان واضحا أن جميع سكان قرى الجزيرة المجاورة للطريق قد خرجوا لاستقبال موكب الثورة .. لم أشهد أحدا بعيدا عن المستقبلين

الدور أفرغت جميع سكانها وأصبحت خالية .
ولم أشهد شرطيا واحدا بين المزارعين السودانيين .. كانت هناك
عربة شرطة تلهث خلف الموكب ، وينزل منها الجنود ليجدوا أن رجال
الثورة والوزراء وسط الناس تماما .

ظاهرة أخرى أحب أن أقف عندها طويلا
الناس لم تتحرك حركة عفوية تلقائية .. كان دور الاتحادات
الجهادية واضحا في نظام الاستقبال .. في الشعارات .. في خطب
ممثلي المزارعين . في هذه القدرة الهائلة على تجميع الناس .
والاتحادات الرئيسية للمزارعين والشباب والعمال والنساء كانت
واضحة الأثر في كل قرية .

ونحن نعتبر الجزيرة أغنى مناطق السودان .. ويظهر ذلك جليا
في ملابس المزارعين البيضاء النظيفة .. وملابس النساء الملونة ..
وملابس أطفال المدارس ذات الزى الموحد .. ولن تجد رجلا حافي
القدمين أو امرأة بلا حذاء .

المستوى الاجتماعي مرتفع في هذه المنطقة عن بقية مناطق السودان
وفي البلاد التي توقف فيها الركب وأقيم سرادق صغير ليحمى
الضيوف من حرارة الشمس ، كان جعفر نميرى يقدم زملاءه أعضاء
مجلس الثورة والوزراء ليتحدثوا الى الجماهير كل بدوره .. واحد
في كل وقفة .

هاشم العطا يصارحهم بقوله انهم في بداية رحلة الى كردفان
وسيعودون الى الجزيرة مرة ثانية في زيارة طويلة ، ليصارحوا أهلها
بمسألة الناس في الأقاليم الأخرى ، ويتدارسوا جميعا مشاكل الشعب

في كل مكان لتحديد أسبقيات التنمية .

لاحظت أن أسلوب الخديعة بالوعود قد انتهى ، وبدأ عهد التخطيط العلمي ، والمصارحة بالحقيقة ، وإشراك الناس في المسؤولية عندما كان جعفر نميري يتجه إلى اللنش ، ليعبر به النيل الأزرق عائداً من مدرسته « حنوب » إلى واد مدني ، سمع البعض يهتف : « عاوزين كوبري »

والكوبري يبدو أنه ضرورة فعلاً لربط منطقة المدرسة بالمدينة .. ولكن نميري لم يبدل وعداً في الهواء .. ولكنه قال بصوت واضح : — كل شيء يخضع للتخطيط .. وهناك أسبقيات في مشاريع الإنتاج احساس الثورة العميق بأن مأساة أشد قسوة تستقر في أقاليم السودان البعيدة ، حيث العرى في الجنوب ، والعطش في الغرب ، جعل رجالها لا يتورطون في وعود تعذب الناس من الانتظار ، كما اعتاد رجال الأحزاب التقليدية أن يتلاعبوا بعواطفهم وآمالهم ، للحصول على أصواتهم في الانتخابات

الرحلة مازالت مستمرة .. الساعة تجاوزت الثانية عشرة .. وجوء الناس مشرقة بإبتسامة ترحيب .. العجائز من الرجال والنساء يهتفون وقبضاتهم في الهواء ، والأطفال أيضاً بأصوات رقيقة كالعصافير البعض يضرب الطبول .. ورجال يرقصون في مرح ونشاط . النغمة راقصة تختلف عن نغمة طبول ليلة ٩ نوفمبر ١٩٦٤ عندما خرج شعب الخرطوم في الشوارع يحمي ثورته بعدما سمع في الإذاعة أن ثورته في خطر .

مازالت الطبول تؤدي دورها في السودان ... عند الخطر ،

ساعة كاملة من مشارف المدينة الى الميدان الذى عقدت فيه
الليلة السياسية .

وبعد احدى عشرة ساعة فى عربة من الصفيح الساخن نزلنا الى
هذا السرادق ، وجلسنا فوق المنصة لتبدأ صفحة جديدة من صفحات
الرحلة .

والتفت لى الرئيس جعفر نميرى يسألنى :

— كيف الصحة ؟

وقلت صادقا :

— أشعر كأنى عدت شابا يتفجر حيوية .

والليالى السياسية مظهر من مظاهر الحيوية فى المجتمع السودانى ..
يطرب الجمهور لها ويحتشد ، وما يدور فيها يصبح حديث الناس فى
كل مكان .

وفى رحلتنا ، وصلنا الى الميدان الذى احتشدت فيه الجماهير
بعد رحلة احدى عشرة ساعة متصلة .. بعد حمام شامل من التراب .
كان حلم الجميع أن يضعوا رءوسهم تحت صنوبر ماء بارد ، يزيل
التراب وينعش الجسم وكان مفروضا أن تتجه القافلة الى احدى
الاستراحات لتمضية بعض الوقت قبل ملاقة الجماهير .. ولكن
الرئيس نميرى أصر على الذهاب فورا لأنه لا يريد أن يترك الشعب
فى انتظار طويل .

وما أكثر القضايا التى أثارت فى هذه الليلة السياسية وما أشد
تنوعها ..

والصراحة المطلقة علامة بارزة من علامات المجتمع السودانى أيضا

رجال الأمن أن يلحقوا به .

ولم فاروق أبو عيسى نظرة تساؤل في عيني ، فقال وهو يمضي
هو الآخر بين الجموع ليلحق بالرئيس :
- الشعب هو الدرع الحقيقي للثورة ، والجماهير تقدر مسئولية
الأمن كما تقدرها الشرطة .

وفي إحدى المدارس قدموا طعام الغداء ، مائدة الرئيس يجلس
عليها بعض الأهالي من غير بروتوكول أو تقييم .. ووزراء لا يجدون
مكانا ، فيتجهون الى قاعة جانبية يأكلون مع السائقين .. في بساطة
شديدة غير مفتعلة .

هذه « الظاهرة السودانية » تستقر في قلب الانسان كمظهر
رائع من مظاهر ديمقراطية الثورة الاشتراكية .. وتبعث في النفس
اليقين بأن الثوار الأحرار هم الذين يشاركون الشعب حياته الطبيعية
بلا تكلف .

الشمس تميل نحو الغروب ، ورجال الحرس يحرسون على
الوصول الى واد مدني قبل الظلام ، ولكن جعفر نميري لا يريد أن
يتترك قوما بلا تحية .

والقافلة أصبحت تمضي في بحر من تراب .. شعر الجميع أصبح
رماديا ، وأهداب العيون أيضا .. ولكن أحدا لا يبدو عليه التعب ..
وبعد عشر ساعات كاملة وصلت القافلة الى مشارف واد مدني ..
وكان شيئا مذهلا أن تجد المدينة وكأنها نفقت سكانها الى
الشوارع ، حتى أصبح متعذرا على العربات أن تسير الا بسرعة
المشي ..

وعند المرح .

الجو يفيض بالأخوة والصداقة والالفة .. أعضاء مجلس الثورة يأخذهم الزحام بعيدا عن العربات ، وبعض الوزراء يلتقون مع أصدقاء قدامى يضحكون ويمرحون .

وجعفر نميري لا يسير في خطوات رجل يشرف على الأربعين .. ولكنه يتحرك في نشاط شديد ، يصبح فوق العربة في قفزة واحدة .. يده لا تستقر في جنبه ، يلوح بها للناس الذين خرجوا يهتفون له والناس في شوق لملاقاة قافلة رئيس الجمهورية . وكل قرية أو مركز أعدت دراسة عن مطالبها . وصدور رجال الثورة والوزراء مفتوحة لاستقبال هذه المطالب .. البعض منها يصدر الأمر بتنفيذه .. والبعض منها يؤخذ لدراسات الخطة ..

ولا تضي القافلة في الطريق المعبد وحده .. تتجه الى طرف من تراب .. وتتأرجح مع المطبات الشديدة .. ويقول لى صحفى من ألمانيا الديمقراطية كان واضح النشاط هو وزميلة أخرى في تصوير الرحلة لتلفزيون برلين :

« ان حركة رجال الثورة السودانية تبهرنى .. يبدو لى أن ما يلاقونه من جهد ، يشحن قلوبهم بالعزيمة للارتفاع بالجماهير الى حياة العصر .. هذه أعظم فرصة أتيت لى على الطبيعة لتصوير هذا الحشد الهائل من البشر .

وكنا نقرب من « الحصاحيصا » وأصبح سير العربات متعذرا بل مستحيلا ، سد هائل من البشر وأصوات تملأ السماء .. وفجأة قفز نميري من عربته في بساطة ليمضى بين الجموع . وتعذر على

.. الآراء واضحة ومحددة . والكلمات لا تضيع عادة بالوان التمويه ،
والرجل البسيط يعلن رأيه في مواجهة المسئول الكبير دون خشية .
وأثناء الطريق لاحظت أن رجلا قد اقترب من عربتنا وهمس
للوزراء قائلاً إن العمال والمزارعين والنساء قد احتشدوا بعيدا عن
مدخل المدينة لأن محافظها لم يشرك في لجنة الاستقبال ممثلى
الاتحادات ، واكتفى بالأعيان والتجار !

وأراد هؤلاء أن يعبروا عن موقفهم .. فكان استقبالهم للرئيس
ورفاقه أكثر حماسة وحرارة .

وتصورت أن هذا النوع من الاحتجاج السلمى قد وضع نهاية
للخلاف .. ولكن ممثل العمال أبى الا أن يثير هذه القضية في
خطبته ، مؤكدا أن القوى العاملة في السودان هي رصيد الثورة ،
وأن أفرادا من الأحزاب السياسية التقليدية الذابلة لن ينجحوا مطلقا
في عزل الجماهير عن قيادتهم الثائرة .

والقوى الرجعية في السودان مثلها في أى بلد آخر ، تلبس من
التياب ما يجعلها تخفى حقيقتها . وهى لا تستطيع أن تظهر بصورتها
القديمة التى تنصب عليها اللعنات ، ولا تجسر على الظهور في
منبرها القديم .

قال لى أحد أعضاء مجلس الثورة ويده ترتفع لتحية الآلاف فى
الطريق ، ان الجزيرة كانت خاضعة لنفوذ بعض أعضاء الأحزاب ،
ولكن مايو حرر الناس من الضغط والارهاب ومن الخداع أيضا .
ولم يجد بعض أعضاء قيادات هذه الأحزاب سبيلا الا أن يلبسوا
ثيابا أخرى .. ولكن الفطنة والحذر عند الجماهير وعند قيادة الثورة،

لم تترك لهم الفرصة سانحة .
وتطبيقا لمبدأ « الصراحة » الذى يتميز به المجتمع فى السودان ،
وقف جعفر نميرى يقول :

« لا مكان فى مركب الثورة للقيادات الطائفية والقبلية التى عملت
لتكرس التخلف فى السودان ، ولا مكان فى الثورة للقيادات
السياسية التى مكنت للقوى التقليدية أن تتسلط على رقاب الشعب
وتعبت بمقدراته ، واليوم تظهر نفس تلك القوى السوداء بأقنعة
جديدة ظانة أنها ستخدع قوى الثورة وتندس بين صفوفها وتهد
كيانها من الداخل ، ولقد علمنا عن أشخاص يطوفون قرى الجزيرة
لتجميع قيادات الأحزاب الرجعية وبعث نشاطها المعادى للثورة تحت
قناع ما يسمى بالقوميين العرب . ولكن أيها الاخوان هذا النبت
الشرطاني لن يفلح اليوم فى تضليل الشعب باسم القوميين والثورة
العربية ، كما لم يفلحوا بالأمس فى تضليله باسم الدين الحنيف فالذود
عن الوجود القومى يعنى فى المقام الأول النضال ضد الاستعمار ،
وضد عناصر الفرقة والتجزئة بين الشعوب العربية ، وضد المصالح
والمطامع التوسعية للاستعمار والصهيونية .. نضال لأجل التحرر
والاشتراكية .. وما كان قادة الأحزاب البائدة وعملاؤهم يوما من
الأيام أهلا للتصدي لمثل هذه المهام القومية النبيلة »

هكذا حسم جعفر نميرى القضية فى كلمات صريحة واضحة ،
وكشف الستار الذى حاولت بعض العناصر الرجعية أن تختفى فيه
أو تحتمى به .

وثورة مايو تضع خطا فاصلا وواضحا بين الجماهير التى ارتبطت

بالأحزاب التقليدية وبين قيادات هذه الأحزاب .. وهي تحاول جاهدة أن تكسب الجماهير الى صفوفها بما تقدمه لها من خدمات اجتماعية ووعى سياسى ، فى الوقت الذى تحاول فيه أيضا عزل بقايا القيادات التى أساءت الى الشعب والشرف والضمير الوطنى .

وفى هذا المعنى تحدث رئيس اتحاد المزارعين الشيخ الأمين محمد الأمين الذى وجه المزارعين فى أكتوبر الى الخرطوم وتابع موكب نميرى منذ دخل الجزيرة .

والشيخ الأمين تبرع باسم اتحاد المزارعين بمبلغ ١٠٢ ألف جنيه لمشروع مقاومة العطش الذى تتبناه الثورة فى مقدمة الأعمال الانسانية التى تهدف الى تحقيقها .

الليلة السياسية مازالت تجمع أهل مدنى ورئيسة الاتحاد النسائى فى المدينة نفيسة الأمين - وهى ليست قريبة الشيخ الأمين محمد الأمين - تعلن تأييد النساء لثورة مايو .

ومن أبرز الظواهر التى لاحظتها خلال الرحلة تجمعات النساء من مختلف الأعمار ، ونشاط المدرسات أمام صفوف التلاميذ والتلميذات .

والمرأة السودانية من أكثر نساء العرب اهتماما بالعمل السياسى ، وقد حقق الاتحاد نجاحا كبيرا فى اجتذاب معظم النساء المتعلقات الى صفوفه .. وتلعب رئيسته فاطمة أحمد ابراهيم دورا بارزا فى توجيه نشاطه .. ويقال إن ٦٥ ٪ من أصوات النساء قد أعطيت للمرشحين الاشتراكيين فى عهد الأحزاب التقليدية المنهارة .

وأثارت طالبة جنوبية تتحدث العربية ولكنها خاصة ، حماس

الجماهير عندما أعلنت أن الشمال والجنوب صف واحد ضد الاستعمار ..

والخطباء كانوا من أعضاء مجلس المديرية المنتخبين وهو نظام أقرته ثورة مايو لتضمن مشاركة الجماهير في العمل الإداري .. و انتهت الليلة السياسية والساعة تقترب من الحادية عشرة مساء .. توجه نميرى في الصباح الى حقول الجزيرة .. ونزل يجمع القطن ، ويدعو مرافقيه الى النزول مع تنبيهه لهم بأن يحرسوا على سلامة الشجر وان يجمعوا كل ماتفتح من القطن ..

وفي مدرسته الثانوية حنتوب دخل فصله وغنبره وقدم زملاءه في الدراسة ليتحدثوا عن ذكرياتهم وتحدث فاروق أبو عيسى وأحمد عبد الحليم ..

وعرفت من خطبة نميرى التقاء طلبة السودان مع طلبة مصر في مظاهرات ١٩٤٦ .. فقد أغلقت مدرسة حنتوب من ابريل الى أكتوبر ١٩٤٦ بعد ثورتها الجامعة ..

وبعد الغداء كانت المفاجأة الكبرى عندما ذهبنا الى مهرجان رياضى فى نادى الاتحاد .. الذى كان جعفر نميرى رئيسا لفريق الكرة به منذ أكثر من خمسة عشر عاما .. واشتمل المهرجان على مباراة ودية مدتها نصف ساعة بين فريق النادى القديم ، وفريق الأندية الأخرى بالمدينة .

وخلع جعفر نميرى بدلته العسكرية ، ولبس ملابس الكرة ، ونزل على الملعب ليؤدى مباراة جيدة ، ويصيب الهدف بلعبة ماهرة واشترك فى المباراة الوزير مرتضى أحمد ابراهيم ..

هل يتكرر هذا المشهد في أية دولة من دول العالم ؟
 هل يشارك رئيس جمهورية ما في رياضة شعبية مفتوحة ؟ ..
 الروح السمحة البسيطة التي يتميز بها شعب السودان هي التي
 أوحت للرئيس أن يشترك في المباراة بلا كلفة .. وهي التي تزيد
 ارتباطه بالشعب كلما أوغل في معاشة مشاكل الناس .
 حاولت أن أرسم صورة ليومين أمضيتهما في رفقة موكب الثورة
 ... لعلى نجحت في توضيح الجهد الذي يبذله القادة للتعرف على
 مشاكل الجماهير في مواقعها . وأظهرت الانسانية البسيطة التي تثرى
 حياة شعب السودان ..
 ولكن رحلة رجال الثورة والوزراء لم تنته في واد مدني ، ولكنها
 ابتدأت من هناك ..
 اتجه الثوار الى كردفان للمرة الثانية خلال عشرة شهور هناك
 حيث العطش يقهر الانسان ليمضوا عشرة أيام بعيدا عن العاصمة ..
 وما أظن أحدا يستطيع التقليل من أهمية هذه الظاهرة الثورية ،
 التي تجعل المسؤولين يعيشون الناس بعيدا عن أضواء العاصمة المثلثة
 وما أظن أيضا أن هذه الزيارات تمضي مثل غيرها . اجتماعات
 ومظاهرات وهتافات ثم تنفض لتعود الحياة الى سكينتها الأولى ..
 الأمر يختلف قليلا في السودان حيث توجد تنظيمات سياسية
 وجماهيرية تبذل كل وقتها وطاقاتها في خدمة الثورة .. وتجعل من
 استمرار الثورة وانتصارها نقطة أولى في جدول أعمالها ..
 وما أظن أن سودانيا مخلصا لا يدرك ادراكا عميقا حيوية الدور
 الذي يمكن أن يؤديه السودان في منطقة التحرر الوطني عامة وفي
 ١٥ - مصر والسودان

افريقيا والوطن العربى خاصة .

والانتقال الذى حدث فى المجتمع السودانى لا يمكن أن نجنح به الى التبسيط ، فانه أعظم عملية ثورية واعية تتم فى قلب أفريقيا ، تهز قواعد الامبريالية فى كل مكان ..

وثورة مايو عندما ترتبط بثورة القاهرة وثورة ليبيا انما تدعم الاتجاه التحررى فى المنطقة ، وتقوى من حافز التغيير الاجتماعى فى الوطن العربى .

واذا كانت بعض عناصر الثورة المضادة تحاول أن تركب موجة الحساسية لاثارة بعض المشاعر على أسس غير موضوعية ، فان وعى الشعب السودانى بضرورة الاحتشاد خلف ثورته ، وتأييد سياستها التى تلتقى فيها مع قوى التحرر بالوطن العربى ، هو الضمان الرئيسى لانتصار الثورة واستمرارها .

عبر عن ذلك جعفر نميرى بقوله :

« ان من النتائج المباشرة لهذا التعاون الثورى الجديد - السودان وليبيا ومصر - قرارات ثورية وتاريخية حاسمة لتصفية مواقع الاستعمار فى هذه البلدان عقابا له على موقفه المجرم ضد الشعوب العربية ومساندته لاسرائيل ، هذه هى المهمة الثورية المقدمة على نطاق الوطن العربى منذ أمد بعيد ، ان الشعب المصرى الذى يموت أبناؤه بالآلاف فى الجبهة وتعرض مدنه ومصانه ومنشأته للقصف الاسرائيلى المجرم ، هذا الشعب يناضل لا لقضيته هو وحده بل للشعوب كلها .

والمساعدات التى تقدمها لمصر واجبة علينا ولمصلحتنا مثل ماهى

لمصلحة مصر .

وأخيرا .. فانى لا أريد أن يسحبني جو الرحلة للجزيرة وواد مدنى الى بحر من التفاؤل .. ولا أعتقد ان حرارة اللقاء والهتاف لرجال مايو يمكن أن تذيب من قلبى ما أشعر به من قلق..ولا أتصور لحظة ان الصمت يكون مقبولا فى هذه المرحلة الأخيرة والحاسمة معا. وقلمى لن يصيبه الجهد مهما كتب عن الأثر العظيم الذى أحدثته ثورة مايو فى جو الوطن العربى .. يكفى انها حطمت سياج العزلة الذى حاول الاستعمار أن يفرضه حول القاهرة ، وهو يتربص بها . ولا يجوز التقليل من شدة الضربة التى وجهت الى الامبريالية العالمية .. عندما انفجرت ثورة شعب السودان .. كما انه لايجوز أن تتصور لحظة أن الامبريالية سوف تقبل الهزيمة بروح رياضية ، وتسحب من المنطقة راضية .

من قوة تأثير ثورة مايو على الموقف فى افريقيا والوطن العربى يجب أن ينبعث الحذر .. وكلما كان انتصار الاشتراكية واضحا أصبحت اليقظة ضرورة ..

عندما انتصرت ثورة أكتوبر ١٩٦٤ ، وتدفقت الأسلحة والمعاونات الى ثوار الكونغو ، فزع الاستعمار ، وهبطت قوات المظلات الأمريكية فى ستانلى فيل .

ثم تأمرت قوى الاستعمار مع قادة الأحزاب التقليدية الخاضعة للطائفية ، حتى فرغت ثورة أكتوبر من مضمونها التقدمى ، وأجهضتها خلف ستار الديموقراطية الليبرالية .

ولكن .. هل تتعرض ثورة مايو لما تعرضت له ثورة أكتوبر ؟

ما أظن أحدا يتصور أن قوى الامبريالية فى المنطقة .. وأعوانها فى الداخل قد استكانوا للوضع الجديد ، وفقدوا رغبتهم فى الانقضاء على السلطة .

وما أظن ان قيادة الثورة ترسم خطتها على أساس أنها تمضى فوق بساط من حرير .

وثورة مايو اتخذت موقفا ثوريا أصيلا .. عندما صنف الطائفية والأحزاب التقليدية على أنها من الرجعية التى يرفضها الشعب لكثرة ما عانى من ضغطها واستغلالها .

وجعفر نميرى قال لى فى حديثه منذ أسابيع ان الوحدة الوطنية لا تشمل هؤلاء وانما تضم القوى صاحبة المصلحة فى التغيير الاجتماعى .. أى القوى الاشتراكية .

ولكن القوى الرجعية التقليدية لم تركز الى الهدوء .. ولم تفقد الأمل فى معاودة الظهور .. مازالت تحاول الوثوب من جديد .. لا يغلبها الحياء أو الخجل .

لم تعد تذكر أنها رفعت مديونية القطاع العام من ٣٩ مليون جنيه عام ١٩٦٥ الى ٤٦ مليون جنيه عام ١٩٦٩ .

ونسيت أن ميزانية السودان قد تسربت من أيديهم لاستيراد سلع الترف والكماليات حتى بلغ استيرادهم من الأقمشة عشرين مليون جنيه خلال العام السابق للثورة ، رغم توفر منتجات الصناعة الوطنية .

وتناست تدهور الأرصدة الخارجية من العملات القابلة للتحويل الى ١٦٣ مليون جنيه فى ١٥ مايو ١٩٦٩ بعد أن كانت ٦١ مليون

جنيه عام ١٩٦١ - ١٩٦٢

ولم تعد تذكر هذه القوى انها وصلت بقروضها الى حد الاستدانة محليا من بنك السودان .

ومعروف أن كثيرا من الموظفين كانوا لايقبضون مرتباتهم في أول الشهر ..

يقول فاروق عثمان حمدالله وزير الداخلية مصورا حالة الجنود البائسة قبل ثورة مايو :

« كان العساكر في الجنوب لايتسكنون من صرف مرتباتهم لمدة تصل الى ستة أشهر !

« وكان الجنود يفتقرون الى أبسط الأشياء وهى الملابس العسكرية ، وكانت المهمات تصرف للجنود العاملين في الجنوب بنفس النسبة التى تصرف بها للوحدات بالشمال مع تجاهل تعرض الجنود في الجنوب للعمل المستمر ، وهناك تقرير من « قائد حلمية بساى يفيد بأن جنوده يلبسون ملابس المتمردين بعد قتلهم »

شواهد كثيرة تدين رجال النظام المنهار المعتمد على الأحزاب التقليدية .. ولكنهم مع ذلك يتطلعون الى الوثوب من جديد .. ويحاولون تضليل الجماهير ورجال الثورة بتغيير ثيابهم الملوثة .. ومحاولة الظهور بملابس « القوميين العرب »

ولكن وعى الثورة ويتخطتها جعلت جعفر نيرى يهاجم فى خطبته بواد مدنى محاولة هؤلاء « المتسربين الى ساحة الثورة »

هنا يبدو الخطر من تحرك قوى الثورة المضادة الحزبية والطائفية محدودا قليل الأثر . وخاصة بعد الجهد العنيف الذى تبذله قيادة

الثورية فى لقاء الجماهير بمواقع العمل ، وتقديم الحلول لبعض
 الهموم التى ترهق الانسان فى مختلف الاقاليم .
 وجعفر نميرى - فيما أعتقد - لن يتوقف عن الاستمرار فى هذه
 الرحلات الشعبية الرائعة لأنه يؤمن فى ثورية أصيلة ، بضرورة لقاء
 المثقفين بالعمال والمزارعين فى أماكن عملهم واقامتهم .
 والظاهرة الايجابية التى ظهرت منذ اللحظة الأولى فى ثورة مايو
 هى « الايمان وعدم الخشية والاعتماد المطلق على الشعب »
 وما زالت ثورة مايو - وقد مر عام على انتصارها - تعتمد
 فى حركتها السياسية على التنظيمات والاتحادات الجماهيرية .. وقد
 أتاحت لى الظروف فرصة مشاهدة الدور الذى لعبه اتحاد عمال
 السودان فى استقبال مثلى اتحاد نقابات العمال العالمى ، والمظاهرات
 الرائعة والليالى السياسية الناجحة .. وكذلك الدور الذى لعبه
 اتحاد المزارعين والنساء والشباب والعمال خلال رحلة الجزيرة .
 لم تكن حركة الجماهير لاستقبال موكب الثورة غير منظمة ..
 كان واضحا أن هناك قيادات بعضها نقابى وبعضها سياسى . ولكنها
 جميعا تلتقى فى تأييدها الصريح للثورة
 وعلى امتداد الطريق الطويل ، كنا نسمع هذا الهتاف « بالدم ..
 بالروح نفديك يانميرى » .. ولكن جعفر نميرى التقط الميكروفون
 وهو يرد تحية الناس فى الليلة السياسية بواد مدنى .. وبدأ ينغم
 الهتاف قائلا : « بالدم .. وبالروح نفديك ياثورتنا » .. وارتفع
 هدير الجماهير وراء القائد الذى يصر على انكار ذاته
 وطوال الطريق كانت تراودنى فكرة تنظيم هذه الجماهير المخلصة

صحيح أن الاتحادات والنقابات تؤدي دورا فعلا وحقيقيا في توجيه الجماهير .. وان بعض قياداتها قد لعب دورا هاما في تكوينها والمضى معها في طريق نضال شاق ضد الاستعمار والرجعية .. وان كثيرا منهم قد عانوا آلام الصمود والتضحية .

ولكن هذه التنظيمات يجب أن تكون حذرة ، كما أنه من واجب العناصر الثورية في داخلها المحافظة على نقائها ودحر الاتجاهات اليمينية فيها .. فعندما تكون السلطة في الحكم يتكاثر حولها المنافقون .. واذا عزفت نفمة الاشتراكية رقص عليها الطامعون .

ومسئولية ثورة مايو في نقل مجتمع السودان الى حياة العصر تحتاج الى كادر ثوري ملتزم ، لا يتحرك بعاطفته وحماسته ، قدر ما يتحرك بوعيه وايمانه .. تحتاج الى جهاز سياسى منظم بعيد عن الخضوع لسلطة الدولة .. قادر على بذل جهده وطاقته لمساندة الثورة وبناء الاشتراكية .

ولعل هذه القضية هي أكثر القضايا إلحاحا اليوم .. ولعلها أيضا أكثرها حساسية .

وشعب السودان كما سبق أن ذكرت .. يتميز بوعى ناضج ، وديموقراطية طبيعية ، وصراحة لاتعرف التردد ..

ولذا فانه لا يقتنع بالآراء السطحية ، ويرفض أنصاف الحلول .

وثورة مايو حددت الموقف واضحا .

جبهة الاشتراكيين العريضة في جهة .. وقوى الرجعية والتخلف

في جهة أخرى .

وأصبح تنظيم القوى الاشتراكية في جهاز ثوري ملتزم مسئولية

من أهم مسئوليات ثورة مايو .

ومعروف ان الاشتراكية ليست أمرا طارئا في السودان .. ولا يدعى أحد أنها شعار جديد تخرجه ثورة مايو من الجراب .. ولكن هناك نضالا طويلا بدأتها الحركة السودانية للتحرر الوطنى فى الأربعينات ، أخذ ينمو سرا حتى أعلنته الظروف مع ثورة أكتوبر . وما أظن أحدا يسعى الى سلب هؤلاء المناضلين من شرف التبشير والتضحية والوجود .. ولا أعتقد أن قائدا من قادة الثورة يمكن أن تتسرب الحساسية الى نفسه من أية فلسفات عصرية أو تجمعات تقدمية .

وفى الجانب المقابل لا أتصور أن التنظيم الذى حمل العبء الرئيسى للنضال من أجل الاشتراكية العلمية وأعنى الحزب الشيوعى السودانى يعتقد أنه الوحيد المسئول عن بناء المجتمع الاشتراكى . تصريحات قادته وشعاراته خلال مراحل النضال تظهر أنه كان دائما يهدف الى اقامة جبهة مع كافة القوى الاشتراكية ، وهو لا يدعى حق احتكار الأفكار الاشتراكية لذاته فقط .

حرص القوى الاشتراكية النامية ، يبدو دائما واضحا فى محاولاتها لحشد الجماهير صاحبة المصلحة الحقيقية فى الاستقلال الوطنى والتغيير الاجتماعى .

ولست أريد التعرض هنا لتفاصيل وأسلوب تكوين التنظيم السياسى لثورة مايو .. فما أظن مجال ذلك صفحات مفتوحة على رأى العام .

ولكنى أعتقد أن « وحدة الاشتراكيين » التى تحدث عنها جعفر

نميرى ، هى ضرورة حتمية وحاسمة للقضاء على كل محاولات التسلل والتخريب ..

الذين يحاولون أن يصوروا الأمور كما لو أن كل شىء قد بدأ فى مايو يخطئون كثيرا .. لأن الثمار لا تنضج قبل الشجر .
والذين يحاولون أن يقللوا من فضل ثوار مايو .. يرتكبون نفس الخطأ ، لأنه لولا شجاعتهم ومبادرتهم ما كانت الأمور قد تغيرت ولظل المجتمع السودانى صريع الفساد والرشوة والجهالة .
وما أظن أن وعى الذين حملوا عبء النضال سنوات عديدة .. تعرضوا فيها للسجن والاضطهاد والفصل ، يمكن أن يسمح للمخربين والمشبوهين الذين يحاولون ارتداء أقنعة اشتراكية ، بأن يلفتوا الأنظار ، وكأنهم فى ساحة خالية ، تحتشد حولها الجماهير .
جماهير السودان ليست فى موقف المتفرج ولا تقبل أن يؤدى دورا فى تحديد مصيرها الا ثوار مايو ، ومن حولهم كل الذين بشروا وناضلوا من أجل اشتراكية ، تحرر الانسان السودانى من كل قيود التخلف .

وفى فترات التغيير الاجتماعى تكون الخلافات فى وجهات النظر أمرا طبيعيا وصحيا .. ولكن الروح الرفاقية ، والحكمة الثورية .. ولا أقول الخطر المشترك والمصلحة الواحدة .. تصبح هى الأساس الذى يجب أن يتحرك عليه كل مخلص للثورة وللإشتراكية معا
ما أشد معاناة الثورات من بعض الذين يتهافتون عليها تهافت الذباب على الطعام الشهى يقبحه شكلا ، ويفسده موضوعا .
وما أكثر حاجة الاشتراكيين الى وقفة تأمل عميق لكل ما يدور

١٢٣٤

حولهم في الوطن الواحد .. وفي العالم كله .
وثورة مايو ليست ثورة علوية .. لم تنطلق من فئة تعيش في
سطح المجتمع ، ولم تنتصر بارادة القوات المسلحة وحدها ، ولم
تكن أبدا منبثقة أو منعزلة عن نضال الجماهير وتضحياتها .
وهي في تفكيرها واتجاهها سودانية الطابع والأصل .. ولا يمكن
أن تكون غير ذلك .
وما أظن أن كلمات كاتب يخلص فيها مع ضميره ونفسه متأثرا
بما شاهده من علامات انتصار الثورة ، منفعلا بعواطف البسطاء
من الناس ، حريصا على مستقبل شعب يحبه ويحترمه ، بقادرة
وحدها على أن تفعل شيئا .
ولكنها يمكن أن تكون علامة قلق لم تستطع أن تذيبه في قلبي
حرارة العواطف التي عشتها .

الباب العاشر

كفاح مشترك
ومصير مشترك

يتجسد في مصر والسودان ...

وارتفع شعار « وحدة وادى النيل » واقتنع به فريق من أبناء السودان ، وناضلوا من أجله ، وضحوا بحياتهم وحریتهم في سبيله ... ونذكر جمعية اللواء الأبيض وعلى عبد اللطيف .

ولكن هذا الكفاح كان يتم باندفاعات سياسية وعاطفية غير مدروسة ... صحيح أن هذه الشعارات كانت تلتقى مع ارادة الجماهير البسيطة ... ولكنها عندما كانت تتردد بوساطة الحكومات كانت تعبر عن شيء آخر

كان شعار « وحدة وادى النيل » شعارا يخفى خلفه رغبة الحكومات الرجعية في الاستفادة الاقتصادية من الطبيعة السودانية وسوقها الكبير ... ولذا فانهم كانوا يرددون دائما تعبير « سيادة مصر على السودان »

كانت رغبة الحكومات الرجعية ... الوحدة شكلا والسيادة موضوعا ..

وفي مختلف المفاوضات والمجالات الدولية كان يتحدث المفاوض المصرى عن حق مصر في السودان

قال ذلك سعد زغلول لرامزى ماكدونالد في مفاوضات ١٩٢٤ التى انتهت بعد ثلاث جلسات فقط

ومعاهدة ١٩٣٦ التى احتشدت لها كل الأحزاب المصرية وفى مقدمتها الوفد ، لم تفعل أكثر من عودة الجنود المصريين الذين انسحبوا بعد مصرع السردار وأثناء نكسة ١٩٢٤

وعاد اسماعيل صدقى من لندن بعد مفاوضاته مع بينن يقول

طبيعة الحكم في ذلك « العهد الاقطاعي » كانت تفرض على الجماهير نوابا ووزراء من الاقطاعيين ... ولكن العلاقات بين بسطاء الناس في مصر والسودان كانت قائمة بلا حواجز ... الأرض مشتركة واللغة والدين والنيل يحطم الحواجز والعلاقات التاريخية لاتتمزق بتناقضات دموية .

هذا هو ماجعل الاستعمار البريطاني يبدأ في تنفيذ خطته بسحب الجنود المصريين من السودان ، حيث تم ذلك عام ١٨٨٥ بعد انتصار ثورة المهدي ومصرع غوردون في الخرطوم ... ومحاولة اقامة « حاجز زمني » يكون فيه السودان بعيدا عن أية صلة تربطه بمصر ... ثم يهجمون عليه من الجنوب .. من المستعمرات البريطانية في كينيا وأوغندا ، ليتحول السودان أيضا الى مستعمرة بريطانية ، مقطوعة الصلة عن مصر والدول العربية ، تحاشيا لوجود عمق عربى متجه الى داخل القارة المظلمة التى فرض عليها الاستعمار سياجا من فولاذ .

فشلت الخطة البريطانية لسبب خارج عن ارادة الاستعمار البريطانى وهو وصول بعثة مارشان الفرنسية الى حدود السودان عازمة على استعمار طالما هو « مستقل » .. وأسرع البريطانيون الى دخول السودان بجنود مصريين وقادة بريطانيين لعدم توفر الوقت لهجوم من الجنوب ، ورفع حجة أمام المستعمرين الفرنسيين ونفذ أول احتلال مشترك في التاريخ تبعا لاتفاقية ١٨٩٩ التى جعلت الحاكم البريطانى للسودان ، هو مركز القوة الحقيقى هناك ومنذ هذا العام بدأ الكفاح المشترك ضد الاستعمار البريطانى

كفاح مشترك ... ومصير مشترك

طوال فترة بقاء جنود الاحتلال البريطاني في مصر - ٧٤ عاما - وطوال فترة بقائها في السودان - ٥٧ عاما - لم يتوقف الكفاح الشعبى المشترك ضد الاستعمار البريطانى ولكنه لا يمكن القول بأن طبيعة الكفاح المشترك كانت واحدة بين الحكومات الرجعية والاقطاعية المتهاونة من جهة .. وبين جماهير الشعب المصرى والسودانى من جهة أخرى .

بل ان الكفاح ضد الاستعمار البريطانى كان يختلف من وزارة الى أخرى ، تبعاً للحزب الذى تمثله ، وتبعاً للظروف الدولية والسياسية فى الفترة التى تتولى فيها الحكم .

أبعد من ذلك .. كانت نظرة الحكومات المصرية الرجعية لموضوع السودان ، تعبر عن تناقض فى المصالح الاقتصادية لأبناء الطبقة البرجوازية المصرية وبين الاستعمار ... أكثر مما تعبر عن رغبة أصيلة فى تحرير الشعبين المصرى والسودانى من قيود الاستعمار والتخلف الاجتماعى

قبل الاستعمار البريطانى لم يكن هناك فاصل بين مصر والسودان ... واللائحة الأساسية التى تقدمت بها وزارة شريف باشا الى مجلس شورى القوانين كانت تنص على أن أعضاء مجلس النواب ١٢٠ نائباً منهم ٢٦ نائباً من السودان وكل نائب يعتبر « وكيلاً عن عموم الأمة المصرية وليس فقط عن الجهة التى انتخبته »

والحزب الشيوعي الذي قضى عليه الاستعمار وحكومة سعد زغلول عام ١٩٢٤ كان يضع الى جانب هدفه المبكر « جعل قناة السويس ملكا للأمة » هدفا آخر هو « جلاء الجنود الانجليزية عن مصر والسودان وعدم الاعتراف للغاصب بأى مركز ممتاز » . ولكن سرعان ما قضى الاستعمار البريطانى فى عنف على هذه الأفكار ، وفرض نكسة ١٩٣٤ حسب خطة كان يقصد بها من جديد فرض العزلة على السودان ليحقق كافة أطماعه الاستعمارية بلا حساب أو رقيب .

وما أن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى كانت بعض الأفكار التقدمية قد وجدت سبيلها الى مصر والسودان . عادت القوات السودانية التى حاربت قوات الفاشية والنازية فى صفوف الحلفاء ، وقد أضاعت فى عقولها حقائق جديدة عن الموقف الانسانى والعالمى .

وبدأت فى مصر حركة نضال واضح ضد الاستعمار البريطانى ... ونشأت فى أحضان هذه الحركة المصرية للتحرر الوطنى شعارات جديدة تنادى بالكفاح المشترك للشعبين المصرى والسودانى ضد الاستعمار البريطانى ... وتجمع الناس حول « كفاح واحد ضد عدو واحد » .

ولم ينفصل الكفاح الوطنى السودانى منذ ذلك الوقت لحظة واحدة عن الكفاح المصرى .

ارتبط مؤتمر الخريجين بحزب الوفد أساسا ... لما كان يمثل التنظيمان من قوى اجتماعية مشتركة هى البرجوازية المصرية

عدت والسودان في جيبي ١

وتحدث النقراشي عام ١٩٤٧ وهو يعرض قضية مصر على هيئة الأمم المتحدة عن حق مصر في السودان
وكان الاستعمار البريطاني يستغل هذا الاتجاه المصرى في ذكاء شديد ... كان ينمى حقد الطبقة الاقطاعية السودانية ضد منافستها الاقطاعية والبرجوازية المصرية ، حتى خلق من طائفة المهدي والأنصار أعداء تقليديين لمصر وللمصريين .
وكان يستغل أيضا بعض المثقفين السودانيين وينمى عندهم رفض كل ماهو مصرى ، وقبول كل ماهو بريطانى .
ولكن هذه السياسات العلوية ، وهذه التناقضات السطحية ، لم تصل أبدا الى أعماق الشعبين المصرى والسودانى المتفجرة بالحوية ..
كانت جماهير الشعبين من القوى العاملة والمناضلة ضد الاستعمار تدرك أنه لا توجد بينها تناقضات ولا منافسات اقتصادية ... وتدرك أيضا بحسها الثورى الصادق ان ماثيره الرجعية المصرية والسودانية انما يعد وينضج في مطابخ الاستعمار البريطانى .
وكانت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية هى الفترة التى بدأت تظهر فيها أفكار تقدمية جديدة .
ولا نود أن نسلب بعض الشخصيات والتنظيمات حقها فى الوعى السليم بأبعاد قضية السودان .
محمد فريد مثلا كان ينادى بالأخوة بين الشعبين ، ويدعو لتكوين جمعية سلام واحدة فى وادى النيل .

والسودانية الناشئة .. مع وجود عناصر يسارية تقدمية في غير موقع السلطة الرئيسى .

وارتبطت الحركة السودانية للتحرر الوطنى مع الحركة الديمقراطية المصرية للتحرر الوطنى .. يتبادل الاثنان الراى والعضوية .. ويجسدان شعار الكفاح المشترك كل بأسلوبه ووسيلته .

وكان الكفاح ضد الاستعمار البريطانى فى مصر أكثر ايجابية وأسرع نضجا ، حتى تحول بعد حرب فلسطين الى كفاح مسلح ماكادت تندفع عجلته ويصلب عوده ، حتى دهمته مؤامرة الاستعمار ، وتحول مع حريق القاهرة فى ٢٦ يناير الى جذوة تعيش فى القلوب . تحاول حكومات الرجعية المصرية أن تطفئها دون جدوى .

حتى عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو لتبدد اليأس والظلام وتواجه الاستعمار ، لم تتأخر لحظة واحدة فى مواصلة الكفاح المسلح ضد القوات البريطانية بالقتال .

وفى هذه الفترة الطويلة التى امتدت سنوات لم يصل شعب السودان الى مرحلة الكفاح المسلح ، لعدم نضج الظروف الموضوعية المهمة لطرح الشعار .. ولعدم وصول القيادات الشعبية الى مستوى القدرة على تحريك الجماهير ... ولأنه لم تتوفر حكومة تخلق جوا ديمقراطيا مساعدا للجماهير مثل حكومة مصطفى النحاس ... هذا الى جانب قلة عدد القوات البريطانية المسلحة فى السودان .

وهناك سبب آخر أجل من وصول شعب السودان الى مرحلة الكفاح المسلح ضد الاستعمار ... وهو وصول الثورة المصرية الى اتفاقية فبراير ١٩٥٣ التى أعطت للشعب السودانى حقه فى تقرير

مصريه ..

أصبح موقف الشعب السوداني واضحا من قضية استقلاله
وتقرير مصيره ... وتحول نضاله في الداخل الى دعم مكاسب
ديموقراطية وسياسية .

وفي هذه الفترة الحاسمة منذ توقيع الاتفاقية في فبراير ١٩٥٣
الى اعلان الجمهورية السودانية في ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ ، وعلان
الاستقلال رسميا في أول يناير ١٩٥٦ ... وضع أن الأحزاب
الاتحادية لم تكن جادة فيما ترفعه من شعارات ... وانما كانت
تجتلب بذلك أصواتا تساعد في الانتخابات .

لم يكن ذلك - في رأيي - مفاجئا ولا غريبا ... بعد أن أصبحت
في مصر حكومة ثورية تختلف في طبيعتها الاجتماعية ونظرتها
للمستقبل عن حكومة السودان التي نبتت من أحزاب تشابه الأحزاب
التي انتهت قصتها في مصر ... وتكونت من عناصر بورجوازية
لا تطلع في أكثر من كراسي الحكم .

كانت حكومة الثورة في مصر ترفض رفضا صريحا :

• مشروع ايزنهاور

• حلف بغداد

واستطاعت أن تحقق خلال السنوات التي سبقت استقلال
السودان :

• انتهاء النظام الملكي وتوجيه ضربة حاسمة للاقطاع

• فرض اتفاقية فبراير ٥٣ على الاستعمار البريطاني وهي التي
وفرت على الشعب السوداني بعض الجهد في نضال طويل ، وأعطته

في ديمقراطية كاملة حق تقرير المصير .

• شاركت في مؤتمر باندونج ووقفت الى جانب القوى التقدمية ، وأخذ موقف الثورة المصرية يتضح جليا بين دول العالم الثالث ..

• عقدت صفقة أسلحة مع تشيكوسلوفاكيا فحطمت الاحتكار الاستعماري للسلاح .

• قضت على ارباب وتنظيمات حركة الاخوان المسلمين الرجعية .
• ألغت الأحزاب التقليدية المصرية التي تهادنت مع الاستعمار والتي كانت ترتبط بها الأحزاب السودانية .
وفي خلال هذه السنوات اتخذ اسماعيل الأزهري الاجراءات الآتية التي سبق أن ذكرتها وهي :

- ١ - أوقف الصحف الاتحادية وسحب رخص بعضها .
- ٢ - وقف في مؤتمر باندونج مع دول حلف بغداد .
- ٣ - سافر الى كمبالا لمقابلة الملكة اليزابيث رغم معارضة الشعب السوداني ونصيحة الثورة المصرية له بعدم الذهاب ... وهناك قبل يد الملكة وعاد بتصريحات سيئة .
- ٤ - رفض هدية من الأسلحة عرضتها مصر في أوائل عام ١٩٥٤
- ٥ - رفض ارسال ضباط سودانيين للتدريب في مصر على نفقتها وأصر على تدريبهم في بريطانيا .
- ٦ - لم يوافق على رصد مبلغ ثلاثة أرباع مليون جنيه لتنفيذ مشروعات ثقافية وصحية واجتماعية في أرجاء السودان .
- ٧ - أخيرا قرر الحزب الوطني الاتحادي التخلي عن مسألة الاتحاد

انقلابه في مايو ١٩٥٩ .. وحلايب تتبع شمال السودان قريبا من حدود مصر الجنوبية .

وكان لهذه الواقعة أثر خطير في مصر التي لم تتوقع من حكومة السودان أن تصل في علاقتها الى درجة التآمر مع الاستعمار الأمريكى لطعنها من الجنوب .

واتسعت الهوة مرة أخرى بين طبيعة الحكم في مصر ... وطبيعته في السودان ، عندما طبقت مصر القوانين الاشتراكية في يوليو ١٩٦١ .. بينما الاستعمار الحديث يمرح ويسيطر في السودان .

وتجهت حوافز الثورة عند شعب السودان ... وانطلقت ثورة أكتوبر الشعبية ضد طغيان الديكتاتورية العسكرية .. واتتهى لأول مرة في العالم الثالث حكم عسكري بقوة الجماهير الغزلاء ، المتعاونة مع العناصر التقدمية الوطنية في الجيش .

وأبرزت ثورة أكتوبر الى السطح صفحات النضال الوطنى التقدمى الذى قامت به التنظيمات سرا خلال ظروف شديدة القسوة والضراوة .. ولحق ركب الثورة السودانية يركب الثورة المصرية .

ولكن سرعان ما أجهضت ثورة أكتوبر بقوة وتآمر الأحزاب التقليدية والرجعية الطائفية .

ووثبت الى الحكم في السودان عناصر الأحزاب التقليدية من جديد .. وعادت الهوة الواسعة بين الفكر الثورى في القاهرة والفكر المحافظ في حكومة الخرطوم .

وحاولت القوى الرجعية الممثلة في عناصر حزب الأمة أساسا توثيق صلتها بنظم الحكم في الدول العربية الرجعية .. ومحاولة

ولكن جماهير الشعب السوداني وحركاته الثورية وتنظيماته التقدمية كانت تتطلع الى هذه الخطوات بأمل كبير ، وترغب انتصارات مصر ، وأملها كبير في حدوث تغيير .

وما عادت مصر تستطيع أن تسهم بإحداث أى تغيير في السودان الا بضرب المثل في كونها قاعدة صلبة للتحرر العربى .. وفى هذه الفترة التى كانت تنتقل فيها الثورة المصرية من نصر الى نصر .. كانت الحكومة السودانية تنسحب خطوة وراء الأخرى أمام ضغط وتسرب الاستعمار الجديد .

وكانت الوحدة المصرية السورية ، والثورة العراقية أكثر مما تحتمله أعصاب الاستعمار في عام واحد - ١٩٥٨ - وخشى أن تسرى هذه الموجة الى السودان فبادر الى تنفيذ انقلابه وتسليم حكومة حزب الأمة برئاسة عبد الله خليل زمام الحكم الى ابراهيم عبود الذى رأس حكومة الديكتاتورية العسكرية والمجلس الأعلى للقوات المسلحة حوالى ست سنوات كاملة .

ساد الأمور في هذه الفترة برود شديد في العلاقات بين القطرين الشقيقين .. واخفت الديكتاتورية العسكرية وجه السودان العربى الأصيل .. وفرضت حوله سياجا من العزلة المادية والفكرية ، أظن معاملة قد اتضحت في صفحات هذا الكتاب .

ولكن الأمر لم يقف عند حدود البرود أو العزلة .. بل ان حكم العساكر المنهار كان يدبر الأمور لاعطاء منطقة حلايب للاستعمار الأمريكى لتصبح قاعدة حربية له كما أعلن الأميرالاي عبد الرحيم عثمان في دفاعه أمام المحكمة العسكرية التى شكلت له عقب محاولة

مع مصر ..

وهكذا أصبح واضحاً بعد حصول السودان على استقلاله وتحرره من الوجود الاستعماري البريطاني في أول عام ١٩٥٦ ، أنه يحكم بحكومات تختلف في طبيعتها عن طبيعة حكومة الثورة في مصر ..

وكان جمال عبد الناصر في قيادته للثورة المصرية يحقق كل يوم انتصاراً جديداً ... وبعد استقلال السودان تحققت الخطوات الآتية :

١ - تحققت الجلاء الكامل عن مصر أيضاً في ١٨ يونيو ١٩٥٦

٢ - أمت قناة السويس في ٢٦ يوليو ١٩٥٦

٣ - تعرضت مصر للعدوان الثلاثي في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ثم تم الجلاء في ديسمبر من نفس العام .

٤ - رفضت مصر محاولات التدخل الأمريكية لدراسة المصالح البريطانية والفرنسية ، وأعلن جمال عبد الناصر مقاومته للحصار الاقتصادي الأمريكي .

٥ - زادت العلاقات وثوقاً مع الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية بعد تنفيذ مشروع السد العالي .

٦ - تحققت الوحدة مع سوريا في ٢٢ فبراير ١٩٥٨

٧ - قامت ثورة العراق في ١٤ يوليو ١٩٥٨ وبادر جمال عبد الناصر بالسفر الى موسكو للبحث في مقاومة نزول الأسطول السادس الأمريكي في لبنان .

كل هذه الخطوات الثورية كانت تؤكد عمق الهوية بين الفكر الثوري في مصر .. والفكر التقليدي في حكم السودان

٢٤٧

الاساءة الى الدين بإطلاق اسمه على دستور رجعى شديد التخلف... ولم يخف ذلك محاولات التقرب العربى فى مؤتمرات القمة .. التى لا ينكر أحد أنها كانت تتم يحافز قومى أمام جسامه النكسة ... ولكنها أبدا لم تشكل تقاربا بين الفكر الثورى التقدمى فى القاهرة والفكر المحافظ الرجعى فى الخرطوم .

وكانت ثورة مايو ١٩٦٩

ووصل الكفاح المشترك المرير للشعبين المصرى والسودانى الى غايته ..

حكومة وطنية ثورية فى القاهرة

وحكومة وطنية ثورية فى الخرطوم .

اتجاه صريح الى بناء المجتمع الاشتراكى فى الجمهورية العربية المتحدة يتجسد فى قوانين يوليو ١٩٦١ ، والميثاق ، وخطب جمال عبد الناصر ، وكل الاجراءات التى اتخذت فى هذا السبيل

واتجاه صريح لبناء المجتمع الاشتراكى فى السودان ، يتضح منذ البيان الأول للثورة ، وفى كافة القرارات التى اتخذتها ، وفى خطب مجلس قيادة الثورة خلال الشهور السابقة

لم يعد هناك تناقض بين الفكر الثورى فى القاهرة .. والفكر اثورى فى السودان .

كما أنه لم يعد هناك تناقض فى الأهداف والاتجاهات بين كل من حكومة القاهرة وحكومة الخرطوم وشعبى مصر والسودان .

زالت كل التناقضات الرئيسية ، وتحققت لأول مرة منذ الاستعمار البريطانى صورة متجانسة من الحكم فى كل من القطرين الشقيقين ..

والتقى الشعبان لأول مرة على هدف بناء مجتمع اشتراكي ، بعد أن أثمر لهما الكفاح المشترك حكومتان ثوريتان أصيلتان .

وإذا كانت الثورة في مصر قد اتخذت موقف الرفض من ناحية التدخل في شؤون السودان الداخلية منذ حصل على استقلاله .. رغم ادراكها بتخلف حكومات السودان ، وأملها في أن تنتصر القوى التقدمية والثورية هناك .. وملاحظتها ماتدبره الطوائف الرجعية وبعض الأحزاب التقليدية من مؤامرات مشتركة مع الامبريالية العالمية والرجعية العربية للاحاطة بالثورة من الجنوب ، وعزلها عن تأييد جماهير الشعب السوداني

وأقول أيضا إنه إذا كانت مصر قد اتخذت وطبقت هذا القرار القرار فانها تنسجم في ذلك مع مبدأ أن « الثورة لا تصدر » .. وأن شعب كل دولة هو القادر على التغيير

وقد ثبت ذلك في انتصار ثورتى اكتوبر ومايو .. فلم يدع أحد أن مصر قد أسهمت في ذلك بنصيب أكثر من التأييد الايجابى الفورى وأقول أيضا أنه إذا كانت مصر قد اتخذت وطبقت هذا القرار خلال فترة حكم الرجعية الطائفية والأحزاب التقليدية .. فانها سوف تكون أكثر حرصا على ذلك وهناك حكومة ثورية صديقة في الجنوب .

وبعض عناصر الرجعية والثورة المضادة لا يمكن أن تهدأ أمام هذا التناسق الوثيق بين القوى الثورية والتقدمية الذى يمتد من ساحل البحر الأبيض الى قلب افريقيا .. لابد وأن تنشط وتحاول الوقيعة بين الشعبين

أذكر ما قامت به بعض عناصر الإخوان المسلمين في زهوة انتصار ثورة أكتوبر عندما اتجهت الى السفارة المصرية وأشعلت فيها النيران ... في محاولة للإيقاع بين حكومة الثورة في مصر ، وثورة الشعب في السودان .. ولكن جمال عبد الناصر ضيع الفرصة على المخربين بإعتباره أن هذا حدث عارض ، وأن السفارة المصرية ليست أكثر من دار سودانية .

خشيت الرجعية من التقارب الذي يمكن أن يحدث بين ثورة أكتوبر وبين حكومة القاهرة ، فبادرت بهذا العمل السخيف .

وإذا كانت ثورة مايو قد أصلت الاتجاه التقدمي الاشتراكي في السودان ، وحطمت العزلة التي حاول الاستعمار أن يفرضها حول حكومة الثورة في القاهرة بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ ، فإن الوضع الطبيعي أن يلتقى الرفاق على درب الثورة في تعاون وصداقة وأخوة وقد بادرت الثورتان معا الى تحقيق هذا اللقاء ، وخاصة بعد

أن قامت أيضا ثورة ليبيا بعد ثلاثة شهور من ثورة السودان وهنا يصبح التعاون في شتى المجالات مسئولية وطنية في خدمة الشعوب المصرية والسودانية والليبية .. فما أظن أن الذين ناضلوا من أجل الكفاح المشترك كانوا يقدمون تضحيات ليديروا ظهورهم لبعض بعد أن ينتصروا .

انتصار الكفاح المشترك ضد الاستعمار البريطاني ، هو مرحلة من مراحل الكفاح المشترك أيضا ضد الاستعمار الحديث .. وضد كل أنواع التدخل الامبريالى .

ويخطئ من يتصور أن الامبريالية العالمية سوف يضيقها اليأس ،

وتصرف النظر عن محاولة تحطيم النظم الثورية والتقدمية في دول العالم الثالث .. بل وفي الدول الاشتراكية وفي سبيل ذلك ، تسلك الامبريالية وأعوانها من الرجعية والثورة المضادة أكثر الطرق مكررا ودهاء .. ويمكن لها أن تجيد التمويه والتخفى وتغيير الأقنعة وأسلوب الحديث .. ولكنها تظل دائما على تركيز شديد في محاولة الوقيعة بين لقاء القوى الثورية والتقدمية .. كما تحاول دائما تخريب المجتمع من الداخل .

ومنهج الثورة المضادة في مصر ، يختلف بالتأكيد عن منهج الثورة المضادة في السودان .. تماما كما يختلف أسلوب التطبيق الاشتراكي والعمل السياسي في مصر عنه في السودان .

لا يمكن القول لحظة بأن مانجح في السودان يمكن أن ينجح في مصر .. ولا أن ماينجح في مصر يمكن أن ينجح في السودان النجاح الحقيقي في تعاون الدولتين والحكومتين والشعبين هو في أن يحقق كل نظام القاعدة الصلبة له بين الجماهير .. وأن يعمق الوعي بأن لقاء الثورات هو أحد الأسلحة الرئيسية في مقاومة الامبريالية العالمية ، وخاصة الأمريكية .

والكفاح المشترك .. صورته قد تغيرت من تعبئة وحشد ومظاهرات ضد الوجود الاستعماري هنا أو هناك .. الى عمل وجهد وتعبئة من أجل دعم النظام الثوري وبناء المجتمع الاشتراكي .. وهذا الكفاح المشترك يفرض نوعا من التعاون تقدر كل دولة احتياجاتها منه .. ويصبح واجب الدولة الأخرى تقديم مايمكن لها تقديمه في حدود مصلحة الشعبين المشتركين .

والنظم الاشتراكية في طبيعتها لا تجنح الى الاستثمار أو الاستغلال .. ولا يجوز أن تنسحب بعض الأخطاء المحدودة لتصبح قاعدة عامة ..

وما يتم الآن من تعاون بين مصر والسودان وليبيا ، هو نوع من الكفاح المشترك ضد الامبريالية العالمية ..
والكفاح المشترك لا يجوز أن يهدأ أو يتوقف .. بل يجب أن ينمو ويتطور .. فإن المؤامرات الاستعمارية لا تتركز الى الهدوء .. وما تحقق في المنطقة أمر يقرب من المعجزات .

وأى ضربة توجه الى دولة من الدول الثلاث لابد وأن تؤثر في الدول الأخرى .. ولذا فإن خطوات اللقاء والتعاون يجب أن تتم فوق أرض صلبة من الوعي والبحث والدراسة .. بعيدا عن الارتجال .. بعيدا عن العواطف السطحية .. في حذر شديد مما يبذره الاستعمار وأعوانه من تشويهاات

طريق الكفاح المشترك طويل .. وهو بعد الانتصار قد يكون مليئا بالاشواك والحساسية .. ولكن وعى الجماهير والحكومات وثوريتها هي الضمان الوحيد لاتصال الكفاح المشترك .
فإن الجماهير تدرك أن الكفاح المشترك .. يعنى المصير المشترك

المراجع

العربية

- اقتصاديات السودان محمد محمود الصياد
- تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته نعموم شقير
- دراسات في العالم العربي دكتور جسان حمدان
- الزعيم على عبد اللطيف عبد الحميد ابراهيم
- السودان من ١٣ فبراير ١٨٤١ الى ١٣ فبراير ١٩٥٣ مطبوعات رئاسة مجلس الوزراء
- السودان المعاصر ١٨٢١ - ١٩٥٣ دكتور زاهر رياض
- قضية السودان أسعد حليم
- دراسات في تاريخ مصر السياسي فوزى جرجس
- مآسى الانجليز في السودان وفد السودان بالقاهرة
- المركز الدولي لمصر والسودان وقناة السويس
- دكتور راشد البراوى
- الوضع القانونى للسألة المصرية السودانية دكتور زهير جرائنة
- تطور الحركة الوطنية المصرية شهدى عطية الشافعى

الاجنبية

The Egyptian Sudan, its loss and recovery Al ford, H.S.L.
& Sward, W.D.
Sudan today Hyslop John
The making of the modern Sudan New bold Douglas
The Sudan question Mekki Abbas.

فهرس

الباب الأول	صفحة
مؤامرة الاستعمار البريطاني ضد الوجود المصرى	
بالسودان	٥
الباب الثانى	
ما بعد نكسة ١٩٢٤	٢٥
الباب الثالث	
أثر الحرب العالمية الثانية	٤١
الباب الرابع	
الكفاح الشعبى المسلح	٦٥
الباب الخامس	
السودان ... وثورة ٢٣ يوليو	٧٥
الباب السادس	
ثورة أكتوبر	٩١
الباب السابع	
حكم الأحزاب التقليدية	١٤٣
الباب الثامن	
قصة ميلاد ثورة مايو	١٥٥

الباب التاسع

ثورة مايو ١٧١

الباب العاشر

كفاح مشترك ... ومصير مشترك ٢٣٥

كتب للمؤلف

عسكرية :

- ١ - حرب العصابات ٤ طبعات
- ٢ - خواطر عن العرب
- ٣ - أسرار معركة بور سعيد

رحلات :

- ٤ - الدانوب الجديد
- ٥ - من طوكيو الى لندن
- ٦ - مصرى فى فيتنام وكوريا والصين

أدب :

- ٧ - كومبارس
- ٨ - الأزمة
- ٩ - الصمت

مسرح :

- ١٠ - خمس سنوات فى المسرح
- ١١ - المسرح من الكواليس

طبع بمطابع
مؤسسة دار الهلال
١٩٧٠

